المستشرقون والقرآن

دراسة لترجمات نفر من المستشرقين الفرنسيين للقرآن وآرائهم فيه

د. إبراهيم عوض

دار القاهرة

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م

حقوق الطبع محفوظة

اسم الكتاب	المستشرقون والقرآن دراسة لترجمات نفر من المستشرقون الفرنسيين للقرآن وآرائهم فيه
اسم المؤلف	الدكتور / إبراهيم عوض
رقم الطبعة	الأولى
رقم الإيداع	١٧٤٥
الترقيم الدولى	I. S. B. N 977 - 344 - 194 - 2
سنة النشر	٢٠٠٣م ـ ١٤٢٣هـ
الناشر	مكتبة زهراء الشرق
عنوان الناشر	١١٦ ش محمد فريد ـ القاهرة
بلد الناشر	القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
التليفون	٣٩٢٩١٩٢ ـ ٠١٢/٣١٧٧٥١٠
فاكس	٣٩٣٣٩٠٩ ـ ٣٩٢٩١٩٢

بسم الله الرحمن الرحيم

المستشرقون والقرآن

دراسة لترجمات نفر من المستشرقين الفرنسيين للقرآن وآرائهم فيه

إلى القارئ الكريم

حينما فكرت فى إعداد هذه الدراسة لم يكن يخطر على بالى أن هؤلاء المستشرقين الذين ينتقدون القرآن ويخطّئونه وينفّرون الناس منه لا يحسنون فهمه على هذا النحو المخزى الذى تكشف لى بعد ذلك . لقد كنت أظن أن أخطاءهم هى من تلك الأخطاء العادية التى لا ينجو منها جهد بشرى ، أما هذا الجهل الفادح ، وهذا العناد الحرون ، وهذا الالتواء فى النية الذى سيلمسه قارئ الكتاب بيده ، فهو فى الحقيقة شىء لم يكن يخطر لى ببال حتى إنى بعد أن فرغت من داستى هذه فكرت أن أسميها « المهزلة الاستشراقية ، فى المسألة القرآنية » .

فهذا عن المستشرقين ، أما الكتاب فإنه مقسم إلى بابين ، فى كل باب أربعة فصول . ويضم الباب الأول أربع دراسات تحليلية نقدية لأربع ترجمات فرنسية للقرآن : الثلاث الأولى لثلاثة من مشاهير المستشرقين هم سافارى ومونتيه وبلاشير ، والترجمة الرابعة للشيخ أبو بكر حمزة ، وهو عربى مسلم يعيش فى فرنسا ، لكنه ، فيما أقدّر ، متأثر ببعض آراء المستشرقين الخطيرة التى لا أدرى كيف يجمع المرء بين الإسلام وبين الإيمان بها ، فلذلك ألحقت ترجمته بالترجمات الثلاث السابقة . ولعله أن يصلنى أو يقع بين يدىّ ما يزيل السحابة التى غطّت علي نفسى من جراء ترجمته . أما الباب الثانى فإنه يضم فصولا أربعة عن القرآن ترجمتها عن أربعة مستشرقين مختلفين هم بارتلمى سانت هيلير وإدوار مونتيه وكليمن هيوار وبلاشير . وفى هذه الفصول الأربعة يطّلِع القارئ على معظم ما يردده المستشرقون عن القرآن ومصدره وتاريخه وجمعه ومبادئه وعلاقته بالكتب السابقة . وقد شفعت كل فصل من هذه الفصول بتعليقات وافية محّصت فيها هذه الآراء ودرستها وبينت ما فيها من عوار وتهافت .

لقد أقبلت على هذا البحث بعقل مفتوح ظانا أنى سأقرأ كلامًا إن لم يوافق اعتقادى فهو كلام موزون ، أما هذا التهافت وهذه الجرأة الجاهلة التى سيراها القارئ بنفسه من خلال عشرات الأمثلة (لاحظ أنها مجرد أمثلة) فقد صدمتنى وخيبت ظنى تخييبا .

نقطة أخيرة أحب أن أوضحها هى أنى، وإن استعنت ببعض كتب التفاسير والدراسات القرآنية ، كنت حريصا على أن يكون لى رأيى المستقل . وسوف يرى القارئ فى عدة مواضع كيف خالفت الرأى الشائع فى تحليل وتفسير وتذوق هذه الآية

أو تلك أو تتبُّع الخيط الذى يربط بين الموضوعات التى تبدو للمتعجِّل متباعدة فى هذه السورة أو فى تلك . بل إن هناك عدة آيات لا أذكر أنى قرأت ما عنّ لى فيها عند أحد قبلي . وكان عمدتى فى ذلك ، إلى جانب استقلال التفكير ، ذوقى الأدبى الذى غذّته قراءاتى الأدبية والنقدية ، إذ إن هذا هو مجال تخصصى الأول .

وبعد ، فهل أنا بحاجة إلى القول بأن القارئ لن يعْدَم فى هذه الدراسة أخطاءً هنا وهناك ؟ كلِّ الذى أرجوه ألا تكون هذه الأخطاء كثيرة ولا فاضحة ، ولعل الله أن يستر على عوار عبده الضعيف ، وهو أكرم مسؤول .

الباب الأول

(الدراســــات)

الفصل الأول
(ترجمة سافارى(*))

أول ما يلاحظ على هذه الترجمة أن اسم « محمد » ﷺ قد ذُكر على الغلاف بوصفه مؤلف القرآن . ولست هنا أجادل فى حقّ المترجم أن يعتقد أن محمدا هو مؤلف القرآن أو لا ، فهذا أمر يرجع إليه هو، وليس لى أدنى حق فى أن أحجر على ما يعتقد ، لكن الذى أعرفه هو أن الأمانة العلمية كانت تقتضيه أن يغفل ذكر اسم النبى على الغلاف لأن الأصل الذى ترجم عنه لا يوجد فيه شيء من هذا ، فكان الواجب عليه فى مثل هذه الحالة أن يحترم الأصل ، ثم له فى المقدمة والملاحظات الكثيرة المثبتة فى هوامش الكتاب مندوحة ليقرر ما يعتقده هو كما يحلو له . ولعلنا لا نضيف جديدا حين نقول إنه كان يرى أن النبى عليه السلام كان يؤلف القرآن سورة بعد سورة أو مجموعة من الآيات بعد أخرى على حسب الظروف ، وأنه تعمد أن يكون الوحى منجّما على هذا النحو حتى يكون فى مكنته أن يضيف إليه ما يحلو له حسبما يجدّ من أحوال أو يعترض من مشاكل فيكون فى يديه دائما زمام توجيه الأمور . وهو رأى يقول به معظم المستشرقين، وليس الرد عليه بالصعب . وقد كان الأحجى بهؤلاء الناس ومن يقفون آثارهم صمّا وبكمًا وعميًا أن يدركوا أن هذا افتراض معتسف لا يسنده دليل مقنع لولا أن أمثال هؤلاء يقبلون على البحث فى أمر القرآن والإسلام كله بعقول مغلقة وقلوب مضطغنة .

وبرغم هذا لا يسعنى إلا الاعتراف بأن أسلوب هذه الترجمة سلس وأنيق ، لكن هذه السلاسة والأناقة لا يصاحبها سلامة الفهم ولا الدقة اللازمة فى ترجمة كتاب كالقرآن هو الكتاب المقدس لأتباع أحد الأديان الكبرى فى العالم ، إذ المترجم فى كثير جدا جدا من الأحيان يكتفى بأداء المعنى أداء إجماليا ، فينقل إلى القارئ المعنى الكلى لكنه يغفل كثيرا من التفصيلات التى لا غنى عنها : فمثلاً فى ترجمته قوله تعالى : ﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل؟﴾ [البقرة ١٠٨] يقول : "Demandez - vous votre apôtre ce que les juifs demandèrent à Moïse ?" ومعناه بالعربية « أتسألون رسولكم ما سأله اليهود من موسى ؟ » . فانظر كيف حذف من

(*) ظهرت الطبعة الأولى من هذه الترجمة سنة ١٧٨٢م ، لكن الطبعة التى رجعتُ إليها فى كتابة هذا البحث هى طبعة سنة ١٨٨٣م ، وقد صدرت فى باريس عن دار " Garnier Frères " وهذه الترجمة طبعت عشرات المرات .

ترجمته عبارة « أم تريدون » ، وترجم الفعل المبنيّ للمجهول بمبنيّ للمعلوم ، وأضاف لفظة « اليهود » ، وهي ليست موجودة فى النص ، كما أنه حوّل « كما » إلى « ما » . وهذا كله يخلّ ، ولا شك، بالمعنى . لقد كان يستطيع أن يحافظ على الأصل فى درج الترجمة، ثم يشرح فى الهوامش ما فهمه هو من النص من تلقائه أو مما نقله من كتب المفسرين .

وفى ترجمة قوله تعالى : ﴿ إن الصّفا والمرْوةَ من شعائر الله . فمن حَجّ البيت أو اعتمر فلا جناحَ عليه أن يطّوّفَ بهما ﴾ [البقرة ١٥٨] على النحو التالى : Sapha " et Merva sont des monuments de Dieu . Celui qui aura fait le pèlerinage de la Mecque , et aura visité la maison sainte sera exempt d'offrir une victime d'expiation, pourvu qu'il fasse la tour de ces deux montagnes " مترجما « شعائر الله » بـ « آثار الله » مع أن المقصود هو أن الطواف بالصفا والمروة شعيرة دينية من شعائر الحج لا أن الجبلين المذكورين أثران تذكاريان ، ومترجما قوله تعالى : « حجّ البيت » بما معناه « قام بالحج إلى مكة » ، وهذا غير دقيق على الإطلاق ، فإن الحج ليس مجرد الذهاب إلى مكة ، وإلا فالناس يذهبون إلى مكة كل يوم بالآلاف ، ولا يعدّ هذا من الحج فى شيء . أما فى قوله تعالى: « أو اعتمر » فقد استبدل بـ « أو » حرف عطف آخر هو « الواو » ، وترجم « اعتمر » بـ « زار البيت » ، فأصبح المعنى « حج إلى مكة وزار البيت » . فانظر أى تشويه للمعنى ! وكأن هذا غير كاف فترجم « فلا جناح عليه أن يطّوّف بهما » بما يفيد أنه « لا يجب عليه أن يضحى بشيء بشرط أن يطوف بالصفا والمروة » ، وهو ما لا تدل عليه العبارة القرآنية أبدا ، إذ الآية قد نزلت لتذهب عن نفوس المسلمين ما كانوا يشعرون به من حرج تجاه التطويف بهذين الجبلينَ ظنا منهم أن هذا من أعمال الجاهلية التى ينبغى عليهم أن ينبذوها .

أما قوله تعالى : ﴿ كذلك يُريهم اللهُ أعمالَهم حسراتٍ عليهم ﴾ [البقرة ١٦٧] فيترجمه بما معناه « سوف يريهم أعمالهم ، وسوف يصعّدون الزفرات » ، وهو ما يُغفل من المعنى دقائقه ، وذلك بتفصيص الجملة إلى جملتين ، إذ المقصود أن أعمالَهم نفسها سوف تتحول إلى حسرات . وانظر إلى قوله : « عليهم » وإشعاعاته التى تحوم أمام عينيك ولكنك لا تستطيع عليها قبضا ! وأرجو كذلك ألا يغيب عن انتباهك أن القرآن يستخدم الزمن الحاضر فى « يريهم » فكأنك تشاهد المنظر وترى لوقتك أعمالهم

وحسراتهم، وهو ما يضيع فى الترجمة من جرّاء ما أشرت إليه آنفا ، وأيضا من جراء استعمال المترجم لزمن الاستقبال .

كذلك فى قوله تعالى : ﴿ ولا يَحْسَبَنَّ الذين يبخلون بما آتاهم اللهُ مِنْ فضله هو خيراً لهم بل هو شرٌ لهم ﴾ [آل عمران ١٨٠] يفوت المترجم ما يعود عليه الضمير «هو» ، إذ يظنه عائدا على « ما آتاهم الله من فضله » ، ولذلك يترجم الجملة كالآتى : " Que l'avare ne regarde pas les biens qu'il resoit de Dieu comme une faveur, puisqu'ils causeront son malheur " . وليس هذا هو المراد ، بل المراد أن عليهم أن يفيقوا من غفلتهم إذ يحسبون أن بخلهم هو خير لهم ، مع أنه فى الواقع وبال عليهم . إن ما يهبه الله لعبد من عباده من أموال وأرزاق ليس خيرا فى ذاته ولا شرا، بل نية الإنسان وعمله هما اللذان يكتسبان هذين الوصفين .

هذا، وقد تكررت ترجمته لقوله تعالى: «سريع الحساب» بـ "Exact" ، وهو ما يفيد أنه سبحانه دقيق فى محاسبة العباد ، وليس هذا هو المقصود (انظر ص١٥٨ ، ١٧٥ ، ١٩١ ، ٢٦٩ على سبيل المثال ، وإن كان قد ترجمها فى ص ٢٦٤ ترجمة صحيحة ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ ليَجْزِىَ اللهُ كلَّ نفس ما كَسبت . إن الله سريع الحساب ﴾ [إبراهيم ٥١] ، فلا أدرى لِمَ لَمْ يلتزم هذه الترجمة الصحيحة فى كل الحالات !) .

ومثل هذا ترجمته لفظة « المنافقون » مرارا ترجمة خاطئة وبلا سبب مفهوم . لقد ترجمها بـ « impies » (ص ١٧١ ، ٤٣٧) مع أنه استعمل هذه الكلمة بمعنى «الذين كفروا » (ص ١٨٦) ، وبمعنى «الظالمين» (ص ١٨٩) ، وبمعنى «الذين ظلموا » (ص ٣١٠) ، وبمعنى «أثيم» (ص ٣٦٤) ، وبمعنى « المسرفين » (ص ٤٢٧) . ومثل هذا الاضطراب يجور جورا شديدا لا على الدقة فقط بل على أصل المعنى، إذ إن الظالمين غير الآثمين غير الذين كفروا غير المسرفين . وهذا الجور يجده القارئ أيضا فى ترجمة الكاتب لكلمة «الأعراب» بـ « les Arabes» مع أن هذه غير تلك ، وهو من الوضوح والشهرة بحيث لا أدرى كيف خفى عليه ، إن كان قد خفى فعلاً ولم يقصده قصدا (انظر ص ٢٣١ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٤١ ، وهى سياقات يصمهم الله فيها بالنفاق، أو على الأقل بعدم مخالطة الإيمان قلوبهم ودخولهم فى الإسلام ظاهرا فقط . فهل هذا يصدق على العرب جميعا ؟ فمن الذى حمل أعباء

الرسالة إذن، وقام بها قومة الرجال ، وحارب من أجلها ، وضحى فى سبيلها ، ونشرها فى العالمين ؟ أليس عدم الدقة هنا إثما عظيما ؟) .

إن هذا اللون من الترجمة الإجمالية وغير الدقيقة يشيع فى الكتاب شيوعاً بارزاً، ولو أردت لأتيت للقارئ لا بعشرات الأمثلة فحسب بل بالمئات.

* * *

كذلك لاحظتُ أن المترجم لا ينطق الكلمات العربية نطقا سليما ، وهذا واضح من الألفاظ والعبارات التى أداها بالحروف اللاتينية ، وها هِيِ ذى بعض الأمثلة السريعة : لقد سبق أن رأى القارئ كيف كتب المترجم لفظة «مروة» هكذا : « Merva » بكسر الميم بدلا من فتحها ، وبإبدال الواو « فاء » . أوَ يدرى أيضا كيف ينطق اسم «أبى بكر» ؟ إنه يكسر باء «بكر» مما ينقل هذه الكلمة عن معناها إلى معنى «عذراء» . وهو يشرح ذلك بأنه لما كان أبو بكر والد الزوجة العذراء الوحيدة التى بنى بها الرسول فقد سمى كذلك، فتأمل هذا التخريج المضحك العجيب (انظر هامش ص ١١) . أما «جلال الدين» فينطقه بكسر الجيم ، وهو خطأ مطرد ، ولا أدرى سببه ، وإن كنت لاحظت عند بعض المستشرقين ميلا إلى قلب الفتحة على الحرف الأول من بعض الكلمات إلى كسرة . كما ينطق الفاتحة : «Fatahat» والرّحمن بضم الراء ! (ص ١١٣/هـ ٢) ، ومسلمون : « Meslemoun » بكسر الميم (ص ١١٣/هـ ٢) ، وينطق أُحد : « أُحد » (ص ١٥٢/هـ ١ ، و١٥٣/هـ ٢) ، وينطق اللات والعُزى ومناة على النحو التالى : « Lat, Aza, Menat » (ص ١٦٩/ هـ ١)، « وقتادة » بضم القاف (ص ١٩٢هـ / ١)، و « شَعِيب » بفتح الشين وكسر العين (ص ٢٠٧ / هـ ٣)، والزمخشرى : « زَمَشْكَر » ! (الموضع السابق ومواضع أخرى كثيرة) . كما ينطق « الكهف » بفتح الكافَ والهاء معا (ص ٢٩٠/ هـ ١) ، وذا الكفل : « الكَفَل » (ص ٣١٥ / هـ ٢) ، وعروة « عَرَوَة » (ص ٤٢٢ / هـ٢). وكَمثل خطئه فى نطق اسم « أبي بِكر » وفى توجيه معناه يخطئ فى تفسير اسم «مالك» خازن النار ، إذ يقول إنه سمى كذلك لأنه واحد من الملائكة ، وهذه الكلمة تعنى «ملاكًا: ange» . فمن أين له بهذا التوجيه المضحك؟ (انظر ص ٤٢٤/ هـ١) . أما صلاة « العشاء » فينطقها : « aché : عَشه » قائلا إنها من طعام العشاء (انظر ص ٤٤٤ / هـ ١) ، وهو تخليط عجيب ، فصَلاة العشاء بكسر العين ، أما طعام العشاء فبفتحها . ثم إنه إذا كانت إحدى الكلمتين مأخوذة من الأخرى فإن اسم

الطعام هو المأخوذ من اسم الوقت لا العكس . وهو ينطق محمد : « Mahammed » (ص ٧٤٠/ هـ١) و « الجمعة » بكسر الجيم (ص ٤٧١/ هـ ١) ، ونَسر : «naser» (ص ٤٨٧/هـ ١) ، وعلّيين : « aliin » ، و « تسنيم » بكسر التاء ، و « مشركين » بفتح الميم (ص ٥٢٨/هـ ٣) .

وليس خطؤه فى النطق مقصورا على الكلمات المفردة أو على أسماء الأعلام كما ربما يتبادر إلى الذهن بل يشمل نطق جمل كاملة يشوهها تشويها فظيعا حتى إنى لأتساءل : كيف يتسنى له بعد ذلك أن يفهم النص القرآنى ؟ إنه مثلا ينطق ﴿ والشمسِ وضحاها ... إلخ ﴾ على النحو التالى : «والشمسٍ وضحيها * والقمرٍ إذا تليها * والنهار إذا جلّيها * والليلٍ إذا يغشيها * والسماء وما بنيها * واللّرضٍ وما طحيها ... إلخ » . فتأمل كيف ينوّن ما دخل عليه الألف واللام ! وتأمل كيف يقلب ألف «ضحاها، وتلاها ... إلخ » ياء ساكنة ! وتأمل كيف يغفل التضعيف فى لام «جلاّها» ! وتأمل كيف يكسر ياء « يغشاها » ! وتأمل كيف يضيف ياء إلى « بناها » وكيف يضيف لاما أخرى بعد لام التعريف فى الأرض ، وهذا كله فى ما لا يتعدى سطرين . إن كاتب مقدمة الترجمة يذكر أن المترجم قد أنفق شطرا من عمره مع المسلمين العرب فى بلادهم يأخذ عنهم القرآن ونطقه . فهل هذه هى مقدرة مستشرق يتصدى لترجمة القرآن بعد أن خالط أتباع هذا القرآن وأصحاب اللغة التى نزل بها أعواما ؟ ترى أكان هذا المستشرق يحسن حقاً اللغة العربية ؟ إن الأمر جدّ محير !

إلا أننى ، قبل أن أعدّى عن الملاحظة الأولى الخاصة بعدم الدقة واعتماد الكاتب الترجمةَ الإجمالية فى مئات المواضع ، أود ألا تفوتنى الإشارة إلى أن ذلك المستشرق، فى حدود انتباهى، لم يثبت ولو مرة واحدة لفظ الجلالة « الله » كما هو بل أداه بألفاظ فرنسية لا تقوم مقامه أبدا ، مثل « Le Dieu » (ص ١٤٣)، و« L' Éternel » (ص ١٨٦) ، و« Le Tout-Puissant » (ص ٢١٨) ، و « Le Ciel » (ص ٢١٩) ، و (Le Très - Haut) (ص ٢٤٤) ، وهذه مجرد أمثلة فقط ، وإلا فلفظ الجلالة يتردد فى القرآن مئات المرات . ألعله ينفر من كلمة «الله»، التى لا يستعملها إلا المسلمون ؟ ربما أُوحَى إلىّ بهذا التفسير قوله (ص ٥٢٨/ هـ٢) تعليقا على قوله تعالى : ﴿ قل : هو الله أحد ﴾ : « لقد قضى محمد شطرا من عمره يحارب الوثنية ويهدم الأصنام ، لكنه لما لم يكن يستضىء بوحى إلهى فإنه ، وإن أزاح ظلمات الجاهلية ، قد أتى بأخطاء جديدة ، إذ إنه فى دعوته لوحدانية الله (Dieu) قد حارب

عقيدة التثليث . إن المسلمين (Mahométans) يعتقدون بإله واحد خالق للسماء والأرض يعاقب على الشر ويجزى على الخير ، لكن تعاليم نبيهم المزيف جعلتهم يرفضون الأسرار النصرانية (les mystères) ، ويسموننا بالمشركين (machrekin) لأننا نعبد ثلاثة فى واحد ». إن كلمة « الله » تدل على المعبود الواحد الأحد ، الذى لم يلد ولم يولَد ولم يكن له كُفواً أحد ، فهل هذا هو سبب هجره هذه الكلمة واستبدال كلمات أخرى بها؟ ذلك ، ولا أحب أن أتعرض لاتهامه محمداً بأنه نبى مزيف قد أضل أتباعه حين شدد على وحدانية الله وهاجم التثليث ، فهو كلام لا يستحق عناء تفنيده . لكن أليس مضحكا أن يعاب المسلمون لتوحيدهم الله وعدم إشراك أحد من عبيده به ؟

ومما يتعلق بمسألة الدقة أيضا أنه يقسم الآية الواحدة إلى آيتين وإلى ثلاث أحيانا ، ويشبك أحيانا أخرى الآيتين والثلاث فى آية واحدة ، ولم أهتد قط إلى تفسير لهذا ، فهو لا يراعى مثلاً أن تكون الكلمة التى يقسم عندها الآية إلى آيتين منسجمة موسيقيا مع بقية الفواصل أو أن يكون المعنى قد تم عندها . إن هذا عبث يخلّ بالمسؤولية التى أخذها على عاتقه حين أقدم على ترجمة القرآن ، وهو عبث غير مفهوم ولا معذور ، فإن الآيات القرآنية محددة تحديدا واضحا لا لبس فيه فى المصاحف . والطريف فى الأمر أنه ، بقدرة قادر ، قد حافظ على عدد آيات كل سورة كما هى ، اللهم إلا فى حالتين زاد العدد فيهما آية .

***

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى الأخطاء التى ارتكبها فى فهم كثير من الآيات وفى ترجمتها إلى الفرنسية وجدنا عجبا : إنه يخطّئ مترجما قبله اسمه «مراكسى : Mar-racci» كان قد سلخ من عمره أربعين عاما ، فيما يقولون، يدرس القرآن ويخطئه ، ويستعمل فى الحديث عن الإسلام ونبيه لغة بذيئة (انظر ص VIII من المقدمة) ، فجاء سافارى وأشار إلى بعض أخطائه وتهكم به كما فى ص ٢٤٦/هـ ٢ مثلا حيث بين كيف أخطأ ذلك المستشرق فَهْمَ نص عربى ثم استدار مع ذلك إلى صاحب هذا النص فسخر به وهاجمه ، مع أن الخطأ خطؤه هو ، والعيب فى فهمه هو . فإذا كان سافارى يعيب أخًا له قد سبقه فى هذا المجال ، فلماذا لم يحترز من الوقوع فى مثل أخطائه بإحسان اللغة التى اضطلع بترجمة كتابها المقدس ، وهو أروع وأعظم وأجمل كتاب

كتب بها ؟ وسوف أشير كعادتى إلى أمثلة قليلة جدا مما تمتلئ به هذه الترجمة من أخطاء :

فهو يترجم لفظتى «سفيها أو ضعيفا» فى قوله تعالى : ﴿ فإن كان الذى عليه الحقُّ سفيها أو ضعيفا ... ﴾ [البقرة ٢٨٢] كالآتى : « malade ignorant, » وهو ما يعنى « جاهلا أو مريضا » (ص ١٤١) ، ويترجم عبارة «من المقرّبين» [آل عمران ٤٥] هكذا : «le confident du Très - Haut» (ص ١٤٦) ، وكأن الله سبحانه ملك من ملوك البشر الذين يُفضُون إلى بعض وزرائهم بما عندهم من أسرار ويجعلونهم موضع ثقتهم ، فضلاً عن صياغة العبارة الفرنسية التى تشير إلى أن عيسى عليه السلام هو وحده الذى يتمتع بهذا الامتياز مع أن الآية القرآنية تستعمل «مِن» ، التى تجعل من عيسى واحدا فقط من المقربين .

أما فى قوله تعالى : ﴿ وما أصابكم يومَ التقى الجمعان فبإذن الله ، وليَعلَمَ المؤمنين * وليعلمَ الذين نافقوا وقيلِ لهم : تعالَوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا . قالَوا : لو نعلم قتالا لاتّبعناكم. هم للكفر يومئذٍ أقرب منهم للإيمان﴾ [آل عمران ١٦٦ ـ ١٦٧] فإنه يترجم « وليعلم المؤمنين » بما معناه «ليميز المنافقين» . يضاف إلى ذلك وهْمه أن الذين قيل لهم : « تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا » إنما هم المؤمنون ، إذ يترجمها على النحو التالى : " Lorsqu'on dit aux croyants : venez combattre sous l'étendard de la foi, venez repousser l'ennemi ". ثم إنه أغفل حرف العطف « أو » الذى يدل هنا على الانتقال من الأعلى إلى الأدنى ، بمعنى أنه « إذا لم تقاتلوا فى سبيل الله فعلى الأقل تستطيعون أن تدفعوا » (ص ١٥٥). أما الآية التى تلى هذه ، ونصها : ﴿ الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا : لو أطاعونا ما قتلوا . قل : فادرءوا عن أنفسكم الموتَ إن كنتم صادقين ﴾ (وهى « بدل » من « الذينَ نافقوا وقيل لهم : تعالَوا ... إلخ ») ، فقد فصلها عن الآية السابقة وجعلها كلاما مستأنفا مما أخل بالمعنى . كما أنه قد ترجم « أطاعونا » بمعنى « صدّقونا » ، وهذا غير ذاك .

وهو لا يفهم معنى قوله تعالى مخاطبا الأوصياء على اليتامى القُصّر : ﴿ولا تأكلوها إسرافا وبدارًا أن يكبروا﴾ [النساء ٦] ، وهذا واضح من ترجمته إياه على النحو التالى : " Gardez vous de les dissiper en les pradiguant ou en vous hâtant de les leur confier lorsqu' ils sont trop jeunes " ، ومعناه : « لا تضيعوها بالتبذير، ولا تتعجلوا فى تسليمها إليهم وهم لا يزالون صغارًا » . إن هذا التحذير الإلهى

قد تكرر قبل ذلك وبعد ذلك بما من شأنه أن يتنبه ذلك المستشرق إلى معناه ، فكيف لم يفهم هذه الآية مع عدم غموض ألفاظها ولا السياق الذى وردت فيه ؟ ونظير ذلك ترجمته لقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، لا يحلُّ لكم أن ترثوا النساء كَرْها ﴾ [النساء ١٩] ، الذى يشير إلى ما كان شائعا فى الجاهلية من وراثة الابن زوجةَ أبيه وكأنها متاع لا رأى له ولا إرادة ، فضلاً عما فى التزوج بزوجة الأب من انحراف لا يقره الإسلام . لقد ترجمه بما معناه : « لا يحل لكم أن ترثوا شيئا عن نسائكم ضد إرادتهن » ، ثم زاد الطين بلّةً فأضاف فى الهامش هذا التوضيح : « أى عندما تطلقونهن » (ص ١٦٠). أما قولهُ تعالى فى نفس الآية : « فإن كرهتموهن » فيتحول عنده إلى « فإن عاملتموهن بشدة »! (ص ١٦١) . وهو يؤدى قول الشيطان لربه : ﴿لأتّخذنّ من عبادك نصيباً مفروضا ﴾ [النساء ١١٨] بما يعنى « سوف أهاجم بعضا من عبادك » (ص ١٦٩). فهل نفهم من هذا أن الشيطان يوسوس لبعض الناس فقط ولا يتعرض للباقين ؟ إن هذا ما تدل عليه عبارة المترجم (علاوة على أنه قد أهمل ترجمة كلمة « مفروضا » كما هو واضح) ، وهذا خطأ كبير ، إذ الشيطان يهاجم الجميع ، لكنه لا ينجح إلا مع بعضهم ، وهذا هو معنى الآية .

أما قوله تعالى : ﴿ قد خَسِر الذين كذّبوا بلقاء الله ﴾ [الأنعام ٣١] فيؤديه هكذا : « Ceux qui niaient la résurrection ne sont plus » ، ولا أدرى بالضبط ماذا يقصد بهذا الكلام . أما بقية الآية ﴿ حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا : يا حسرتنا على ما فرّطْنا فيها ! وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم . ألا ساء ما يزرون ! ﴾ فيترجمها هكذا : « لقد فاجأهم الموت بغتة فصاحوا : يا حسرتنا على نسياننا هذه اللحظة المحتومة ! إنهم سيحملون أوزارهم . ألا ساء ما يزرون ! » : " La mort les surpit tout à coup, et ils s'écrièrent : Malheur à nous pour avair oublié ce moment fatal ! Ils porteront le fardeau de leurs crimes , malheur fardeau ! " فانظر كيف قطع الكلام عما سبقه ، إذ أسقط « حتى إذا » ، وكيف ترجم الساعة بـ « الموت » ، وكيف أسقط عبارة « على ظهورهم » ، مما أفسد المعنى إفسادا شنيعا . كما ترجم ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ؟ ﴾ [الأنعام ٣١] بما يعنى « ومن أظلم ممن جعل الله مشتركا فى كذبه ؟ » (ص ١٩٣) ، فمن يا ترى الكاذب الأصلى الذى أُشرِكَ الله سبحانه وتعالى معه فى هذا الإثم ؟

ومثل هذا الإفساد الشنيع نقلُه قوله تعالى حكاية عن المشركين : ﴿وأقسَموا بالله

جَهْدَ أَيمانهم لَئِنْ جاءتهم آية ليؤمنُنّ بها . قل : إنّما الآياتُ عند الله . وما يُشْعِرُكم أنها إذا جاءت لا يؤمنـون؟ * ونقلّب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذَرهم فى طغيانهم يعمهون ؟ ﴾ [الأنعام ١٠٩ - ١١٠] هكذا : " Dis leur : les merveilles sont en sa puissance, mais il n'en produit pas, parcequ' à leur vue vous resteriez dans l'incrédilité . Nous détournerons leurs yeux et leurs cours de la vérité . Ils n'ont pas cru au premier miracle ..." مترجماً « قل إنما الآيات عند الله » بما يفيد أن الله يقدر على صنع المعجزات ، وليس هذا هو المراد ، فإن المشركين لم يكونوا يشكّون فى قدرة الله ، وإنما المراد هو أن الأمر ليس راجعا إلىّ ، إذ لست إلا رسولا . أما الذى يقرر إرسال آية أو لا فهو الله، ومترجما كذلك « وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون؟ » بما مفاده : « ولكنه لن يرسل من ذلك (أى مما يقترَحه المشركون من آيات) شيئا لأنكم فى نظرهم سوف تبقون (مع ذلك) غير مؤمنين » (ص١٩٥) . وهو يفهم « الهاء » فى قوله تعالى : (كما لم يؤمنوا به أوّل مرة) على أنها تعود على « المعجزة الأولى » ، فأى معجزة أولى هذه يا ترى؟ إن هذه الهاء تشير إلى الوحى ، الذى سيكذبون به وإن نزل عليهم من السماء ما يقترحونه من آيات كما قد كذبوا به قبل نزولها .

وهذا مثال آخر يرينا كيف يقرأ هذا المستشرق القرآن ويفهمه ويترجمه ثم يأنس مع ذلك من نفسه القدرة على التهكم بالإسلام ونبيه وتعاليمه . إنه يترجم قوله تعالى : ﴿سيقول الذين أشركوا : لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرّمنا من شىء ﴾ [الأنعام ١٤٨] بالعبارة الآتية : " Si Dieu eut voulu, disent les idolâtres, ni nous ni nos pères n'aurions offert de l'encens aux idoles . on ne nous en a point fait la défense ". ومعناها : « سيقول عَبَدة الأوثان : لو شاء الله ما عبدنا الأوثان نحن ولا آباؤنا ، فإننا لم نُمنَع قطّ من ذلك » (ص١٩٨) ، فكأنه قرأ « حرّمنا » على أنها « حرمنا » ، فهل للكلام على هذا النحو من معنى ؟ إن المقصود هو أنهم يحيلون على الله سبحانه وتعالى مسؤولية إشراكهم به وتحريمهم بعض الأنعام مما لم يحرمه الله تعالى ، فتأمل كيف أغرب المترجم فى الفهم، وتعجب !

وعند قوله تعالى للملائكة : ﴿ اسجدوا لآدم ﴾ نراه يترجمه إلى : « -ado rez Adam » ، أى « اعبدوا آدم » ! (ص ١١٦ ، ٢٠٠ مثلا) مع أنه عند ترجمة قوله تعالى عن سحرة فرعون حين آمنوا بما جاء به موسى : ﴿ وأُلقِىَ

السَّحَرَةُ ساجدين ﴾ [الأعراف ١٢٠] قد ترجمه على النحو التالى : « Les mages prosternés s'écrierènt : ... » ، فلماذا اختلفت الترجمة هنا عنها هناك مع أن سجود السحرة هو سجود لله قصدوا به إعلان إيمانهم به وتحولهم عن عبادة فرعون إلى عبادته ، أما سجود الملائكة لآدم فليس فيه معنى العبادة إطلاقا ؟ ألا يوحى هذا بأن المترجم يريد الإساءة إذ يدّعى ضمنا أن الله غير مخصوص بالعبادة فى الإسلام ؟

أما قوله تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسولٌ من أنْفُسكم عزيزٌ عليه ما عَنِتُّم ﴾ [التوبة ١٢٨] فقد ترجمه بـ « Il est chargé de vos fautes » ، أى أن الرسول يتحمل أخطاء البشر ، وهو ما يصادم العقيدة الإسلامية مصادمة عنيفة (ص ٢٣٤) .

مما سبق من أمثلة قليلة جدا جدا يرى القارئ كيف يخطئ المترجم فهم المعنى مما يترتب عليه أن تشوّه عقائد الإسلام وشرائعه وتقدّم إلى الأوربيين على غير حقيقتها . إننى أستطيع أن أستمر فى سرد أمثلة وأمثلة أخرى من هذه الأخطاء ، لكننى أشعر بأن ذلك سوف يملّ القارئ ، بل إننى أنا نفسى قد بدأت أحس بالملل . ومع ذلك فليسمح لى القارئ الكريم بأن أستشهد بمثالين آخرين مضحكين لأرفّه عنه قليلا ، ثم نستأنف جولتنا فى ناحية أخرى من نواحى القصور الشديد فى هذه الترجمة :

يقول القرآن عن إبراهيم عليه السلام إنه لما جاءه الملائكة فى طريقهم إلى لوط لتدمير قومه جزاء كفرهم وشذوذهم ظنّهم بشرًا حلّوا عليه ضيوفا فقام فشوى لهم عجلا سمينا وقدمه إليهم ودعاهم إلى أن يأكلوا منه ، لكنهم لم يمدوا أيديهم إلى الطعام ، فاستغرب منهم هذا التصرف وشعر بالخوف من مثل هؤلاء الضيوف الذين لا يتصرفون تصرف الضيوف . ونصّ القرآن هو : ﴿ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى . قالوا : سلاما ! قال : سلام ! فما لبث أن جاء بعجلٍ حنيذ * فلما رأى أيديهم لا تصل إليه (أى إلى العجل الذى شواه وقدمه إليهم) نَكِرهم وأوجَس منهم خيفة ﴾ [هود ٦٩ - ٧٠] ، فكيف فهم المترجم هذه العبارة ؟ لقد اختصها بتعليق طويل فى الهامش شرح فيه كيف يحيّى الشرقيون بعضهم بعضا إذا التقوا فى الطريق ، وكيف أن كلاً منهم يضع يده على قلبه بعد أن يقول : « السلام عليكم » ويرد الآخر : «عليكم السلام» ثم يتحاضنان ، ثم يرسل كلاهما الآخر ثم يحضنه كرة أخرى ، كل ذلك وهو يتمنى له الصحة والعافية . ثم يمضى المترجم فيفرق بين هذه التحية التى لا تكون إلا بين المعارف ، وبين تحية الغرباء التى يكتفى فيها بـ « السلام عليكم » ، وتحية الكفرة وهى (كما يقول) ليست أكثر من « Bonjour » . ثم يخلص من ذلك كله

إلى أن إبراهيم حين رأى أن ضيوفه لم يصافحوه (فهكذا فهم المترجم قوله تعالى: ﴿ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه ﴾، أى إلى إبراهيم وليس العجل !) ظنهم غرباء فأوجس منهم خيفةً. يعنى أن إبراهيم عليه السلام، بعد أن حيّا ضيوفه وأدخلهم داره، قام وانتقى عجلا سمينا ذبحه وسلخه وشواه وأعده للأكل وأحضره إليهم، وعندئذ، وعندئذ فقط (أى بعد مرور عدة ساعات على الأقل فى ذلك الزمن الذى لم تكن قد اخترعت فيه البوتاجازات ولا عرفت فيه حلل البرستو، وكان الناس يقضون فى شىّ العجل كاملا الساعات الطويلة يقلبونه على نار الحطب، عندئذ فقط تذكر إبراهيم أن هؤلاء الضيوف لم يصافحوه، وما داموا لم يصافحوه فهم إذن غرباء (حسب نظرية هذا المستشرق فى فن الضيافة)، وما داموا غرباء فلابد من أن يشعر بالخوف منهم (ص٢٤٨/هـ١). فانظر كيف ذهب به الخيال السقيم كل مذهب! ويبدو لى أن هذا الخطأ الفاحش ربما نجم من أن المترجم قد ترجم هذه الآية وفى ذهنه ما جاء فى التوراة المحرفة من أن الملائكة قد أكلوا من الطعام الذى قدمه إبراهيم إليهم (تكوين/ ١٥/٦ـ ٨).

أما النادرة الأخرى فهى ترجمته لعبارة « وغرابيب سود » من قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ﴾ [فاطر ٢٧]، وهى إشارة إلى ما يشاهد فى صخور الجبال (كما فى النبات والبشر وكل شىء فى الدنيا) من تنوع فى الألوان والشيات (ولعلها تسلية للرسول بالتلميح إلى أن الله قد خلق كل شىء مختلفا، وخلق الناس كذلك مختلفين ما بين كافر ومؤمن، فلا يحزن). أتدرى كيف ترجمها هذا المستشرق ؟ لقد ترجمها بـ « Le corbeau est noir »، أى «الغراب أسود» !!! (ص ٣٨٦).

* * *

والآن فلننتقل إلى تصفح بعض ما أضافه المترجم إلى ترجمته من هوامش يثبت فيها ما فهمه من النص أو ينقل عن المفسرين ما يراه لازمًا لتوضيحه. ولأبدأ بتعليقه على الحروف المقطعة التى تفتتح بها بعض السور. إنه يدّعى أن مفسرى القرآن يقولون إن هذه الأحرف علامات غامضة لا ينبغى البحث عن معناها، وأنهم يؤمنون بأن الله لم يكشف عن معناها إلا لرسوله، وأنها ستظل مجهولة أبدا لبقية البشر، ثم ينسب هذا الكلام لـ«جلال الدين وطالب ؟» (ص ١١٤/هـ١)، وفى موضع آخر (ص ٢٦٠/هـ١) يقول إن « جلال الدين ؟ » كعادته يتخلص من مهمة شرح هذه

العلامات بقوله إن الله يعلم ما تعنيه هذه الحروف ، وهو ما يفيد أن جلال الدين (الجلالين ؟) لا يرى أنه قادر على التوصل إلى تفسير مقنع لهذه الأحرف . فانظر كيف عمم الحكم وجعل جميع المفسرين يؤمنون بأن هذه الأحرف لا يعرفها ولن يعرفها أحد أبدا بل لا ينبغى أن يعرفها أحد، مع أن من علماء المسلمين من يرى غير هذا الرأى ويقدم تفسيرات متعددة لهذه العلامات ، سواء اقتنعنا أو لم نقتنع بما يقولون. بل إن أحد هذه التفسيرات على الأقل لا يخلو من كثير من الوجاهة ، وهو أن القرآن ليس مؤلفا من شىء آخر غير حروف الألف باء ، التى هى فى متناول كل إنسان، ومع ذلك ليس بمقدور أحد أن يأتى بمثل هذا القرآن .

وفى تعليقه على سؤال إبراهيم عليه السلام لربه : ﴿ كيف تُحْيِي الموتى ؟ ﴾ وقول الله له : ﴿ فَخُذْ أربعةً من الطَّير فصرهنَّ إليك ، ثم اجعل على كلِّ جبل منهن جزءا ، ثم ادْعُهنّ يأتينك سَعْيا ، واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾ [البقرة ٢٦٠] يورد ما يقوله بعض المفسرين عن هذا الطير وأنواعه وما فعله إبراهيم بالضبط ، ثم يعقب بأن «المسلمين : Mahométans» بسبب الجهل يؤمنون بهذه الخرافات ويعدونها وقائع حقيقية لا سبيل إلى الشك فيها (ص ١٣٩هـ/١) . فهل هو يرى أن هذه القصة كما وردت فى القرآن خرافة لا يؤمن بها إلا الجهلاء ؟ أم هل يقصد التفصيلات التى أضافها المفسرون فحسب ؟ أم هل يقصد هذه وتلك معا ؟ أغلب الظن أنه يقصد القصة كلها ، ما ورد منها فى القرآن وما زاده مفسروه . فأما إضافة المفسرين فلا شأن لنا به ، وأما ما جاء فى القرآن فإن الإنسان لتأخذه الدهشة البالغة وهو يرى هذا المستشرق يصفه بأنه خرافة ، وهو الذى يؤمن طبعا بكل ما ورد فى الكتاب المقدس من مبالغات وتهاويل مما تبدو هذه القصة معه ، من الناحية العقلية وحدها ، مقبولة جداً .

كذلك فهو يجد فى نفسه الجرأة للتهكم بعقيدة الجنة عند المسلمين وما فى الفردوس من ظلال وارفة ، وخضرة دائمة ، وأنهار جارية ، وفواكه نادرة ، وحور عين لاهمّ لهن إلا الحبُّ ، وكذلك السخرية بالمسلمين (Mahométans) ، هؤلاء الناس الحسيين كما يقول (ص ٢٠٢/هـ ١). والحق أننى لا أدرى ما الذى يعاب فى هذه الطيبات وغيرها مما أكد القرآن فى مواضع كثيرة أنه سيكون جزاء المؤمن المخلص فى العالم الآخر . إن مثل هذا الاعتراض كان يسهل فهمه لو أن هذه الأشياء مما تعافها نفس الإنسان . فهل ثمة مخلوق ، مخلوق واحد سوىّ النفس ، ينفر من هذه الطيبات ؟ إن القرآن والحديث يؤكدان أن هذه اللذائذ ليست هى كل شىء، وأن هناك

رضوان الله ، والنور الذى يسعى بين أيدى المؤمنين وبأيمانهم ، والملائكة الذين يدخلون عليهم من كل باب يحيّونهم بالسلام الذى سيعمهم ويعم الفردوس كله ، فلا ضغن ولا أحقاد ولا ملَل ولا خوف ولا قلق بل حب وصداقة خالصة . ثم إن هذه اللذائذ لن تكون كما نعهدها هنا على الأرض بل ستكون لذائذ خالصة لا يصاحبها أو يعقبها ما يصاحب ويعقب لذات الدنيا من ألم أو كظّة أو عسر هضم أو حتى حاجة إلى إخراج ، إذ إنها فى هذه الحالة ستستحيل عطرا يرشح من مسامّ الإنسان . إن العالم الآخر لن يكون مثل عالمنا هذا بل سوف تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ، وهؤلاء المستشرقون هم آخر من يحق لهم أن يسخروا بهذه اللذائذ ، بل هم آخر من ينبغى أن نصدقهم إذا زعموا ذلك ، فهم ومجتمعاتهم كلها كأنْ قد أصابهم سعار نحو لذات الجنس والخمر والطعام والشراب ، وإلا فلماذا كتب هذا المستشرق هذا الكلام ؟ أليس من أجل التمكين لبلاده ومساعدتها على غزو بلاد المسلمين والانفراد بما فيها من أرزاق وخيرات ؟ أم تراهم حين جاؤوا إلى بلادنا واحتلوها عاشوا عيشة المتبتلين وتركونا لنا هذه اللذات التى لا تليق إلا بالناس الشهوانيين ؟ العجيب أننى لم أسمع الزراية على جنة المسلمين إلا من الغارقين فى شهواتهم إلى أنوفهم !

ثم إن لهذا الرجل تخريجات عجيبة لا أدرى من أين يأتى بها عقله هذا الذى سيورده بمشيئة الواحد الأحد جحيم السعير . إن القرآن إذا قال : ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة ، وأتممناها بعشر﴾ [الأعراف ١٤٢] أسرع هذا المستشرق إلى التساؤل : ولِمَ لَم يقل : « ثلاثين يومًا » بدل « ثلاثين ليلة » ؟ وبدلا من أن يستنبط هذا الاستنباط القريب والمقنع فى آن ، وهو أن موسى ربما بقى على الجبل أربعين ليلة وتسعًا وثلاثين يوما مثلا ، نراه يدخل فى مأزق حرجة لا أعرف كيف كان يلجها أو كيف كان يخرج منها ، إذ يقول : « إن العرب يستعملون الليالى فى قياسهم للزمن بسبب حرارة بلادهم المفرطة ، وإن الليل عند العربى هو كاليوم بالنسبة لنا ، فإنه لا يخرج من خيمته عادة ما دامت الشمس فى السماء ، أما حين توشك أن تغرب فعندئذ يخرج من خيمته ويستمتع بجمال السماء ورقة النسيم . كذلك فإن شعراءهم لا يتغنون أبدا بنهار جميل، أما كلمة « ليلى يا ليلى! » فإنهم يرددونها فى كل أغانيهم » . فهل يعقل عاقل أن العربى كان يعيش عيشة الخفافيش ، فكيف يا ترى كان يرعى ويتاجر ويحارب ويسافر ؟ ومن الذى يصف فى شعره السراب والهاجرة إذن ؟ أما حكاية « ليلى يا ليلى ! » فهذا كلام الأغانى . والحمد لله أنْ نسى أنهم يقولون : « يا ليل يا عين! » ، وإلا لتساءل: لم خصوا العين من دون الجوارح جميعا بذكرها فى أغانيهم؟» ، وأجاب

بذكائه الخارق : « لأنهم ليس لهم أنوف ولا آذان ولا أفواه بل عيون فقط ! » . ألم أقل إن لهؤلاء الناس تخريجات عجيبة ؟ لقد كان يمكن أن يكون فى كلام هذا المستشرق بعض المعنى لو أن القرآن (الذى يعده طبعا كلام الرسول عليه السلام) لم يستخدم فى قياس الزمن إلا الليالى فقط ، فهل هذا صحيح؟ إن الغالب فيه هو استخدام « اليوم » ، بل إن هذه الكلمة قد وردت فى القرآن أضعاف أضعاف المرات التى وردت فيها كلمة « الليلة » ، ويمكن التثبت من ذلك بالرجوع إلى أى معجم لألفاظ القرآن . وفضلا عن هذا فإن القرآن يقرر بصريح العبارة فى أكثر من موضع مخاطبا العرب قبل غيرهم أنه ﴿ هو الذى جعـل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ﴾ [يونس ٦٧] ، كما يقول : ﴿ وجعلنا الليل لباسا * وجعلنا النهار معاشا ﴾ [النبأ ١٠ ـ ١١] وغير ذلك مما يثبت عكس ما يدعيه هذا المستشرق تماما .

على أن العجب لا ينقضى من غرابة لفتات ذهن ذلك الرجل . إنه ، فى تعليقه على المشهد الذى يصفه القرآن حين دخل يوسف عليه السلام على امرأة العزيز وعندها بعض النساء اللاتى دعتهن ﴿ وأعتدت لهن متكأ ، وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت : اخرج عليهن . فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن : حاش لله ! ما هذا بشرا . إن هذا إلا ملك كريم ﴾ [يوسف ٣١] ، يقول بالنص (ص ٢٥٤/هـ١) : «إن النساء المصريات يتزاورن كثيرا ويقمن الولائم التى يحال بين الرجال وبينها ، اللهم إلا العبيد الذين يقومون بالخدمة الضرورية . وهن فى هذه الولائم يراوحن بين الموسيقى والرقص ، اللذين يحببنهما حبا جما . وتعد العوالم واسطة العقد فى هذه الولائم ، فهن يغنين أغانى يمدحن فيها المدعوات ، ويختمن بأخرى عاطفية ، ثم يقمن بعدئذ فيرقصن رقصا مثيرا تتجاوز فيه الخلاعة حد المعقول » . هذا هو الهامش بنصه لم أزد فيه ولم أنقص منه ، فهل من صلة بين القصة القرآنية وبين هذا الكلام الذى ينفع الباحث مع ذلك نفعا جزيلا لأنه يكشف عن نفسية هذا المستشرق المنافق الذى يعيب لذات الجنة ثم يأتى مثل ذلك الكلام ليفضحه ، وإلا فلماذا أورد كل هذا هنا ؟

إن مكابرة هذا المستشرق وأضرابه فيما يتعلق بأمور الإسلام تتجاوز كل حد ، ومن ذلك أنه فى تعليقه على تنبؤ القرآن بانتصار الروم على الفرس فى بضع سنين يقول : «إن المسلمين بعد أن تحققت هذه النبوءة قد اتخذوها حجة قاطعة على نبوة محمد» (ص ٣٦٥/هـ٢) ، ثم يمضى فيكابر قائلاً : « ولكن من السهل إدراك تهافت مثل هذه الحجج القائمة على نبوءة غامضة كهذه كان بمقدور أى إنسان يعرف حالة

الإمبراطورية الرومانية وإمبراطورية الفرس أن يتنبأها بدقة » . لكن الأمر ليس بهذه السهولة التي يزعمها هذا المكابر ، وإلا فهل كان الرسول يعرف من حالة الإمبراطوريتين أكثر مما كان يعرفه أبو سفيان وغيره من دهاة قريش المضرّسين الذين كانوا يجوبون الشام والعراق بتجارتهم ، وكان بعضهم يقابلون الحكام والولاة هناك؟ فلماذا إذن عرف الرسول عليه السلام ذلك ولم يعرفه قومه ، الذين تحدّوا أبا بكر على إبلٍ تكذيبا منهم بخبر القرآن عن انتصار الروم على الفرس فى بضع سنين فكسبها أبو بكر ؟ إن من السهل مثلا أن يحسّ الإنسان الخبير إحساسًا عاما أن ثمة حربا قادمة بين دولتين متعاديتين ، أما أن يتنبأ بوقوعها فى مدى لا يتجاوز تسع سنوات ويتنبأ بانتصار الجانب الذى انهزم من فوره ، ويحصل تحدٍّ له فيخسر متحدُّوه وتقع الأمور بالضبط كما تنبأ ، فهذا هو غير المعقول ، وبخاصة إذا علمنا أن هذه النبوءة لو لم تتحقق لكان لها على مستقبل الإسلام أوخم العواقب . إن أجهزة المخابرات العصرية بعقولها البشرية المتخصصة وعقولها الألكترونية المعقدة لتخطىء فى مثل هذه الأمور . ثم إن هذا المستشرق يصف النبوءة بالغموض ، فأين هذا الغموض يا ترى ؟ ثم هل هذه هى النبوءة الوحيدة التى تنبأ بها القرآن ثم وقعت كما تنبأ ؟ ألم يتحدَّ القرآن أعداءَ الإسلام أن ينالوا من الرسول أو من دعوته منالا ؟ ألم يقرع القرآن أسماعهم بهذا التحدى من البداية إلى النهاية ؟ ألم يجهد المشركون واليهود والمنافقون والعالم كله جهدهم ثم فشلوا جميعا فشلا ذريعا وانتصر الإسلام ؟ إن هذه النبوءة وحدها تكفى ، ولا داعى للمضىّ فى تعداد بقية النبوءات القرآنية ، وكلها وقعت كما هى .

ومن الملاحظ أيضا أن ذلك المستشرق يغيِّر فيما ينقله عن المفسرين . ومن ذلك أنه، فى تعليقه على قوله سبحانه : ﴿ وفديناه بذِبحٍ عظيم ﴾ [الصافات ١٠٧] ، ينسب إلى جلال الدين (الجلالين ؟) أن إسحاق قد وضع جبهته على الأرض وأمسك إبراهيم بالسكين هامًا أن يذبحه فأوقفه نداء من السماء . ولقد رجعت إلى تفسير الجلالين ، الذى أرجح أنه هو المقصود ، فوجدته ينص على أن فى تفسير « الصغير » فى « فديناه » قولين. أى أن بعض المفسرين يقول إنه إسماعيل ، وبعضهم يقول إنه إسحاق ، فاختيار المترجم أحد الرأيين ونسبته إلى أحد مفسرى المسلمين يوهم أن علماء الإسلام يوافقون أهل الكتاب على أن الذبيح هو إسحاق وليس إسماعيل (انظر ص ٣٩٥/هـ١) .

وعن اتهام قريش السخيف للقرآن بأنه شعر يقول المترجم ، وقد فاته مغزى هذا

الاتهام الذى أطلقه مجرد العناد الأحمق ، إذ قصد المشركون به أن محمدا إنما يتلقى قرآنه عن هواتف الشياطين التى توحى للشعراء بما ينظمون من قصيد : « إن اتهام الكفار محمداً بأنه شاعر لم يكن قائما على غير أساس : فالقرآن مؤلف من آيات ، والسور الأولى منه نثر مقفّى ، أما السور الأخيرة فبعضها شعر صريح . كما أن محمدا قد أبدع فى تأليف قرآنه مستخدمًا ما فى البلاغة والشعر من ثروات فنية » (ص ٤٤٢/هـ١) . والحق أن الادعاء بأن بعض السور الأخيرة من القرآن شعر صريح هو كلام باطل لايقوله إلا مثل هذا المستشرق الجاهل بعلمى العروض والقافية .

أما فى ص ١٧٥/هـ١ فإنه يخرّف قائلاً : « وعندما يطلّق المسلم زوجته فإنه يعتزل فراشها ، أما الزوجة فحين يصلها الخبر فإنها تتغطى بنقاب وتنسحب إلى مسكنها ولا تظهر بعد ذلك لزوجها . وحين تمر الأشهر الأربعة المحددة للصلح فإن كل الصلات بين الطرفين تنقطع وتسترد المرأة حريتها وتحصل على المهر المنصوص عليه فى العقد . فأما البنات فيذهبن مع أمهن ، وأما الأولاد فيبقون مع أبيهم » . فهل هناك شىء بعد الطلاق اسمه فترة الصلح ؟ حتى لو سامحناه فى هذه وقلنا إنه يقصد به « العدّة » ، فهل العدّة أربعة أشهر ؟ ترى من أين أتى ذلك المستشرق بهذا الكلام ؟ إن القرآن الذى تصدى لترجمته قد فصّل القول فى هذه العدّة ، وبين بما لا يشوبه ذرة من غموض أنها مختلفة من حالة إلى أخرى ، وليس من بين هذه الحالات أبدا ما تعتدّ فيه الزوجة أربعة أشهر . أما عدّة المتوفّى عنها زوجها ، فهى أربعة أشهر وعشر وليست أربعة فقط . أما حكاية تقسيم الأولاد والبنات على هذا النحو الهزلى ، وكأن المسألة شروة طماطم ، فلا أدرى أى شيطان سوّلها له !

الفصل الثانى

(ترجمة مونتيه(*))

كان إدوار مونتيه صاحب هذه الترجمة أستاذاً للغات الشرقية وعميدا شرفيا لجامعة جنيف ، وترجمة يقوم بها مستشرق يشغل هاتين الوظيفتين يفترض فيها أن تكون مثالا للجودة والدقة ، فلننظر الآن فيها لنرى نصيبها من هاتين الصفتين .

أول ما يلفت النظر فى هذه الترجمة هو كتابة اسم « محمد » على الغلاف وعلى صفحة العنوان بوصفه مؤلف القرآن ، فهل هذا من أمانة العلم فى شىء ؟ إن هذا المستشرق لا يقرّ بأن القرآن وحى إلهى ، بل هو ، فى زعمه ، من تأليف الرسول عليه السلام ، إلا أنّ هذا لا يصحّ أن يكون شفيعا له لتسجيل اسم « محمد » على الغلاف على النحو السابق ذكره ، إذ ليس هناك أى مصحف يحمل اسم الرسول على جلدته ، فكان ينبغى إذن على المترجم أن يحترم هذا الوضع ، وله فى مقدماته ومداخله وحواشيه منادح يستطيع أن يجادل فيها فى المصدر الإلهى للقرآن الكريم ، أما ما فعل فهو تضليل للقارئ الأوربى يتحمل وزره على رؤوس الأشهاد .

كذلك من التعدى على أمانة العلم ما قام به هذا المستشرق مرات كثيرة جدا وبدون أى سند ، بل أيضا بدون أية محاولة لتسويغ هذا التصرف العجيب ، من تمزيق أوصال الآية الواحدة إلى أكثر من آية وضمّ الآيتين الاثنتين فى آية واحدة .

ثم إن الترجمة مليئة بالأخطاء المضحكة والخطيرة معًا مما لا يليق بأستاذ للغات الشرقية وعميد شرفى لجامعة شهيرة كجامعة جنيف ، وبخاصة أن هذا المستشرق وأمثاله لا يقدمون على قراءة القرآن ، فضلا عن ترجمته ، دون أن يحيطوا أنفسهم بالتفاسير المختلفةَ التى من شأنها أن تكمّل منهم نقص الفهم وتقوّم معوجّه . وأود هنا أن أنبه إلى أن ما سأشير إليه فى هذا الفصل من أخطاء لا يبلغ عشر معشار ما تعج به الترجمة من

(*) صدرت هذه الترجمة فى باريس سنة ١٩٢٩م عن دار « Payot » ، وتقع فى ٨٩٥ صفحة منها ٦٥ صفحة للمقدمة والمدخل ، وعشرون أخرى للفهارس . وهى مملوءة بالهوامش التعليقية والتفسيرية ، وقد نقلت إلى الإيطالية فى نفس السنة التى طبعت فيها بالفرنسية .

أغلاط تَحِيف على معنى القرآن وتشوه جلاله .

وعلى بركة الله نبدأ فنقول إنه يترجم « مَنْ » في قوله تعالى : ﴿ مَنْ كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريلَ وميكالَ فإن الله عدو للكافرين ﴾ [البقرة ٩٨] (وهى اسم شرط جوابه « فإن الله عدو للكافرين ») على أنها اسم استفهام . ثم إنه يجعل هذه الجملة الواحدة جملتين منفصلتين : أولاهما استفهامية ، والثانية هى « إن الله عدو للكافرين » مما يهبط بفحولة الصياغة القرآنية إلى ركاكة مغثية لا تسوغ إلا فى حلوق هؤلاء المستشرقين، وإلا فمن ذا الذى يسيغ استخدام الفعل « كان » فى هذه الجملة لو كانت، كما فهمها هذا المستشرق ، جملة استفهامية ؟ وأين تذهب «الفاء» فى «فإن الله عدو للكافرين» ، وهى من الوضوح بحيث تخزق عين كل جهول ؟ (ص ٨٩/هـ ٣) .

وهو يتحذلق في ترجمة قوله تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظُلَلٍ من الغمام والملائكة ؟ وقضِى الأمر ﴾ [البقرة ٢١٠] جاعلا معناه : «هل يرجون أن يأتيهم الله ... إلخ؟» ، ثم يفسرها فى الهامش بأنهم كانوا ينتظرون نزول وحى خاص من أجلهم ، مع أن الآية إنما تهددهم بأنهم إذا أتاهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة فقد انتهى الأمر وتم هلاكهم (ص١٠٩/هـ ٣) .

وهو حين يترجم قوله تعالى : ﴿ فلا جناح عليكم فيما فَعَلْنَ فِي أنفسهن بالمعروف﴾ [البقرة ٢٣٤] يجعله « فلا جناح عليهن ... » . وإن تعجب فعجب تعليل الكاتب لهذا الخروج على النص ! إنه يرى أن «عليكم» تعود على الأزواج المتوفَّين ، وأن النص من ثم مغلوط ، إذ لا يمكن بداهة أن يتحمل الأزواج المتوفَّون مسؤولية ما تفعله زوجاتهم بأنفسهن من بعدهم ، فلا داعى إذن للنص على تبرئتهم (ص ١١٤/هـ ٨) . وفات هذا المجترئَ الجهول أن المقصود هو أنه لا جناح فيما تفعله الزوجات اللاتى تُوُفِّىَ عنهن أزواجهن فى أنفسهن بالمعروف . وليس فى الآية أى لبس ، فالضمير فى «عليكم» يعود على الجماعة الإسلامية ، التى يتوجه إليها الله سبحانه بالحديث فى هذه الآية . ولولا أن الكاتب قد أقبل على ترجمته هذه وهو متنمر ومشمر عن ساعديه وساقيه لتصيُّد ما كان يظن أنه لاقيه فى هذا البحر القرآنى العميق من أغاليط لما تردَّى فى هذا الفهم المضحك .

ونفس الفهم الملتوى بل المنعدم يلقاه القارئ فى ترجمة قوله سبحانه : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ، والملائكة وأولو العلم ، قائما بالقسط ﴾ [آل عمران ١٨] ، إذ يجعله « ... وأولو العلم القائمون بالقسط » (ص ١٢٩)، وكذلك فى ترجمة قوله تعالى : ﴿سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا﴾ [آل عمران ١٥١] ، الذى يمسخه على النحو التالى : « سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما أوحى بأنه عاجز » ! (ص ١٤٦ ، و هـ ٤) .

ولنقف الآن قليلا أمام قول الحق تبارك وتعالى بعد أن أعلن حرمة زوجات الآباء على الأبناء وكذلك حرمة الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات ... واللائى على ذمة أزواجهن : ﴿ وأحلّ لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ﴾ [النساء ٢٤] ، فهل يجد القارئ أية صعوبة فى فهم المقصود بهذه العبارة؟ بيد أن مونتيه يضطرب فى ترجمتها ثم يحمّل القرآن مسؤولية هذا الاضطراب . وأود أن أستشهد بنص الترجمة ذاته لأبين للقارئ على الطبيعة كيف تزلّ قدما المترجم من تلقاء نفسه لأنه لا يحسن أن يمشى ، ثم فيدّعى أن شخصا قد دفعه فأوقعه . والنص هو : "(N' épousez pas) de femmes marieés ..., mais il vous est permis d'aller au-delà et de les rechercher pour vous avec votre fortune, en les épousant, et non forniquant ...". فهل من يقدر على تبيين ما يعود عليه الضمير « les » فيه ؟ إن النص القرآنى لا يوجد فيه ما يقابل هذا الضمير ولو من بعيد ، وبرغم هذا فإن المترجم يتجرأ فيكتب فى هامش يخصصه لهذا الضمير قائلا: « إنه يعود على النساء الأخريات ، وليس على المتزوجات (إلى هنا والكلام معقول ، فالكاتب يوضح للقارئ اللّبس الذى جره اضطراب ترجمته على معنى العبارة . بيد أنه لا يقف عند هذا الحد بل يمضى قائلاً :) ويرى القارئ كيف أن هذه النصوص التشريعية قد كُتبَتْ على نحو يفتقر إلى الدقة » (ص ١٦١/هـ ٨) . والمترجم بذلك يسير على طريقة « رمتنى بدائها وانسلت » !

كذلك هل ثمة لبْس فى المقصود من آية سورة « المائدة » التى ينبه الله فيها رسوله إلى خلائق اليهود في الغدر والخيانة قائلا سبحانه : ﴿ ولا تزال تطّلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم ، فاعف عنهم واصفح . إن الله يحب المحسنين ﴾ [المائدة ١٣] ؟ إن المترجم العبقرى يفهم « لا » فى « ولا تزال» على أنها حرف نهى ، ومن ثم يترجم

العبارة هكذا : « لا تكفَّ عن محاولة معرفة خيانتهم ... » ، ثم يصف ذلك بأنه شديد القسوة على اليهودِ المعاصرين للرسول عليهِ السلام (ص ١٨٩/هـ ١) . وأين القسوة هنا ، وبقية الآية أمرٌ بالصفح والعفو وتحبيبٌ فى الإحسان ؟

أم هل ثمة غموض فى تلك الآيات التى يحذر الله فيها المؤمنين أن يتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، ويسفّـه موقف المنافقين الذين يسارعون فيهم قائلين : ﴿ نخشى أن تصيبنا دائرة ﴾، فإذا أتى الله بالفتح أو أمرٍ من عنده أصبحوا على ما أسرّوا فى أنفسهم نادمين ، وشَمِتَ المؤمنون بهم أيما شماتة [المائدة ٥١ ـ ٥٣]؟ إن مونتيه يترجم «نادمين» بمعنى «تائبين» ، مع أن الندم هنا إنما هو ندم الغيظ والحسرة على انتصار الإسلام وفشل كيدهم . وكأن هذه السقطة غير كافية فأضاف فى الهامش أن الله قد يتدخل ويعيد هؤلاء المنافقين إلى حظيرة الإسلام ! (ص ١٩٦/ هـ ١) .

ونظيرُ هذا الفهم يطالعك فى ترجمته لقوله تعالى خطاباً لرسوله عليه السلام : ﴿قل: لستُ عليكم بوكيل ﴾ [الأنعام ٦٦] ، إذ يؤديه هكذا : « قل : ليس عليَّ أن أنشغل بكم » ، ثم يعلق فى الهامش بأن هذا القول يتعارض مع كون محمد مبعوثا إلى أمة العرب (ص ٢١٧/هـ٤). وبغضّ النظر عن قَصْر بعثة الرسول ﷺ على العرب وحدهم ، وهو زعم استشراقى سخيف ومتهافت ، فإننا لا ندرى فيم التعارض إلا فى ذهن المترجم الذى كعادته يخطئ ثم يحيل خطأه على القرآن . إن القرآن يأمر الرسول بأن يعلن أنه غير مسؤول عن إيمانهم وكفرهم ، وأن مهمته مقصورة على تبليغهم دعوة الحق، ثم إنهم بعد ذلك أحرار . أما أن الرسول كان منشغلا بهم فهذا صحيح ، إذ كان يؤدى مهمته بجدٍّ بالغ واهتمام ما بعده اهتمام حتى لقد كان يقاسى من جراء انصرافهم عن دعوة الإيمان الآلام النفسية الشديدة . والغريب أن المترجم قد نقل هذا التعبير وتعبيرا بمعناه فى موضعين آخرين من السورة إلى الفرنسية نقلا سليما ، بل إنه قد علق على التعبير الأخير بما يفيد أنه يفهم مغزاه (ص ٢٢٢هـ/ ١) ، وذلك عند ترجمته لقوله تعالى : ﴿وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ وتعليقه عليه ، وكذلك فى الصفحة التالية عند ترجمته لقوله عز شأنه : ﴿ وما أنت عليهم بوكيل ﴾ مما يتساءل الإنسان بإزائه متحيرا : أولم ينتبه المترجم حين وصل إلى هاتين الآيتين الأخيرتين أو حتى عندما فرغ تماما من ترجمة القرآن إلى التعارض بين فهمه للآية الأولى وفهمه لهاتين ؟ إننى أستبعد أن يكون قد فهم هاتين الأخيرتين على وجههما الصحيح من تلقاء نفسه ، بل

لابد أنه استقى ذلك من التفاسير التى كان يستعين بها ، فأين إذن كانت هذه التفاسير وهو يخبط خبط عشواء أثناء ترجمة الآية الأولى ؟

ثم أتدرى كيف يترجم قوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لهم سوء أعمالهم ﴾ [التوبة ٣٧] ، وهو معنى واضح قد تكرر وروده فى القرآن إشارةً إلى غرور الكافرين وعَمَى بصائرهم إذ يرون الباطلَ حقا ؟ لقد وردت هذه العبارة فى سياق الحديث عن تلاعب الكفار بالأشهر الحرم ، التى كانوا ينقلون بعضها حين تقتضى مصالحهم ذلك إلى أشهر أخرى ليواطئوا عِدَّة ما حرم الله ، وإن لم يحترموا الشهور نفسها التى حرمها سبحانه ، فيأتى المترجم ويفهم العبارة السالفة على أنهم يزينون بذلك أعمالهم السيئة ، ثم يقفِّيها فى الهامش بأنهم يحولون بذلك ما ارتكبوه من أعمال سيئة إلى أعمال حسنة ، فيكون كمفسر الماء بعد الجهد بالماء ، ثم يُعقِّب ذلك بثالثة الأثافى إذ يقول : « إن بناء الآية مضطرب ، ومعناها غير واضح » . وكأن ذلك كله غير كاف فى فضح عجزه فيمضى متسائلا : « أو قد بقى النص على حاله لم يتغير ؟ » ، ثم يجيب فى غير تردد : « إن ذلك مشكوك فيه » (ص ٢٨٣/هـ ٦ ، ٧) . أما فى قوله تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفُسكم ، عزيزٌ عليه ما عَنِتُّم ، حريص عَليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ [التوبة ١٢٨] ، فإنه يترجم «عزيز عليه ما عَنِتُّم » بمعنى « قادر على تحمل عنتكم» ! أهذا خطأً يقع فيه من له أدنى إلمام بالكلام العربى بله أستاذا للُّغات الشرقية وعميدا شرفيا لجامعة أوربية مشهورة ؟ إن البلية أن صاحب هذا الفهم العجيب لا يكتفى بإخطاء المعنى وقلبه رأسا على عقب بل يأبى إلا أن يتصدى لتخطئة القرآن والزراية على ما يظنه تناقضا فيه وتهافتا فى أسلوبه .

وهو يترجم قوله تعالى : ﴿ وما كان هذا القرآن أن يُفْتَرَى من دون الله ، ولكن تصديقَ الذى بين يديه ﴾ [يونس ٣٧] بما معناه : « ولكن تصديق الذى بين يدى الله » جاعلا الحرف الأول من الضمير فى « يديه » (وهو فى الفرنسية صفَة ملْكية) « حرفا كبيراً : majuscule » (هكذا : Ses) للإشارة إلى أن المقصودَ هنا هو الله سبحانه لا القرآن . وهذا فى صلب الترجمة ، ثم لا يشاء إلا أن يجعل غلطته غلطة بلقاء فيوضح ذلك فى الهامش بأن المراد هو « بين يدى الله » (ص ١٠٥/هـ ٧) . تُرَى هل المعنى صعب إلى هذا الحَد ؟ إن هذ المعنى كثير الورود فى القرآن ، والمقصود

به ، كما هو معروف ، الكتب السابقة على القرآن (قبل تحريفها طبعا) . بل إن المترجم نفسه قد ترجم مثل هذا التعبير فى سورة « آل عمران » ترجمة صحيحة (ص ١٢٦) ، فكان المظنون ، وقد فهم هذا ، أن يفهم ذلك أيضا ! ثم لا تمرّ إلا آية واحدة حتى يكبو كبوة أخرى فظيعة، إذ يترجم قوله تعالى : ﴿ بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمّا يأتهم تأويله ﴾ [يونس ٣٩] هكذا : « بل كذبوا بما يمكن علمهم أن يحيط به » (ص ٣٠٥) .

وهناك خطأ آخر يرتكبه مستشرقنا بصفة مطردة أو شبه مطردة، فما من مرة وقع بصرى على ترجمته لعبارة تبتدئ بـ « ألا » الاستفتاحية إلا وجدته يترجمها بمعنى « أليس ... ؟ ». انظر مثلا ترجمته لـ ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ! ﴾ (ص ٣٥٠) و ﴿ ألا هو العزيز الغفار ! ﴾ (ص ٦١٨) و ﴿ ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ! ألا إنه بكل شيء محيط ! ﴾ (ص٤٦٢) . بل انظر كذلك قوله تعالى : ﴿ إنْ هو إلا ذكر للعالمين ﴾ الذى أداه بمعنى « أليس هو ذكرا للعالمين ؟ » (ص ٨٢٣) . ولا أدرى من أين أتى بهذا التوجيه ولا كيف وقع فى مثل هذا الخطإ البدائى إلا أن تكون معرفته باللغة العربية ومبادئها لم تكن لتؤهله للاضطلاع بهذا الأمر !

أما فى سورة « الحِجْر » ، التى يكتبها بالحروف اللاتينية « الحَجْر » (بفتح الحاء وتسكين الجيم) ويترجمها بـ « le Roc » ، أى « الصخرة » (يقصد الحَجَر ، بفتح الحاء والجيم معًا ، فتأمل !) ، فإنه يترجم قوله سبحانه : ﴿ولا تمدّنّ عينيك إلى ما متّعنا به أزواجا منهم ﴾ [آية ٨٨] بحيث تعنى : « ولا تمدّنّ عينيك إلى ما متّعنا به جماعتين منهم » (ص ٣٦٧) . ولماذا جماعتان بالذات ؟ ألأنّ القرآن استعمل لفظة « أزواجا » التى من معانى مفردها (اثنان) ؟ لكن هذه اللفظة قد وردت هنا بصيغة الجمع فكان الأحرى به أن يتريث قليلا . والطريف أنه ترجمها ترجمة صحيحة فى سورة « طه » (آية ١٣١/ص ٤٣٩).

وهو يترجم قوله تعالى : ﴿ ليكفروا بما آتيناهم ، فتمتعوا ، فسوف تعلمون ﴾ [النحل ٥٥] بـ « من أجل الكفر بما آتيناهم ولكى يتمتعوا » مع أن اللام فى « ليكفروا » هى للأمر ، والمقصود بها وبـ « فتمتعوا » التهديد (ص ٣٧٥) . أما

ترجمته للآية التى بعدها فأدهى وأمرّ ، إذ يقول الحق سبحانه : ﴿ ويجعلـون (أى المشركون) لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم ﴾ ، أى يقدمون القرابين والنذور، وهى مما رزقهم الله ، لما يعدّونه ، افتراءً منهم وجهلا ، آلهة ، فيترجم هـذا المستشـرق العبارة علـى النحو التالى : « بعد ذلك يضعون جانبا أشياء بعينها لأنهم لا يعلمون بعض ما رزقناهم » !

ولنقفز قفزا إلى سورة «مريم» مجتزئيْن منها بغلطة واحدة فقط لا غير . إنه يترجم قوله تعالى تهديدا لأحد المشركين المغترين بأموالهم وأولادهم والمطمئنين اطمئنانا جاهلا إلى المستقبل : ﴿ ونَرِثُه ما يقول ، ويأتينا فردا ﴾ [آية ٨٠] هكذا : «ونورثه ما يقول ...» عاكسا المعنى وجهاً لقفا ! (ص ٤٢٦) .

إننى ، كما يرى القارئ ، لا أحاول تتبع كل أخطاء الترجمة ، وإلا فلن أفرغ ، بل أكتفى بإطلاعه على عينة صغيرة جدا ، ولمن شاء أن يرى التشويه الفظيع لآيات القرآن الكريم فى مواضع لا يسهل حصرها يمكنه أن يرجع بنفسه إلى الترجمة . والآن إلى سورة « العنكبوت » ، وسنكتفى بمثالين هذه المرة : فأما الأول فقوله تعالى : ﴿ ولا تجادلوا أهلَ الكتاب إلا بالتى هيِ أحسن إلا الذين ظلمـوا منهم ، وقولوا : آمنّا بالذى أُنزلَ إلينا وأُنزلِ إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون ﴾ [آية ٤٦] ، الذى يترجمه بما مُفاده : « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا مع الذين هم أحسن، ولكن ليس مع الذين ظلمـوا منهم ، الذين يقـولون آمنا بما أنزل إلينا ومـا أنزل إليكم ... إلخ » (ص ٥٤٠/هـ ٣) . وكَشَنْشَنَةَ هذا العبقرى لا يكفئ على الخبر ماجورا بل يضيف فى الهامش رقم ٨ من نفَس الصفحة أن هذه الآية صعبة : لا صعبة فى الترجمة (هكذا يقول) بل صعبة الفهم . هل فهمت بالله عليك شيئا من هذا الكلام ؟ إنها إذا كانت صعبة الفـهم ، فكيف يا ترى يمكن ترجمتها أصلا ، فضلا عن أن تكون سـهلة الترجمة؟ أما المثال الآخر ، وهو قوله تعالى : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطُّه بيمينك . إذن لارتاب المبطلون ﴾ [آية ٤٨] فإنه ينقله إلى الفرنسية بما يعنى : «لم يُوحَ إليك من قبل كتاب سماوى » (ص ٥٤٠/هـ١٠) . فأى تشويه ! وأى عبث ! وأى قلب للحجة القرآنية الدامغة إلى مصادرة على المطلوب ! إن المعنى هو أن الرسول عليه السلام كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ومن ثم فلا عذر لمن يتهمه بانتحال ما ورد

فى الكتب السماوية السابقة . أما نفى نزول وحى سابق على الرسول ﷺ فليس بشىء، فهم لم يتهموه بالاقتباس من وحى كان قد نزل عليه من قبل القرآن ، وإلا لكان هذا اعترافا صريحا منهم بأنه رسول يوحى إليه من السماء .

والآن سأكتفى بالإشارة السّريعة إلى عدد آخر من الأخطاء مكررا فى الوقت ذاته أن الترجمة تعج بالمئات من أمثالها : إنه يترجم قوله تعالى : ﴿ أَفْتَرَى على الله كذبا أم به جنّة ؟ ﴾ [سبأ ٨] ، وهو استفهام يستنكر فيه رب العزة تكذيب الكفار لرسوله وتهكّمهم بما يخبرهم به من شؤون القيامة والعالم الآخر ، على أنه جملة خبرية تتمة لقوله قبل ذلك مباشرة : ﴿ وقال الذين كفروا : هل ندلّكم على رجل ينبئكم إذا مزّقتم كلّ ممزّق إنكم لفى خلْقٍ جديد ؟ ﴾ . أى أنه يعد الاستنكار الإلهى كلامًا صدر عن الكافرين (ص ٥٧٣/هـ ٧) . كما يؤدى قوله تعالى : ﴿ إن الله يُسْمِع من يشاء، وما أنت بِمُسْمِعٍ مَنْ فى القبور ﴾ [فاطر ٢٢] بمعنى «أن الله يَسْمَع من يشاء» (ص ٥٨٤/هـ٤)، ويترجم قوله سبحانه : ﴿ وإذا ذُكِر اللهُ وحده اشمأزّت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ﴾ [الزمر ٤٥] بما يعنى «ارتعدت من الخوف» (ص ٦٢٣) .

وفى سورة الواقعة يترجم ﴿ ثُلّة من الأولين ﴾ [آية ١٣] بـ « كثير من الأولين » (ص ٧٢٦) ، كما يحوّل الدعاء على المنافقين فى قوله سبحانه: ﴿قاتلهم الله ! أنى يؤفكون ﴾ [المنافقون ٤] إلى جملة خبرية ليصبح المعنى أن الله قد قاتلهم ! (ص ٧٥٦) . وعلى هذا النحو المفسد يترجم ﴿ وإذ أَسرَّ النبىُّ إلى بعض أزواجه حديثا ﴾ [التحريم ٣] بـ « وإذ أسرّ النبى إلى بعض أزواجه أمرا وقع حديثًا » (ص ٧٦٣) . أمّا ﴿فذَكّر إن نَفَعَت الذّكرى﴾ [الأعلى ٩] فينقلها هكذا : « فذكّر ، إن الذكرى تنفع» (ص ٨٣٦) ، كما يؤدى الآية التى قبل هذه ، وهى : ﴿ ونُيَسّرك لليسرى ﴾ بمعنى « ونيسّر لك السهل » ، ثم يتساءل فى الهامش : «أيليق صدور هذه الفكرة العادية جدا من الرسول ؟» غير دار طبعا أن الذى لا يليق هو هذا العجز المخزى الذى تكشف عنه ترجمته للآية ، وإلاّ فهل يحتاج السهل إلى تيسير ؟

* * *

والآن ، وبعد أن عرفنا ضعف المترجم الشائن فى فهم النص وفى نقله إلى الفرنسية نقلا سليما ، أحب أن أنتقل إلى جهوده التفسيرية ، فهو لم يكتف بأن يكون مترجما سيئا بل أبى إلا أن يكون أيضا مفسرا رديئا . وليس معنى ذلك أنه لم يصب فى أى من التفسيرات التى أقدم عليها ، إذ ليس من المعقول ، وقد تحصّن (كما سبق أن أشرت) بالترجمات السابقة عليه وكتب التفاسير من قديمة وحديثة وبالمعاجم ودوائر المعارف المتعددة والمتنوعة ، أن يخطئ فى كل مرة حاول أن يقدم فيها تفسيرا لهذه الآية أو تلك .

انظر مثلا فهمه لقوله تعالى : ﴿ قولوا : آمنّا بالله وما أُنْزِل إلينا وما أُنْزِل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أُوتِى موسَى وعيسى، وما أوتى النبيون من ربهم . لا نفرّق بين أحدٍ منهم ، ونحن له مسلمون ﴾ [البقرة ١٢٦] ، إذ يمدح فيه سمّو الفكر . أتدرى لماذا ؟ لأنه يظن أن الآية تدعو المسلمين إلى إعلان إيمانهم بكتب اليهود والنصارى ومساواتها بالقرآن (ص ٩٦/هـ٣) . فهل فى الآية شيء من هذا ؟ إن الله عز وجل يدعو المسلمين إلى إعلان إيمانهم بما أنزل إليهم ، وهو القرآن ، وما أُنْزِل إلى إبراهيم وإسماعيل ، وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم، يعنى الإيمان بكل وحى سماوى نزل على أى نبى بما فى ذلك موسى وموسى عليهما السلام . وهذا شيء ، وكتب اليهود والنصارى شيء آخر ، فالقرآن قد حكم على هذه الكتب بأنها قد حرّفت وزيّفت وحمِل عليها واختلط بها ما ليس بوحى سماوى .

ومن أخطائه أيضا تفسيره لكلِمة « اللاعنون » فى قوله تعالى : ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البيّنات والهُدَى من بعد ما بيّناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ، ويلعنهم اللاعنون ﴾ [البقرة ١٥٩] . ذلك أنه يفسر « اللاعنون » بأنهم هم الذين كانت وظيفتهم اللِعن ، ثم يمضى قائلا: « لقد كان الشاعر فى الجزيرة العربية قبل الإسلام يعدّ لسان القدرة الإلهية ، ويصبّ باسم الإله البركات واللعنات . ويبدو أن هذه الآية تشير إلى هذه الممارسات الوثنية القديمة » (ص١٠٠/هـ٢) . أرأيت عبقرية فى السخف كهذه العبقرية ؟ أكان العرب يعدّون الشاعر منهم لسان القدرة الإلهية ؟ ففيم إذن كان اتهامهم للرسول ﷺ بأنه شاعر ؟ ترى أكانوا (ونحن كلّ هذه القرون المتطاولة لا نعرف) يقصدون أن

الرسول كان مُلْهَما من السماء يتحدث بلسان الله ، فإذا بارك أو لعن فإنما يفعل ذلك باسم الله؟ لا حول ولا قوة إلا بالله ! أليس هذا هو ذوبان الذهن الذى لا يدرى المبلوّ به أهو يقرأ حكايات بلعام فى كتب اليهود أم يقرأ القرآن الكريم ؟ أرجو كذلك أن يلتفت القارئ إلى الوخزة المسمومة فى قول هذا المستشرق : «فهذه الآية ، فيما يبدو ، تشير إلى هذه الممارسات الوثنية القديمة» . أى أن القرآن حين يلعن أهل الكتاب لكتمانهم الوحى السماوى فإنما يحيى ممارسات وثنية قديمة !

وهو يعدّ قوله تعالى : ﴿ لا نفرّق بين أحد من رسله ﴾ فى الآية الكريمة: ﴿آمن الرسول بما أُنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله : لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ [البقرة ٢٨٥] متعارضا تمام التعارض مع قوله سبحانه وتعالى فى نفس السورة : ﴿ تلك الرسل فضّلنا بعضهم على بعض ﴾ [آية ٢٥٣]، إذ هو يفهم ، من قول المؤمنين بأنهم لا يفرقون بين أحد من رسله ، أنهم لا يرون لأحد من الرسل فضلا على آخر ، مع أن المعنى واضح ، وهو أنهم يؤمنون بهم جميعا ، وليسوا ، كاليهود والنصارى مثلا ، يؤمنون ببعض الرسل ويكفرون ببعض . ألم يقرأ قوله عز وجل : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرّقوا بين الله ورسله ، ويقولون : نؤمن ببعضٍ ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا ﴾ [النساء ١٥٠ ـ ١٥١] ؟

وهو يتخبط فى تفسير قوله تعالى للمسلمين عن الدرس الذى ينبغى أن يتعلموه من انتكاسة أحد ، إذ كانت الحرب فى بدايتها تسير فى صالحهم إلى أن فشل فريق منهم وتنازعوا وعصوا بذلك أمر الرسول ﷺ : ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه (أى تقتلونهم . وكان ذلك فى أول المعركة قبل أن يعصى فريق من المسلمين أوامر نبيهم) حتى إذا فشلتهم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون ... ﴾ [آل عمران ١٥٢] . إنّ صدق الله وعده للمسلمين مقصود به عند هذا المستشرق انتصار بدر ، والفشل فشلَ أحد ، وتنازع المسلمين إنما هو تنازعهم حول انتكاسة أحد (ص ١٤٦/هـ٧) . فمن أين له بهذا الفهم الأمشاج الذى لا يمسك بعضه ببعض إلا كما تتلاصق فقاعات الهواء ؟ وكيف يكون تنازع المسلمين بشأن الهزيمة (ومثل هذا التنازع

يقتضى أن تكون الهزيمة قد وقعت فعلا ، وانتهى الأمر) هو السبب فى الهزيمة؟ وهو يرى فى قوله تعالى : ﴿ إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ [النساء ١٧١] شهـادة قرآنية « بأن المسيح يرجع إلى أصل إلهى » (ص١٨٣/هـ ٩) ، وفاته أن هذه الآية لا تقرّر للمسيح عليه السلام شيئا آخر غير الذى يقرّره القرآن لكل البشر ، فإنهم جميعا فيهم من روح الله. يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ إذ قال ربك للملائكة : إنى خالق بشراً من طين * فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ﴾ [ص ٧١ ـ ٧٢]. بل إن الآية ذاتها لصريحة الدلالة في أنه ليس أكثر من رسول. والقرآن يقول بالنص عنه عليه السلام : ﴿ إنْ هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل ﴾ [الزخرف ٥٩]. ومثل ذلك فى القرآن كثير ، ومعناه من الوضوح بحيث لا يترك مقدار سن إبرة من الشك .

إن هذا المستشرق دائم المسارعة ، إذا لم يسعفه فهمه ، إلى اتهام القرآن بالتعارض . ولقد رأينا فيما مرّ بعض الأمثلة على هذا التورط ، وهذه واحدة أخرى من أغاليطه الشنيعة ، إذ يرى قوله سبحانه : ﴿ إن الذين آمنوا ، والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ [المائدة ٦٩] متعارضا مع آيات أخرى تقرر أنه لا نجاة إلا فى الإسلام ، وأن من يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه ، ثم يزيد فيتهم ما يسميه بـ « نظرية النسخ » بأنها من صنع خيال العلماء المسلمين ، ثم يقدم رأيه الذى يتلخص في أن هذه الآيات المتعارضة فى رأيه إنما تبين كيف أن العقيدة الإسلامية قد مرّت بأدوار من التطور قبل أن تصل إلى صياغتها النهائية (ص ١٩٨/هـ٨) . فهل يوجد حقا بين هذه الآية والآيات الأخرى التى يشير إليها هذا المستشرق أى تعارض ؟ أرجو من القارئ أن يرجع إلى الآيات السابقة واللاحقة على هذه الآية حيث يصم الله اليهود والنصارى بالطغيان والكفر وانعدام التقوى والخروج على ما أمرتهم به التوراة والإنجيل (الصحيحان لا المحرفان) ، وعندئذ سوف يرى ألا شىء مما زعمه ذلك المستشرق صحيح ، فإن القرآن يشترط للنجاة الإيمان بالله واليوم الآخر ، وهو ما لا يتحقق فى أهل الكتاب الذين يكفرون بالله وبرسوله عاصين بذلك أوامر الله بالإيمان بكل من يبعثهم من رسل . وإن آيتى سورة النساء [١٥٠

ـ١٥١] : ﴿ إن الذين يكفرون بالله ورسُله ، ويريدون أن يفرّقوا بين الله ورسله ، ويقولون : نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ، أولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا ﴾ ، وكذلك آية سورة التوبة : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ [آية ٢٩] ، وأيضا آية سورة الأنعام : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ، ولتنذر أمّ القرى ومن حولها . والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به ، وهم على صلاتهم يحافظون ﴾ [آية ٩٢] ، ومثلها آيتا سورة الأعراف [١٥٦ ـ ١٥٧] (وهما جواب على دعاء موسى عليه السلام لربه أن ﴿ اكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة ﴾ ، إذ قال سبحانه) : ﴿ عذابى أُصيب به من أشاء ، ورحمتى وسعت كل شىء ، فسأكتبها للذين يتّقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * (أرجو من القارئ التنبه هنا جيدا) الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ﴾ ، كل هذه الآيات ، وغيرها كثير ، تبين جليا أنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، وأنهم من ثم ليسوا ممن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . وهو أيضا يرى أن قوله تعالى : ﴿ لتجدنّ أشدّ الناس عداوةً للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدنّ أقربهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا : إنا نصارى ﴾ [المائدة ٨٢] لا يتوافق مع ما تصبّه هذه السورة نفسها من هجوم وتثريب على النصارى ، إلا إذا ثبت أنها منحولة (ص ٢٠٠/هـ٩) . والحقيقة أنه لا تعارض البتة بين هذه الآية وما يتلوها من آيات وبين تسفيه القرآن لشرك النصارى واعتقادهم بألوهية المسيح أو بنوته لرب العالمين ، فهذه الآيات تمدح فريقا بعينه من النصارى كان قد ورد على النبى ﷺ ، وفيه القساوسة والرهبان ، وكان هذا الفريق من النصارى يتحلى برقة القلب والتواضع للحق والإسراع إلى إعلان الإيمان به عند ظهوره له ، أما الآيات التى تهاجم النصارى فهى تدين أصحاب القلوب القاسية والمعتقدات الباطلة المفتراة . وهذا موقف القرآن أيضا من اليهود ، فهو، على رغم ما قاله فيهم مما يستحقونه وأعنف منه أضعافا مضاعفة ، حريص على أن يستثنى منهم أهل الحق الذين لم يكتموا ما جاء فى التوراة عن الرسول ﷺ فآمنوا به واتبعوه . لكن المستشرق اللودعى لا

يستطيع هنا أيضا أن يصر الأمر الواضح الجليّ ، فيدّعي أن في قول الحق سبحانه : ﴿ ومن قوم موسى أمّة يهدون بالحق ، وبه يعدلون ﴾ [الأعراف ١٨١] تناقضا مع ما يشنه القرآن من هجوم على بني إسرائيل (ص٢٥٥/ هـ ١) ، عامياً عن أن يلمح حرف الجر « من » ، الذى يدل على أن هؤلاء أفراد مستثنون من الحكم القرآنى على بنى إسرائيل بعامة .

وهو ، فى تعليقه على قصة نوح وولده فى سورة «هود» ، يرى أن من المحتمل أن تكون هذه القصة قد أوحاها إلى محمد ما ورد فى التوراة عن سكر نوح وتعريه ورؤية ابنه عورته ، ثم لعنه لولده وذريته بعدما أفاق وعلم بما وقع (ص٣٢٠/هـ٢) . والسؤال هو : أفى القصة القرآنية إشارة إلى شيء من هذا ؟ ودعنا الآن من أن القرآن لا يجوز على الأنبياء أن يسكروا وينحدروا فى سكرهم إلى هذا القاع ، فعل الأوباش حين تسور بأمخاخهم سورة الخمر . وكيف يكون الأمر كما قال المترجم ، ونوح نفسه ، كما جاء فى القرآن ، قد ابتهل إلى ربه متألما لما آل إليه مصير ابنه : ﴿ ربّ ، إنّ ابنى من أهلى ! ﴾ [هود ٤٥] ؟ أتجد ، أيها القارئ الكريم ، من آصرة بين هذه اللوعة الأبوية وبين اللعنة الموهومة التى رمى بها نوح ابنه وكل ذريته من بعده ؟ وعلى ماذا ؟ على ذنب ، إن صحت هذه الخرافة الإسرائيلية (وهى بالقطع غير صحيحة) ، هو الذى اجترحه ، إذ لو لم يسكر على هذا النحو المقزز لما رأى ابنه عورته . ليس ذلك فقط بل يرى مونتيه أن قول الله تعالى تعليقا على هلاك قوم نوح : ﴿ وقيل : بعداً للقوم الظالمين ﴾ [هود ٤٤] يتعاكس مع قوله سبحانه قبل ذلك لنوح : ﴿ ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا . إنهم مغرقون ﴾ [آية ٣٧] . ولا ندرى أين التعاكس بين القولين ، فقوم نوح قد هلكوا ، وعند ذلك قيل ما معناه بلغتنا المعاصرة : « فى ألف داهية ! » ، إلا أن الأستاذ العميد يترجم «وقيل : بعداً للقوم الظالمين » بما مفاده : «ابعدوا من هنا أيها القوم الظالمون» ، أى أنه يستغرب كيف يكون أولئك القوم الظالمون الذين هلكوا ما زالوا أحياء يقفون أمام نوح فيضيق نوح بوقفتهم تلك ويصيح بهم : امشوا من هنا !

وهذا المستشرق يقرأ قوله تعالى حكاية عن غضب موسى من أخيه هارون إذ نقض بنو إسرائيل العهد حين تركهم ومضي إلى الجبل فاتخذوا العجل : ﴿ قال يا هارون ، ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن ؟ أفعصيت أمرى ؟ * قال : يا ابن

أمّ ، لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ﴾ [طه ٩٢ـ ٩٣]، فيفهم منه أن أَخْذ موسى بلحية هارون ورأسه هو تحية على الطريقة التى كانت شائعة فى آسيا الشرقية فى الزمن القديم رمزا على المودة والإخاء، ثم يحيل القارئ إلى النص التالى فى الأصحاح العشرين من سفر «صمويل الثانى» «فقال يوءاب لعماسا : أسالم أنت يا أخى؟ وأمسكت يد يوءاب اليمنى بلحية عماسا ليقبّله» جاعلا من هذه الإشارة السريعة فى قصة يوءاب وعماسا، لا أدرى كيف ولا على أى أساس ، طريقةً فى التحية كانت شائعة فى آسيا الشرقية . ولا ندرى ما حكاية آسيا الشرقية هذه ! ثم فلتكن إشارة التوراة ما تكون ، فأى علاقة بينها وبين ما جاء فى القرآن من أن موسى قد أخذ بلحيـة هارون ورأسه ؟ أمعنـى هذا أن هارون حين قال له : ﴿ يا ابن أمّ ، لا تأخذ بلحيتي ولا برأسى ! ﴾ كان يطلب منه ألا يحيّيه لأنه هو الغضبان من موسى لا العكس. ولكن لماذا؟ سنفترض جدلا أن هذا النص غير واضح ، أفلم يقرأ هذا المستشرق ما جاء فى سورة «الأعراف» [آية١٥٠] : ﴿ ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال : بئسما خلفتمونى من بعدى ! أعَجلتم أمر ربكم ؟ وألقى الألواح ، وأخذ برأس أخيه يجره إليه . قال: ابنَ أمّ ، إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى . فلا تشمتْ بى الأعداء ، ولا تجعلنى مع القوم الظالمين ﴾ ؟ أم تراه أيضا سيطلع علينا بأن جرّ الناس بعضهم بعضا من رؤوسهم كان ، فى آسيا الشرقية فى الزمن القديم، دلالة على شدة الحب؟ أليس من الحب ما قتل؟

لا جرم إذن أن يقول إن قوله تعالى : ﴿ وما جعلنا لبشرٍ من قبلك الخُلدَ، أفإنْ متّ فهم الخالدون ؟ ﴾ [الأنبياء ٣٤] صعب الفهم. ذلك أنه يرى أن هذه الآية ربما كانت منحولة ، وأنها على أية حال لم تسلم من العبث ، ومعناها يصعب الوصول إليه . وفيم كل هذا ؟ لقد اكتشف أن هذه الآية تضاد العقيدة القرآنية التى تقرر أن البشر يخلّدون فى الجنة أو فى النار . ليس هذا فقط ، بل إنه من حيرته البالغة أمام هذه الآية يتساءل : أيقصد محمد أن يقول إن الله قد احتفظ له بمكان خاص فى الحياة الأبدية ؟ (يشير بهذا إلى الجزء الأول من الآية) . ثم يستمر قائلا : « يبدو أن النبى كان يجهل ما تقوله التوراة عن إخنوخ من أنه سار مع الله إلى آخر عمره ، ثم اختفى لأن الله أخذه » . لكن كيف كان يجهل النبى ﷺ هذا يا ترى وهو متهم من هؤلاء المستشرقين بأنه كان يقرأ هذه التوراة

ويسرق منها ؟ ما علينا، إنما السؤال هو : ما علاقة هذا بذاك ؟ وما وجه المقارنة بين إخنوخ، الذي اختفى لأن الله أخذه ، وبين إعلان القرآن أن محمدا سيموت، مثله مثل البشر جميعا ؟ ثم يضيف هذا المستشرق أن النبي ، فيما يبدو ، لم يكن على دراية بما جاء في التوراة [الملوك الثاني ١١] عن رفع إيليا للسماء (ص٤٤٩/هـ١) . يريد أن يقول إن النبي إن أراد أن يدعي أن الله قد احتفظ له بمكان خاص في الحياة الأبدية فها هو ذا إيليا قد رفعه الله إليه ، يعني أنه خالد أيضاً عند الله . فهل قال القرآن إن محمدا ﷺ خالد ، وغيره من الناس ميتون ؟ قد يرى بعض أن من تضييع الوقت مناقشة مثل هذا الكلام ، ولكن ما حيلتنا وهؤلاء الناس هم أئمة قومهم في فهم الإسلام ، يقولون فيسمعون لقولهم؟ إن هذا المستشرق قد أثار معركة حامية اللهيب في غير طائل ، فأدنى إنسانٍ حظا من الفهم لا يفوته هنا أن الله يعلن أن الناس جميعا (محمدا وقومه وسابقيهم واللاحقين) ميتون . أما خلود الجنة والنار فهذا موضوع آخر لا تتعرض له الآية الكريمة بشيء ، وهو على كل حال لا يتحقق إلا بأن يموت الإنسان أوّلاً ثم يبعث ليخلّد .

وانظر أيضا هذه الآية التي يردّ فيها رب العزة على اعتراضات الكفار بأن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يأكل الطعام ويرتاد الأسواق ، وعلى اقتراحهم عليه ، إن كان صادقا ، أن يلقي الله إليه كنزا أو تكون له جنة يأكل منها ، فيقول سبحانه : ﴿ تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك، جنات تجري من تحتها الأنهار ، ويجعل لك قصورا ﴾ [الفرقان ١٠]، فما الذي يفهمه ذوو العقول من قوله تعالى: « خيرا من ذلك » ؟ أليس المقصود : « خيرا مما يقترحونه عليك من كنز يلقى إليك أو جنّة تأكل منها ؟ » ، بيد أن صاحبنا يفهمها هكذا : « خيرا من جميع الأموال التي يمكن أن يعطيكها الناس » (ص٤٨٨/هـ٣) . أي ناس ؟ وأي أموال ؟ أليس ذلك أمرا مخجلا ؟

وتأمل كيف يوجّه ضمير المخاطبين في قوله تعالى : ﴿ هو الذي جعلكم خلائف في الأرض ، فمن كفر فعليه كفره ﴾ [فاطر ٣٩] ، إذ يرى أن المقصود بالخطاب هنا هم القادة الدينيون من كل أمة (ص٥٨٦/هـ٢) ، مع أن الآية قد وردت في سياق الحديث عما سيلقاه الكفار في نار جهنم، فلا هم بمقضيٍّ عليهم فيموتوا ويستريحوا ، ولا عذابها بمخفّف عنهم . فإذا كان لابد أن تكون

الآية موجهة إلى ناس بعينهم فهم هؤلاء الكفرة الذين جعلهم الله خلائف فى الأرض فلم يقوموا بالأمانة التى حملها الإنسان فاستحقوا عذاب الجحيم ، وبخاصة أن الآية تقتصر على إنذار الكفار ولا تتحدث عن الغفران الإلهى مثلما تفعل الآية الأخرى المشابهة فى سورة « الأنعام » [آية١٦٥] التى تتوجه إلى الناس جميعا ، ومن ثم تهدد بالعقاب السريع وتبشر بالغفران والرحمة فى آن . أما حكاية القادة هذه فليست إلا من اختراع المترجم .

أما قاصمة الظهر فهى تفسير المترجم لقوله تعالى : ﴿ كأنهن بيض مكنون ﴾ [الصافات ٤٩] بأنه تشبيه للعيون بالبيض (ص ٥٩٩/هـ١) . إن الآية لا تتحدث البتة عن العيون بل عن الحور العين ، فهن المشبهات إذن بالبيض المكنون ، الذى يفسّره المترجم ، بأنه « بيض من النوع الفاخر » : « des œufs de choix » . ومع ذلك فلنغض الطرف عن هذا ولنركز القول على فساد الذوق الذى يرى أن العيون الجميلة يمكن تشبيهها بالبيض. فهل من يستطيع أن يتخيل عيناً تشبه البيضة إلا أن تكون عينا جاحظة قد ذهبت حدقتها ولم يبق إلا بياضها ؟ وهل هذه إلا عيون بعض العميان ؟ وكأن هذا الخلط غير كاف فنجد المترجم يؤكد أن تشبيه العيون بالبيض موجود فى الشعر الشرقى . نعم ، الشعر الشرقى هكذا بإطلاق! يا لله لهذا الجهل الذى لا يعرف الحياء ! ترى أين ذلك الشعر إلا فى عقول المخبولين ؟

إننى فى اختيارى لهذه الأخطاء إنما أتعمد أن أختارها من ترجمة مستشرقنا للآيات الشديدة الوضوح ، وأكرر أنى أكتفى بأمثلة قليلة جدا جدا من هذه الأخطاء . أيرى القارئ مثلا صعوبة فى معرفة أن النصف الأول من سورة « الواقعة » يتحدث عن طوائف من الناس ثلاث يوم القيامة : هم السابقون المقربون ، وأصحاب اليمين ، وأصحاب الشمال ؟ ذلك واضح تمام الوضوح ، وواضح مثله أن السابقين المقربين سيكونون ثلة من الأولين وقليلا من الآخرين ، إلا أن المترجم يضطرب اضطرابا مضحكا لا مسوّغ له فيقول إن الذين سيكونون ثلة من الأولين وقليلا من الآخرين إنما هم أصحاب اليمين ، إذ هو لا يفطن إلى الطائفة الأولى، طائفة السابقين المقربين (ص ٧٢٦/هـ١) . من أجل ذلك فعندما يصل إلى قوله تعالى: ﴿ وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ؟ * ... * ثلة من الأولين ،

وثُلّة من الآخرين ﴾ [الواقعة ٢٧ـ ٤٠] يرى فى الكلام تناقضا ، إذ كيف يصح أن يكون « أصحاب اليمين » مرة ثلّة من الأولين وقليلا من الآخرين ، ومرة ثانيةً ثُلّة من الأولين وثُلّة من الآخرين ؟ ثم يتساءل : أثمة خطأ من الناسخ؟ ويجيب : محتمل جدا (ص٧٢٧/هـ٩). وإننا بدورنا لنتساءل : ألا يعرف مثل هذا المستشرق كيف يراجع نفسه ولو مرة قبل أن يرمى بهذه الأحكام المتهورة ؟

ومثال آخر على هذا الفهم العجيب هو تفسيره لقوله تعالى : ﴿ هو الذى بَعَثَ فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين * وآخرين منهم لـمّا يلحقوا بهم . وهو العزيز الحكيم ﴾ [الجمعة ٢ـ٣] ، فالأميون عنده هم الوثنيون ، والكتاب هو التوراة ، ومن ثم فالكلام عن اليهود ، أما قوله : ﴿وآخرون منهم لما يلحقوا بهم﴾ فهو عبارة غامضة معترضة ربما تشير إلى دخول اليهود فى الإسلام . ثم يختم هذه التخبطات بقوله : « إن المعنى قد يكون كالآتى : إذا كان ثمة يهود لم يدخلوا الدين الجديد فإن يهودا آخرين قد قبلوه » (ص ٧٥٣/هـ٥ ـ ٦) . ويتعجب الإنسان من هذا المستشرق الذى يرى أن الآية الواحدة تشير فى الوقت ذاته إلى الوثنيين واليهود ، ولا يعرف أن « لـمّا » تعنى أن الفعل التالى لها لم يتحقق بعد على عكس ما فهم هو من أنها تشير إلى دخول طوائف من اليهود فعلا فى الإسلام . إن الآية مشرقة المعنى تماما ، وهى تقرر أن الله قد بعث من العرب رسولا يعلّمهم الكتاب وما فيه من حكمة بعد أن كانوا فى ضلال من قبل مبين ، ويعلّم أيضا أجيالا سوف تلحق بهم فى الإيمان به فيما يستقبل من الزمان .

وآخر ما أحب أن أختم به تفسيرات هذا المترجم المضحكة هو تفسيره لكلمة «رجيم» التى كثيرا ما يصف بها القرآن الشيطان . إنه يرى فيها إلماعًا إلى شريعة الرجم فى الحج ، فالشيطان فى نظره رجيم لأن الحجاج يرجمونه بالحجارة ، ويعمى عن أن القرآن يحكى قول الله عز وجل للشيطان فى بدء الخلق عندما أمر ملائكته أن يسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس : ﴿ فاخرج منها فإنك رجيم ﴾ [الحجر ٣٤] . فالشيطان إذن «رجيم» منذ البدء ، وليس لأن الحجاج يرجمونه إحياءً ، كما يقول، لذكرى إبراهيم عليه السلام حين أخذ يرجمه بالحجارة لأنه كان يحاول إغراءه بعصيان ربه وعدم التضحية بابنه إسحاق (؟)

(ص٨٢٢/هـ١٣) . ترى ما الذى كان المترجم سيخسره لو كان اكتفى بالترجمة ولم يتدخل فيما لا يستطيع الاضطلاع به ؟ ثم إنه لم يكتف بإثبات هذا التعليق مرة واحدة بل سجله بطريقة مطردة فى كل مرة يأتى فيها ذكر الشيطان الرجيم .

* * *

القضية الثانية التى تثيرها هذه الترجمة هى اتهام هذا المستشرق للقرآن بوقوع العبث فى نصه . وقد مر بنا كيف يسارع فى كل مرة لا يسعفه فيها الفهم إلى اتهام النص القرآنى بوجود خطإ أو أخطاء ترجع إلى النساخ . على أنه فى مواضع أخرى يرجم ، بلا أدنى تثبت وبلا دعامة من أوهى دليل ، بأن هذه الآية أو تلك الآيات قد سقطت من النص أو لم تكن فيه ثم أضيفت إليه : فهو على سبيل المثال يرى أن قوله سبحانه : ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ﴾ [البقرة ١٠٦] وكذلك قوله عز من قائل: ﴿ وإذا بدلنا آية مكان آية، والله أعلم بما ينزل ، قالوا : إنما أنت مفتر ، بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ [النحل ١٠١] ربما لم يكونا موجودين فى الأصل بل أضافهما فيما بعد العلماء المسلمون ، الذين اخترعوا نظرية الناسخ والمنسوخ لتسويغ ما فيه من آيات متضاربة (ص ٩١/هـ١) . هكذا بجرأة مستهترة بغير أن يكلف نفسه أن يورد ولو دليلا واحدا ، أى دليل . ولا أدرى ما وجه الغرابة فى أن يمضى الدين الجديد بأتباعه خطوة خطوة فى مدارج تربيتهم وترقيتهم . ومثال الخمر وتحريمها على درجات هو أوضح مثال لهذا التطور الذى يستتبع فى جانب منه وجود ناسخ ومنسوخ .

وفى تعليق له على قوله تعالى : « خالدين فيها » فى الآيتين التاليتين : ﴿أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين * خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون ﴾ [آل عمران ٨٧ ـ ٨٨] يقول إن المقصود أنهم رازحون تحت اللعنة الإلهية (حتى الآن معقول) ، ثم يضيف قائلا : ومن الممكن كذلك أن آية عن النار كانت موجودة هنا ثم سقطت (ص ١٣٩/هـ٥). ذلك أنه يعز عليه أن يجد عبارة «خالدين فيها» من غير أن تسبقها كلمة « النار » أو «جهنم» كما هو الحال فى آيات قرآنية أخرى ، مع أن المعنى واضح ، وقد شرحه هو نفسه . كذلك يدعى أن الآيتين ٦٥ ـ ٦٦ من سورة « الأنفال » : ﴿ يا أيها

النبى ، حرّض المؤمنين على القتال . إن يَكُنْ منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون * الآن خفّف الله عنكم وعَلِمَ أن فيكم ضعفا ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله . والله مع الصابرين ﴾ هما ، فيما يبدو ، روايتان لآية واحدة كانت موجودة وضاعت . والسؤال : أين ؟ ولماذا ؟ ثم كيف تكون هاتان الآيتان (اللتان تصوران ما كان منتظراً من المسلمين فى أوائل اصطدامهم بجحافل الشرك حين كان عددهم قليلاً وظروفهم صعبة ، ثم لما عزت شوكة الإسلام وكثر جنوده خفف الله عنهم، وإن ظل يريد منهم أن يكون أحدهم فى صبره وطاقته باثنين من الكفار) هما فى الأصل آية واحدة ؟

ويبلغ بمستشرقنا تهوره أن يؤكد أن قصة شُعَيْب فى سورة « هود » ينبغى منطقياً أن تتلو قصة صالح عليهما السلام ، وهو ما يفيد ، حسب منطقه الفريد فى عبقريته ، أن قصة إبراهيم ولوط عليهما السلام ليس مكانها هناك بين القصتين المذكورتين . لماذا ؟ لأن الآية التى تذكر سلسلة الأمم التى أهلكها الله قبل قوم شعيب والتى يذكّرهم بها شعيب عسى أن يتعظوا ويطرحوا عنادهم وكفرهم ليس فيها أدنى ذكر لقصة إبراهيم ، إذ لا تشير إلا إلى نوحٍ وهود وصالح ، وهذا يدل على أن الآيات التى تحكى قصة إبراهيم ولوط لم تكن فى الأصل جزءاً من هذه السورة (ص ٣١٤/هـ١) . فلنأت إلى الآية التى يدعى هذا الرجل أنها تخلو من كل ذكر لإبراهيم (وقد تعمد أن يقول : « إبراهيم » لا « لوط » مع أن القصة تدور فى الأساس حول إهلاك قوم لوط ، وجاء ذكر إبراهيم فيها بمناسبة مرور الملائكة به وإخبارهم إياه أنهم مرسلونَ إلى القضاء على أولئك القومِ) ، فهى تقولِ على لسانِ شعيب : ﴿ ويا قوم ، لا يَجرِمنّكم شِقَاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قومَ هودٍ أو قومِ صالح . وما قَوم لوط مَنكم ببعيد ﴾ [آية ٨٩] . إذن فالآية تذكر أيضاً لوطًا بل تفرده وقومه فى جملة على حدة لأنهم كانوا أقرب الهالكين إلى أقوام نوح وهود وصالح . فأين هذا من ادعائه أنها لا تذكر سوى نوح وهود وصالح ؟ هذا ما يقوله الكاتب فى الهامش الذى جعله تمهيدا للسورة ، فإذا بلغ هذه الآية الأخيرة التى يبرز فيها اسم لوط وقومه بروزا شديدا أكّد أن عبارة « وما قوم لوط منكم ببعيد » هى عبارة أضيفت فى وقت لاحق بقصد التغطية على ما

فى النصّ من تناقض كما بيّنه فى الهامش التمهيدى المشار إليه (ص ٣٢٦/هـ٣) . إن قصة لوط عنده هى قصة مدسوسة على السورة . لماذا ؟ لأنه لم يَرِدْ للوط ولا لقومه ذكر على لسان شعيب . لكن شعيبا قد ذكر لوطا وقومه ! فلا يكون جواب هذا المستشرق إلا أن هذه جملة لم يقلها شعيب بل دسها المسلمون فيما بعد للتغطية على التناقض الموجود فى السورة . ولكن أى تناقض ؟ لا جواب. فلنتابع المترجم ولنسقط هذه الجملة من الآية المذكورة ، فكيف ستكون تقفية الآية ؟ إن الآية فى هذه الحالة ستنتهى بكلمة «صالح» ، فهل يا ترى تنسجم هذه الفاصلة مع بقية فواصل السورة؟ إن من له أدنى حسّ بموسيقى الفواصل القرآنية ليجزم بأنها ليست فقط ناشزة بين فواصل سورةَ «هود» بل بين فواصل القرآن كلها . ثم إن هذه القصص الأربع قد وردت فى ثلاثة مواضع أخرى من القرآن على الأقل بهذا الترتيب السردى [الأعراف ٥٩ ـ ٩٣، والحج ٤٢ـ٤٤، والشعراء ١٠٥ـ١٩١] ، فلِمَ سكت المترجم فى هذه المواضع ولم يعقّب؟ وأين كانت تشكيكاته واتهاماته ؟

وهو فى تعقيبه على الآية التالية : ﴿ وإذ قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم، فسجدوا إلا إبليس كان من الجنّ ففسق عن أمر ربه ... ﴾ [الكهف ٥٠] يقول إن هذه هى المرة الوحيدة التى يقال فيها عن إبليس إنه من الجن. ثم يمضى مؤكدا ألاّ مشاحّة فى أن هذه غلطة من الناسخ ترجع إلى المخطوطة الأولى للقرآن لأن العبارة ، مع وصف إبليس بأنه من الجن ، تصبح فى رأيه غير مفهومة . إن الله، كما يقرر هذا المستشرق ، قد أصدر أمرا للملائكة فعصى الأمرَ واحد فقط هو إبليس (ص ٤٠٩/هـ٣) . يريد أن يقول إن الأمر كان صادرا للملائكة ، فمعنى عصيان إبليس إذن أنه واحد منهم ، إذ كيف يعصى أمراً لم يكن ضمن المقصودين به ؟ فهل صحيح أن عقيدة القرآن فى إبليس ، الذى هذا المستشرق واحد من تلامذته النجباء، هى أنه مَلَك من الملائكة ؟ إن الآيتين ١١ ـ ١٢ من سورة « الأعراف » تلقيان ضوءا على هذه المسألة ، فماذا تقولان ؟ لنقرأ : ﴿ ولقد خلقناكم ، ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة : اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين * قال : ما منعك ألاّ تسجد إذ أمرتك ؟ قال : أنا خير منه . خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾ . إن إبليس هنا يتبجح بأنه مخلوق من نار

(وانظر أيضا سورة « ص » / ٧١ ـ ٧٦) . وفي سورة « الحجر » [٢٦ـ٢٧] نقرأ: ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون * والجانّ خلقناه من قبل من نار السموم ﴾ (وانظر كذلك سورة « الرحمن »/ ١٤ ـ ١٥) . فإذا كانت سورتا « الأعراف » و « ص » تقولان إن إبليس مخلوق من نار ، وكانت سورتا « الحجر » و « الرحمن » تقرران أن النار هى العنصر الذى خلق منه الجن، فما معنى ذلك إلا أن إبليس ينتمى إلى الجنّ لا إلى الملائكة؟ وهناك سمة أخرى فارقة بين الملائكة وإبليس ، فبقية آية سورة « الكهف » ، التى يدعى المترجم أن فيها غلطة من الناسخ ، تحذر البشر من إبليس وذريته ، أى أن إبليس بنص القرآن له ذرية ، وهو ما لا ينسبه القرآن قط للملائكة .

أما اعتراض المترجم على استثناء إبليس من الملائكة ما دام لا ينتمى إليهم فإنى لن أذكر فى الردّ عليه ما يسمّى فى النحو بـ «الاستثناء المنقطع» ، فليس مستبعدا أن يرد أمثال هذا المستشرق بأن هذا الباب قد اخترعه النحاة العرب ليغطوا على مسألة استثناء إبليس من الملائكة ، بل أسوق بعض الآيات الأخرى التى ورد فيها مثل هذا الاستثناء للتدليل على أن المسألة لم تكن غلطة من الناسخ ، بل هى استعمال قرآني عادىّ . فمثلا أترى آل لوط عليه السلام (إلا امرأته) كانوا داخلين فى « القوم المجرمين » حتى يستثنيهم الملائكة منهم ؟ : ﴿ قال (أى إبراهيم) : فما خطبكم أيها المرسلون؟ * قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين * إلا آل لوط . إنا لمنجّوهم أجمعين * إلا امرأته قدّرنا إنها لمن الغابرين ﴾ [الحجر ٥٧ ـ ٦٠] . أم ترى عبارة « تذكرة من يخشى » داخلة فى شقاء الرسول كى يستثنيها الله منه فى قوله تعالى : ﴿ طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى * إلا تذكرة لمن يخشى ﴾ [طه ١ـ٣] ؟ أم ترى الله تعالي داخلا فى الأصنام إذ استثناه منها إبراهيم عليه السلام فى قوله سبحانه : ﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم * إذ قال لقومه : ما تعبدون ؟ قالوا : نعبد أصناما فنظلّ لها عاكفين * ... * قال : أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون ؟* فإنهم عدو لي إلا ربّ العالمين ﴾ [الشعراء ٦٩ ـ ٧٨) ؟ ومثله قوله تعالى: ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه : إننى براء مما تعبدون * إلا الذى فطرنى ، فإنه سيهدين ﴾ [الزخرف ٢٦ ـ ٢٧] . ومثله أيضا قوله سبحانه عن أهل الجنة: ﴿ لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلاً : سلاما !

سلاما ! ﴾ [الواقعة ٢٥ـ ٢٦] . أم ترى قيلَ السلامِ داخلا فى اللغو والتأثيم فاحتاج من ثم إلى استثنائه منهما ؟ أم ترى الذين كَفروا وتولّوا داخلينَ تحت سيطرة الرسول عليه السلام ، وبقية الناس خارجها فى قوله تبارك وتعالى : ﴿ فذكّرْ إنما أنت مذكِّر * لستَ عليهم بمسيطر * إلا من تولّى وكَفَر * فيعذّبه الله العذاب الأكبر ﴾ [الغاشية ٢١ـ ٢٣] ؟

وهو يدّعى أن سورة « فاطر » قد مرت عليها ريشة كاتبها ببعض اللمسات الأخيرة، إذ إن تقفية الآيات من٣٦ إلى آخر السورة لا تعرفها بقية السورة (ص ٥٨١/ هـ١) . لكن هل هذا سبب معقول لاتهام السورة الكريمة بأنها خضعت لبعض اللمسات الأخيرة ؟ أكان هذا المستشرق مع كتبة الوحى ونسّاخه وشاهدهم وهم يثبتون ويمحون، ويحسّنون فى النص ويجمّلون ، ويختارون هذه الفاصلة وتلك يلفظون ؟ إن الذى يسمع هذا الاتهام من هذا المستشرق يظن أن كل سورة قرآنية إنما تدور على روىّ واحد لا يتغير من مبتدإ السورة إلى منتهاها . إن هذا غير صحيح ، بل لابد أن تختلف بعض الفواصل فى كل سورة عن بقيتها، اللهم إلا فى السورة القصيرة جدا جدا كسورة « الصمد » و « الكوثر » مثلا. ثم إن سورة « فاطر » نفسها تتنوع فيها الفواصل تسع مرات لا مرتين فحسب كما يريد المترجم أن يوهم قراءه . وهذه بعض فواصلها : «قدير ، الحكيم ، تؤفكون ، الأمور ، الحميد ، سود ، لغوب ، خسارا ، تحويلا » . بل إنه هو نفسه كثيرا ما يقوم بإحصاء فواصل السّور ، وهذه الفواصل ، كما تبينها تلك الإحصاءات ، دائما ما تكون متنوعة ، فما معنى التشكيك فى هذه السورة بالذات إذن؟

وهو أيضا لا يستطيع أن يفهم كيف يقول القرآن : ﴿ فاستفتهمِ : ألربك البناتُ ولهم البنون ؟ ﴾ [الصافات ١٤٩] ، فنراه يدّعى أن هذه الآية قد حرِّفت، إذ كان ينبغى فى نظره أن يقال : « فاستفتهم : أَلله البناتَ ولكم البنون ؟ » بدلا من «ألربك»، التى لن يعود الضمير فيها حينئذ إلا على محمد . وما وجه الخطإ فى ذلك ؟ إنه يزعم أن النص يكون أوضح بعد التغيير المقترح (ص ١٠٥/هـ ٤) . بالله ماذا يمكن أن يقول الإنسان لمثل هذا الدعىّ المتفيهق ؟

ومثل ذلك ادعاؤه بأن آية ﴿ تَعْرُجُ الملائكة والرُّوح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ... ﴾ [المعارج ٤] ، التى يصفها بأنها تقوم على المبالغة ، تبدو شرحا للآية السابقة عليها أراد محمد به ، أو على الأقل كاتب هذا الشرح ، أن يبين العلوّ المطلق

الذى يسكنه الله فوق السماوات السبع (ص ٧٧٩/هـ٦) . إن هذا المستشرق يرى أن الآية المذكورة «شرح: une glose» للآية السابقة عليها لتفسير ما غمض فى قوله تعالى: « الله ذى المعارج » ، كما يقول كذلك إن هذا الشرح يقوم على المبالغة ، فهل عرج هو إلى الله مع الملائكة وتحقق أن العروج لا يستغرق كل هذه المدة التى حدّدها القرآن أم ماذا ؟ ثم هل تقول الآية إن الله يسكن فوق السماوات كما جاء فى تعليق مونتيه ؟ وأخيراً يتقدم هذا المستشرق خطوة أخرى بعد أن ادعى أن هذه الآية تعد شرحا لما غمض فى الآية السابقة عليها ، فيقول إن هذا الشرح إلا يكن كتبه محمد فواحد غيره كتبه .

* * *

وهذا المستشرق ، ككثير من أشباهه ، يدعى أن بعض سور القرآن مفككة لا رابط بين أجزائها . والحقيقة أن القرآن يختلف عن التوراة والإنجيل كما نعرفهما الآن ، فهذان يعدّان فى الدرجة الأولى تاريخا لبنى إسرائيل وعيسى عليه السلام كتبه اليهود والنصارى فيما بعد ، فالحوادث فيهما مرتبة على حسب وقوعها ، أو على الأقل حسب ما ظن كتبتهما أنه المسار الذى اتخذته هذه الحوادث : ما وقع منها فعلا وما حرّف . أما القرآن فهو وحى سماوى كان ينزل من حين لحين ، آيةً أو آياتٍ أو سورةً كاملة ، فهو إذن ليس تاريخا للرسول ودعوته بل مبادئ وتوجيهات إلهية فى المقام الأول، ثم أمر الرسول بأن ترتّب هذه النصوص فى داخل كل سورة على النحو الذى بلغنا . والقارئ الذى يرتل القرآن على عجل ربما لا يفطن للخيط الذى يربط فقرات كل سورة معا ربطا قد تلحظه عين المتنبّه بسرعة ، وقد يحتاج الأمر إلى فَضْل تأمل . إن الأسلوب القرآنى يعتمد عموما على الإيجاز والتكثيف ، وهو يكتفى فى أحيان كثيرة بوضع الآية أو الآيات فى موضعها تاركا لمن يتبصر مهمة التوصل إلى ما يربطها بسياقها . انظر مثلا إلى قوله تعالى فى سورة « البقرة » : ﴿ حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ، وقوموا لله قانتين * فإن خفتم فرجالا أو ركبانا ، فإذا أمنتم فاذكروا اللهَ كما علّمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ [الآيتان ٢٣٨ ـ ٢٣٩]، الذى ورد فى سياق الحديث عن الطلاق والمهر ومقدار ما تستحقه المطلّقة التى دخل بها زوجها . فالمتعجل المتّهِم سرعان ما يعدّ ورود هاتين الآيتين فى سياقهما هذا خللا فى بناء السورة ، بيد أن المتدبر يرى أن الله يحب لعباده ، فى غمرة نزاعهم فى مسائل الطلاق وما يستحقه كل طرف،

أن يتذكروه سبحانه (وهل أفضل من الصلاة وسيلة للتذكير بالله؟) وأن يحاول كل منهم أن يكون كريما فيترك بعض حقه أو يتحمل بعض عبء ليس واجبا عليه تحمله، وهو ما يسميه القرآن بالعفو : ﴿ وأن تعفوا أقرب للتقوى ﴾ . فكيف تكون تقوى عند من لا يذكرون الله ولا يقومون له بالصلاة قانتين ؟

كذلك قد يجد القارئ المتعجل ألا مسوغ لورود الآية الحادية عشرة من سورة «النمل» في موضعها الذى وردت فيه ، وهى الآية الأخيرة فى الآيات الثلاث الآتية : ﴿... يا موسى ، إنه أنا الله العزيز الحكيم * وألق عصاك . فلما رآها تهتز كأنها جانٌّ ولّى مدبراً ولم يعقّب . يا موسى ، لا تخف ، إنى لا يخاف لدىَّ المرسلون * إلا من ظلم ثم بدّل حسناً بعد سوءٍ، فإنى غفور رحيم ﴾ ، إذ ما معنى أن يستثنى الله هنا « من ظلم ثم بدّل حسنا بعد سوء » ثم يعقب بأنه سبحانه « غفور رحيم » ؟ ولكن الذى يقرأ قصة موسى كما أوردتها سورة « القصص » ، وهى السورة التالية لسورة «النمل» ، سوف يجد مفتاح هذه الآية . فإن موسى عليه السلام بعد أن وكز « الذى من عدوه » فقضى عليه قال : ﴿ هذا من عمل الشيطان ، إنه عدو مضلٌّ مبين * قال : ربِّ ، إنى ظلمت نفسى ، فاغفر لى . فغفر له ، إنه هو الغفور الرحيم * قال : ربِّ ، بما أنعمتَ علىَّ فلن أكونَ ظهيرا للمجرمين ﴾ [الآيات ١٥ ـ ١٧] ، فإذا عرفنا أن الاستثناء فى آيات سورة «النمل» هو من جنس الاستثناء الذى أوردنا منه عدة أمثلة فى هذا الفصل ، وهو ما يسميه النحويون « الاستثناء المنقطع » ، كان المعنى على النحو التالى : « لا تخف ، إنى لا يخاف لدىَّ المُرسَلون * (إن الظالمين حقيقون أن يخافوا لدىَّ) إلا من ظلم ثم بدّل حسنا بعد سوء ، فإنى غفور رحيم » . مرة أخرى أذكّر بأن الأسلوب القرآنى يعتمد بوجه عام على الإيجاز والتكثيف .

إن القرآن ، بهذه الطريقة التى تبدو للمتعجلين والذين يبحثون عن الاتهامات مفككة ، يُرضِى أذواق الذين يحبون ، وهم يقرأون ، أن يتنقلوا من موضوع لموضوع ، وكذلك الذين يفضّلون أن يكون ما يقرأونه موصولا فى وحدة تضمه من أطرافه ، وإن احتاج اكتشاف هذه الوحدة أحيانا إلى شىء من البحث . والأذواق الأدبية تتغير من عصر إلى عصر بل فى العصر الواحد . ثم إن هذه الطريقة تسهّل على قارئ القرآن أن يبدأ قراءته من أى موضع تقريبا فى أية سورة فيجد أنه يقرأ موضوعا قائما بذاته ، وإن كان يربطه فى الوقت نفسه بما حوله أوثق الصلات .

إن مونتيه يؤكد مثلا أن سورة « المائدة » تفتقر إلى الوحدة بين موضوعاتها الشديدة التنوع من الصيد إلى ما يَحِلّ ويحرم من الطعام والنساء ، إلى الصلاة ، إلى الزكاة ، إلى الوضوء ، إلى اليهود والنصارى ، إلى السرقة ، إلى القصاص ، إلى الخمر والميسر ، إلى الإشهاد على الوصية (ص ١٨٥/هـ ١) . وهذه هى النظرة العجلى التى لا ترى أبعد من أرنبة أنف الناظر ، وإلا فالخطّ العام فى السورة هو دعوة المؤمنين إلى الوفاء بعقودهم ومواثيقهم وألا يكونوا كأهل الكتاب حين نقضوا ميثاقهم الذى أخذه الله عليهم . وما على القارئ إلا أن يرجع إلى السورة ويقرأها بتمهل ، ولسوف يجد أن هذا الخيط العام ينتظم هذه الموضوعات التى ذكرها المترجم ، إذ تبتدئ السورة بدعوة الذين آمنوا إلى الوفاء بالعقود ، ثم تذكر بعضِ هذه العقود ، ثم تكرّ بعد قليل على اليهود والنصارى ذاكرة أن الله أخذ ميثاقهم فنَسُوا حظًا مما ذُكِّروا به ، وتمضى ضاربة عددا من الأمثلة على نسيانهم لهذا الميثاق : فاليهود مثلا لا يحكمون بالتوراة ويأكلون السحت ، والنصارى يؤلهون عيسى عليه السلام برغم أنه قد دعاهم إلى الله ربه وربهم .

ومترجمنا فى مقدمته لسورة « الأعراف » (ص ٢٣٣) يزعم أنه من الصعب أن نعرف أهذه سورة واحدة أم عدة سور ، وذلك لأنها ، فى رأيه ، تنقسم إلى خمسة أقسام متمايزة : خطيئة آدم ، وإرسال نوح وهود وصالح ولوط وشعيب إلى أقوامهم ، وموسى وتاريخ اليهود من بعده ، وأعداء الله بعامة ، ويوم القيامة . والحق أن هذه الأقسام التى يظنها النظر العابر منفصلة تبدو مع القراءة المتمهلة للسورة وقد انتظمها خيط واحد هو أن الرسول قد أتى بدعوة الحق ، وأن على الناس أن يستجيبوا له ولا يتبعوا خطوات الشيطان، الذى استكبر على أبيهم آدم وعصى ربه ، فهو عدوهم ومرديهم فى النار إن اتبعوه ، وأن يتعظوا بمصارع الأمم الخالية : قوم نوح وعاد وثمود وأهل مدين وقوم فرعون وبنى إسرائيل ، ثم تنتهى السورة بتناول الموضوع تناولا عاما مع ضرب الأمثال الصادعة .

وإذا كان هذ المستشرق يتهم سورا كاملة بفقدان الوحدة بين أجزائها فإنه قد يضيّق هذا الاتهام ويقصره على عدد من الآيات داخل هذه السورة أو تلك : فمثلا الآيتان التاليتان : ﴿ووصّينا الإنسان بوالديه ، حملته أمُّه وَهْنًا على وهنٍ ، وفصالُه فى عامين ، أَنِ اشكُرْ لى ولوالديك ، إلىّ المصير * وإن جاهداك علي أن تشرِكَ بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحِبهما فى الدنيا معروفا ، واتبِع سبيل من أناب إلىّ . ثم إلىّ

مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون ﴾ [لقمان ١٤-١٥] هما فى نظره منقولتان عن موضعهما الأصلى ، إذ كان ينبغى أن توضعا بعد وصايا لقمان لا بينها كما هو الحال الآن ما دام الله لا لقمان هو الذى يتحدث فيهما (ص ٥٥٢/هـ-٣) . وهذه مرة أخرى نظرة عجلى لا تعرف الريث . إن هاتين الآيتين قد وردتا بعد الآية التالية : ﴿ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه : يا بنىّ، لا تشرك بالله . إن الشرك لظلم عظيم ﴾ ، فالآيتان إذن تريدان أن تقولا إن على الإنسان أن يحسن إلى والديه فيطيع ما يأمرانه به من إيمان بالله (كما فعل لقمان حين أوصى ابنه ألا يشرك به عزّ وجلّ) ، أما إذا كان الوالدان محرومين من حكمة لقمان فأمرا ابنهما بالشرك بالله فعليه ألا يطيعهما ، ولكن لابد أن يصاحبهما بالمعروف . هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فإن الله يقضى بينه وبينهما بالحق . إن الآيتين ، بعبارة أخرى ، تعضّدان دعوة لقمان لابنه إلى الإيمان بالله ، الذى يعلم ما فى السماوات والأرض ، وإقامة الصلاة ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ... إلخ . فزاوية الخطاب قد تغيرت إذن من لقمان إلى الله سبحانه ، ولكن هذا التغير من شأنه أن يعضّد المعنى . وكل ذلك على طريقة القرآن فى الانتقال السريع والتعبير المكثف .

ثم هذه نكتة أسوقها للتلطيف : فالمترجم يضيف عبارة « يا محمد » بعد قوله تعالى: ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بى ﴾ ، ولا أدرى من أين أتى بهذا الفهم المخبول . إن توصية الإنسان بوالديه على هذا النحو قد تكررت فى القرآن فى أكثر من موضع ، فلا بد إذن ، بناءً على هذا الفهم المأفون ، أن تكون المنازعات بين الرسول عليه الصلاة والسلام ووالديه فى مسألة الإيمان والكفر قد بلغت حدًا مزعجًا دعا السماء إلى التدخل وإلزام الرسول بمصاحبتهما فى الدنيا معروفا . بالله ماذا يمكن أن يقوله الإنسان فى هذا الرجل الذى فقد عقله وحياءه إلى الحدّ الذى يفسر عنده القرآن هذا التفسير الحلمنتيشى ؟ أكان هذا الرجل يجهل أن رسول الله عليه الصلاة والسلام لم ير أباه ولا مرة واحدة لأنه كان قد مات قبل أن يولد ، وأنه فقد أمه وهو طفل صغير لا يستطيع أن يجادل فى مثل هذه المسائل ؟ فما الذى جعله إذن يتصدى لترجمة القرآن وتفسيره ، فضلا عن تخطئته والتشكيك فيه ؟

ومن اتهام مستشرقنا أيضا لبعض الآيات بنبوّها عن السياق تأكيده أن مَثَل «أصحاب القرية» الذى ضربه الله فى الآيات ١٣- ٢٩ من سورة « يس » خارج عن

السياق وأنه ربما أضيف إلى السورة فى وقت لاحق، مع أن السورة كلها تدور حول إنذار الكفار بسوء المنقلب وتبشير المؤمنين الذين يتبعون دعوة الرسل بفلاح المصير ، وهو المعنى ذاته الذى ضرب الله ذلك المثل من أجله .

* * *

وآخر ما سأتناوله من قضايا فى هذا الفصل هو المقارنة التى كثيرا ما يعقدها مونتيه بين القرآن والكتاب المقدس ، وسأكتفى بعينة صغيرة جدا مما يقول . والملاحظ أنه قد يعقد مقارنة بين شيئين لا تماثل بينهما كما هو الحال مثلا مع قوله تعالى : ﴿ وإذ قال إبراهيم : ربِّ ، أرنى كيف تحيِي الموتى . قال : أوَلَمْ تؤمن ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبى . قال : فخذ أربعةً من الطير فَصُرْهُنَّ إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ، ثم ادعهنَّ يأتينك سعْيا . واعلم أن الله عزيز حكيم ﴾ [البقرة ٢٦٠] ، الذى يؤكد أنه ليس إلا صدى خافتًا لما جاء فى العهد القديم عن قربان الميثاق الذى عقده إبراهيم مع الله حسبما جاء فى سفر « التكوين » [١٥/ ٩ـ ١٨] (ص١٢٠/هـ٨) رغم أن قصة العهد القديم لا تتحدث عن أربعة من الطير بل عن عِجلة وعنز وكبش ويمامة وحمامة ، وليس فيها ذكر لتوزيع الطير على الجبال ، ولَم يَسأل إبراهيم فيها ربه كيف يحيى الموتى، وإنما سأله كيف يعلم أنه سيرث الأرض التى وعده سبحانه بها . ثم إن قصة العهد القديم ليست أكثر من رؤيا ... إلخ . فليس بين القصتين إذن أى تشابه يسوّغ المقارنة .

كذلك يدعى المترجم أن الآية التالية : ﴿ وَمِنْ أهل الكتاب من إنْ تأمَنْهُ بقنطار يُؤَدِّه إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤدِّه إليك إلاَّ ما دمت عليه قائماً . ذلك بأنهم قالوا : ليس علينا فى الأُمّيين سبيل . ويقولون على الله الكَذِبَ وهم يعلمون ﴾ [آل عمران ٧٥] تذكّرنا بمَثل الوزنات فى الأصحاح الخامسِ والعشرين من إنجيل متى (ص ١٣٧/هـ٥)رغم أنه ليس بين هذه الآية ومَثَل الوزنات فى إنجيل متى أى تشابه ، فالآية تتحدث عن أخلاق صنفين من اليهود : صنفٍ أمين ، وصنف خؤون يأكل الأمانة ولا يردّها ، أما مَثَل الوزنات فهو يدور حول ملكوت السماوات وأن الذى سيرثه هو الذى ينشط ويشمّر عن ساق الجِدّ . ومع ذلك فتفاصيل المثل ذاتها لا تتفق ، على الأقل فى ظاهرها ، مع منطق العقل ، إذ إن العبد الثالث الذى ردّ لسيده الوزنة التى كان قد سلّمها له السيد قبل سفره قد عنّفه سيده على أنه لم يردّها إليه مضاعفة كما فعل

العبدان الآخران وقال له : « كان ينبغى أن تضع فضّتى عند الصيارفة ، فعند مجيئى كنت آخذ الذى لى مع ربا » ، ثم عاقبه فأخذ منه الوزنة وأعطاها للذى كان قد سلّمه عشر وزنات، وطرده خارج البيت حيث الظلام والبكاء وصرير الإنسان ، مع أن الذى يُفْهَم من القصة أنه سلمهم أمواله ولم يطلب منهم المتاجرة بها والاحتفاظ بما يكسبونه حتى يعود ، كما أن عذر العبد الثالث على عدم المتاجرة بوزنته أنه خاف أن يخسر فيعاقبه سيده ، وهو عذر معقول جدا ، فضلا عن أن الربا حرام .

كذلك يرى المترجم أن الإشارة التى وردت فى الآية ٩٨ من سورة «يونس» عن قوم هذا النبى تختلف عن رواية العهد القديم ، مع أن هذه الرواية لا تخرج ، على كثرة تفاصيلها ، عن الإشارة المقتضبة في رواية القرآن ، ونصها : ﴿ فلولا كانت قرية آمنتْ فنفعها إيمانها ، إلا قومَ يونسِ لـمَّا آمنوا كَشَفْنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، ومتّعناهم إلى حين ﴾ . ويفهم من كلام المترجم أن وجه الخلاف بين الروايتين هو أن قوم يونس ، على حسب العهد القديم ، قد آمنوا بالله ، ولكن بعد أن دعاهم نبيهم ، فتابوا وعفا الله عنهم (ص٣١٢/هـ٢) . فهل هذا شيء آخر غير الذى فى الآية القرآنية ؟ على كل حال فكما قلت قبلا فإن الكتاب المقدس لا يمكن أن يكون عيارا على القرآن ، بيد أننى أحببت أن أبين أن هذا المستشرق يقع دائما فى حتفه بظلفه .

***

وأخيرا فإنّه يتهم القرآن أحيانا بهلهلة الأسلوب وقلة الاحتفاء بالصياغة، ولا أظن أحدا يأخذ كلامه مأخذ الجدّ ، وبخاصة بعد أن أدرك القراء الكرام معى مدى عجزه عن فهم النص القرآنى فى أحيان كثيرة .

الفصل الثالث

(ترجمة بلاشير(*))

أول ما ينبغى ذكره من أخطاء هذا المستشرق أنه لا يحترم أمانة العلم فيما يختص بالنص القرآنى الذى بين يديه ، فهو يعبث أحيانا بتقسيم الآيات على حسب ما يحلو لهواه مثلما نعل بآية ﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنَّ ... لعلهم يتذكرون ﴾ [البقرة ٢٢١] ، إذ قسمها إلى آيتين : الأولى تبدأ من أول الآية ، وتنتهى بقوله تعالى : ﴿ ولو أعجبكم ﴾، والثانية من بعد ذلك إلى آخر الآية (ص ٦١ ـ ٦٢). والسبب ؟ لا سبب! هو كذلك ، والسلام ! وهو بهذا ينتهك قداسة الوحى الإلهى . وكان خليقا به أن يحافظ على النص ، وعنده فى الهوامش متسع للتعبير عن كل ما يخالجه من شكوك، وإن كان لا بد من القول هنا إن هذا الانتهاك ليس مقصورا على بلاشير ، فقد رأينا من قبله سافارى ومونتيه يفعلان الشيء ذاته، وإن كان لابد من القول أيضا إن بلاشير ، رغم قيام ما يكتبه عن القرآن على أساس أن النبى ﷺ هو مؤلفه ، لم يكتب على غلاف الكتاب مثلهما أن مؤلفه هو محمد . ومثال آخر على هذا العبث يجده القارئ فى ص ٧١ حيث يجعل قوله تعالى : ﴿ ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه . واعلموا أن الله غنىّ حميد ﴾ آية مستقلة . وكأن هذا غير كاف فنراه يزيد فيتهم الآية بأنها مبهمة جدا ، وذلك دون أن يوضح موضع الإبهام ولا سببه . وحتى لو جاريناه فى هذه الدعوى التى تفتقر إلى التحديد والبرهان ، وقلنا إنه أعجمى، وليس الأعجمى فى فهم القرآن كالعربى ، فأين ذهبت كتب التفسير ؟ ألم يجد فيها ما يذهب ما فى الآية من غموض، وبخاصة أنها ليست من الآيات التى تختلف فى تفسيرها الآراء كما يحدث أحيانا فى بعض آيات القرآن ؟

وهذا العبث لم يقف عند عدم احترام تقسيم الآيات القرآنية الذى يلتزمه المسلمون، بل جاوزه إلى تقديم بعض الآيات أو تأخيرها عن مواضعها فى المصحف الشريف بناء على تعلات واهية كما حدث عندما أورد الآية الحادية عشرة (وهى الثانية عشرة عنده) من سورة « النساء » : ﴿ يوصيكم الله فى أولادكم . للذكر مثل حظ

(*) صدرت فى باريس عام ١٩٥٧م عن (Librairie Orientale et Américaine) ، وهى كثيرة الهوامش والتعليقات ، وتقع فى ٧٤٨ صفحة .

الأُنثيين ... ﴾ عقب الآية الثامنة (وهى التاسعة حسب تقسيمه) التى تنتهى بقوله تعالى : ﴿ نصيباً مفروضا ﴾ . أما التاسعة والعاشرة (وهما عنده العاشرة والحادية عشرة) فمكانهما فى ترجمته متتابعتين بين السادسة والسابعة . وهو لا يكلف نفسه أن يشرح لنا سبب هذا التلاعب المخل إلا فى جملة قصيرة حاسمة كأنها القدر الذى لا يناقَش ولا يُرَدّ ، فهو يقول عن هاتين الآيتين الأخيرتين (ص ١٠٥/هـ الآية ١٠) : « هذه الآية والتى بعدها ترتبطان بالآية السابقة » ، وهذا كل ما هنالك .

على أية حال فهذا أفضل مما فعله (ص ٣٤٠ ـ ٣٤١) بالآيات ٦٢ـ٦٣ـ٦٤ (عنده : ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧) من سورة « طه » ، إذ نزعها من موضعها وأقحمها بين الآية ٦٠ (عنده : ٦١) والتى بعدها ، دون أن يتنزل من علياء سماواته ليشرح لنا سرّ هذه النزوة الغريبة .

أما الآيتان ١٤ـ ١٥ من سورة لقمان : ﴿ ووصّينا الإنسانَ بوالديه ... * ... فأُنبّئكم بما كنتم تعملون ﴾ فيرى أنهما تعترضان سياق وصايا لقمان لابنه ، ولذلك ينبغى أن تنتقلا من مكانهما بحيث تأتيان قبل هذه الوصايا (انظر ص ٤٣٧/هـ آية ١٣) . والحقيقة أن بلاشير ، فى غمرة تنقيبه عن الأخطاء الموهومة وأخذه الأمور مأخذا سطحيا ، قد غفل عن الرباط الوثيق الذى يشد هاتين الآيتين إلى موضعهما فى المصحف الشريف . فوصايا لقمان هى نصائح أبوية استخلصها الوالد من تجارب حياته ، وأولاها عدم الشرك بالله لأنه ظلم عظيم . وهنا نسمع توجيها إلهيا للأبناء أن يحسنوا إلى آبائهم وأن يردوا لهم الجميل ، ومعنى ذلك أن على الأبناء إذا ما نصحهم آباؤهم كنصيحة لقمان لابنه ، أن يصغوا بآذانهم وقلوبهم إلى ما يقولون . ولكن قد يكون الآباء هم أنفسهم الكفرة المشركين كما كان الحال أحيانا فى بداية الدعوة الإسلامية ، فماذا يفعل الأبناء حينئذ ؟ إن عليهم، كما توضح الآية الثانية من هاتين الآيتين ، أن يفرقوا بين احترامهم لآبائهم وإحسانهم إليهم جزاء ما فعلوه لهم وبين مشايعتهم إياهم فى آرائهم ومواقفهم . وبعد ذلك يعود القرآن فيستأنف وصايا لقمان لابنه التى تدور حول الإيمان بالله ووجوب الخضوع له والتواضع للناس مما ينسجم مع ما دعت إليه الآيتان اللتان يراهما بلاشير مقحمتين على السياق من الشكر لله والتواضع للآباء .

وهو حين يصل إلى الآية التالية : ﴿ الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مُسْلمين ﴾ [الزخرف ٦٩] يقدمها علـى الآية التى تسبقها (انظر ص ٥٢٣) . ويبدو أنه يظن أن الاسم

الموصول فى هذه الآية لا يمكن إلا أن يكون نعتا لـ «المتقين» ، ولذلك جعلهما متعاقبين ، مع أن المفسرين قد أعربوا « الذين آمنوا » ، فيما أعربوا ، نعتا للمنادى فى قوله تعالى : ﴿ يا عباد ، لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ﴾ [آية ٦٨] ، وإن كنت مع ذلك لا أستبعد أن يردّ بلاشير بأن النعت قد فصل بينه وبين منعوته بجملة « لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون » ، لأن هذا ، فيما أرجح ، هو وجه اعتراضه الأصلى، إذ كيف يفصَل بين المنعوت (الذى هو فى رأيه « المتقين ») وبين نعته (« الذين آمنوا » على حسب فهمه فيما أرجح) ؟ وهو اعتراض يقوم على أساس تبسيط الأسلوب تبسيطا طفوليا ، وكأنه لا ينبغى أن يوجد فى تركيب الكلام تقديم أو تأخير أو اعتراض أو التفات مما يخرج الكلام عن المعهود خالعًا عليه بذلك جِدّة ورونقا ، ومصيبًا القارئ بهزة توقظه أو على الأقل تزيده يقظة .

على أنه ، فى عبثه الذى يهدف إلى إطفاء هالة القداسة المحيطة بالنص القرآنى ، لا يرعوى عند هذا الحد بل تسول له نفسه أحيانا أن يضيف إلى القرآن ما ليس منه كما فعل فى الآية ٥٢ من سورة « الزخرف » ، إذ أضاف كلمة « antérieurement : قبلا » بعد قوله تعالى : ﴿ ما كنتَ تدرى ما الكتابُ ولا الإيمان ﴾ . لا أنكر أنه قد نص فى الهامش على أن المصحف المعتمَد يخلو من هذه الإضافة التى كانت مع ذلك موجودة فى مصحف ابن مسعود وأبىّ بن كعب (ص ٥١٧/هـ آية ٥٢) ، ولكن ربما كان من الممكن الادعاء بأنه احتاج إلى إضافة هذه الزيادة لو كان النص بدونها غير واضح ، أما والنص بهذا الإشراق الناصع فلا يمكن تسويغ ما فعل ، وليس مستطاعا فهمه إلا على أنه إساءة متعمدة إلى القرآن الكريم .

* * *

فإذا ما انتقلنا إلى الترجمة نفسها فأول ما نلاحظه هو ترجمته لكلمة «الرحمن» بـ « Le Bienfaiteur » ، وهى ترجمة غير دقيقة ، إذ إن معنى الكلمة الفرنسية «المحسن أو المنعم أو ولىّ النعمة أو ما شابه ذلك » . كذلك فإنه يمكن استعمالها للبشر ، أما « الرحمن » فمقصورة على الله سبحانه (انظر « لسان العرب » و « محيط المحيط » و « المعجم الوسيط » وغيرها) . ثم إن معظم المترجمين الفرنسيين قد اصطلحوا على ترجمة «الرحمن الرحيم» بـ : « Le Compatissant , Le Miséricordieux » ،

فكان المظنون ، وقد عدل بلاشير عن هذه الترجمة الشائعة ، أن تكون ترجمته أفضل ، لكن الواقع غير ذلك .

ولا نكاد نقلب صفحتين من ترجمته حتى نجده ، كغيره من المستشرقين الذين يظنون أنفسهم أهلا للتصدى لا لترجمة القرآن وحسب بل لتخطئته أيضا صرفا ونحوا وعقيدة وتاريخا .... إلخ ، يخطىء هذا الخطأ الفاحش إذ لا يدرك أن « ألا » فى قوله تعالى : ﴿ ألاَ إنهم هم المُفسدون ...﴾ و ﴿ ألا إنهم هم السُّفهاء ... ﴾ [البقرة ١١-١٢] هى للاستفتاح ، فيترجمها بـ : « أليسوا هم ... ؟ » (ص ٣١) ، فتأمل ! وهو ما فعله كذلك فى ترجمته لقوله سبحانه : ﴿ ألاَ لَعْنَةُ الله على الظالمين ﴾ [الأعراف ٢١] ، إذ قال ما معناه : « أليست لعنة الله على الظالمين ؟ » (ص ٢٤٨) ، وهو توجيه للعبارة لا تعرفه العربية . وربما كان السبب فى هذا الخطإ المضحك أن بلاشير قرأ ما ورد فى بعض كتب التفسير عند شرح « ألا » فى آية سورة « البقرة » من أن هذه الكلمة مركبة من همزة الاستفهام وحرف النفى فظن أنها للاستفهام ، غافلا عن تتمة الشرح التى وردت فيها وظيفة هذا الحرف ، وهى إعطاء معنى التنبيه على تحقُّق ما بعده (انظر الزمخشرى والنسفى والبيضاوى مثلا ، وإن كان آخرون لا يأخذون بهذا الشرح بل يؤكدون أن « ألا » ليست مركبة من الاستفهام والنفى ، بل هى حرف مستقل يستفتح به الكلام للتنبيه على تحقق ما بعده . انظر تعليق صاحب « الإنصاف » على شرح الزمخشرى فى الموضع ذاته (فى الهامش) ، وانظر أيضا « حاشية الصاوى على الجلالين » عند تفسير الآية ذاتها) .

أما ترجمته للفظة « كبيرة » فى قوله تعالى بشأن تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة : ﴿ وإنْ كانت لكبيرةً إلاَّ على الذين هَدَى الله ﴾ [البقرة ١٤٣] بـ (grand péché) (ص ٤٩) ، فهو خلط شنيع بين « كبيرة » صفةً (كما هى مستعملة فى الآية) و « كبيرة » اسماً بالمعنى الذى فهمه هذا الخبيث أو بالأحرى لوى رقبة الكلمة إليه .

وفى ترجمة قوله عز وجل : ﴿ وما كان اللهُ ليُضيعَ إيمَانكم ﴾ [البقرة ١٤٣] يقـول (ص٤٩) : « Allah ne pouvait faire se perdre votre foi » نافيا الفعل « pouvoir : يستطيع - يَقْدر » الذى جعله فى صيغة الـ « imparfait : الماضى المستمر» ، وهو ما يعنى : « لم يكن الله يستطيع أن يضيع إيمانكم » ، مرتكبا بذلك

خطئين في وقت واحد : الأول نفيه القدرة عن الله ، ولا أدرى كيف فهم هذا المعنى من الآية الكريمة . والثانى أنه جعل زمن ذلك فى الماضى ، بينما تركيب الكلام فى الآية لا يتقيد بزمن معين . ولا يقل عن ذلك خطأ ترجمته لقوله تعالى : ﴿ وما كان ربُّكَ لِيهلِكَ القرىَ بظلم ﴾ [هود ١١٧] على النحو التالى (ص ٢٥٧) : « Ton Seigneur n'était pas capable ... » . والملاحظ أنه ترجم مثل هذا التركيب فى مواضع أخرى هكذا : « ... Allah n'est point tel qu'il » (انظر ترجمته لـ « وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم » [الأنفال ٣٣] (ص ١٠٥) هكذا : « Il n'est point d'Allah de ... » ، وكذلك ترجمته لـ ﴿ وما كان الله ليُضلَّ قومًا بعد إذ هداهم ... ﴾ [التوبة ١١٥]/ ص٢٢٩). وأظن أنه في ترجمة آيتى سورتى «البقرة» و « هود » كان يستطيع أن يستعمل الفعلين « يضيع » و « يهلك » فى صيغة الشرط هكذا : « fairait perdre / ferait périr » .

وهو فى أحيان كثيرة لا يقرأ جيدا ما تحت بصره . من ذلك أنه يترجم « أو » فى قوله تعالى : ﴿ فمن خاف من موصٍ جنَفًا أو إثما ... ﴾ [البقرة ١٨٢] إلى «et» ، وهى واو العطف عند الفرنسيين (انظر ص٥٤) ، كما أنه يقرأ « أُحِلَّ » (وهى فعل ماض مبنى للمجهول) فى قوله سبحانه : ﴿ أُحِلَّ لكم ليلةَ الصّيام الرَّفث إلى نسائكم ﴾ [البقرة ١٨٧] (وبالمناسبة فرقم الآية عنده هو ١٨٣) على أنها «أُحِلُّ» (فعلا مضارعا مسندًا لضمير المتكلم) ، ومن ثم يترجمها على هذا النحو : « .. Je déclare pour vous licite de » (ص٥٥) .

ومع أن بلاشير وأمثاله لا يُقْدمون على ترجمة القرآن إلا وقد تدرّعوا له بأكداس المعاجم والتفاسير ودوائر المعارف ، فمن الواضح أنه فى أحيان كثيرة لا يقدر على الانتفاع بها ، فها هو ذا يعجز عن فهم قوله سبحانه : ﴿ فئة تقاتل فى سبيل الله ، وأخرى كافرة يرونهم مِثْلَيهم رأىَ العين ﴾ [آل عمران١٣] ، إذ يترجمه هكذا : « A vue d'œil, ils se voyaient à nombre égal » (ص ٧٠ ـ ٧٧) . وكأن هذه الغلطة المخزية غير كافية فنراه يترجم النّص حرفيا (كما يتوهم) فى الهامش على النحو التالى : « Ils se voyaient semblables » . والمعنى ، على حسب هذه الترجمة ، هو أن الطائفتين تتراءيان متماثلتين ، وهذا معنى خاطئ تماما لا يقبله النص على أى تخريج. ورحم الله مفسرينا القدامى الذين قلّبوا هذا العبارة القصيرة على كل ما

تحتمله من وجوه فلم يرد فيها هذا التخريج العجيب .

ومنْ فَهْمه الذى استقاه لا أدرى من أين ترجمتُه لقوله تعالى : ﴿ويكلِّمُ الناسَ فى المَهْدِ وكَهْلاً﴾ [آل عمران ٤٦] (وهى عنده رقم ٤١) على هذا النحو : " Il parlera aux hommes au berceau, comme un vieillard " رغم أنه قد نص فى الهامش على أن الآية تقول : « وكهلا : et en vieillard » ، فلِمَ عَدَلَ عن هذا إلى ذاك ؟ (انظر ص ٨١ ، وانظر أيضا ترجمته الخاطئة للعبارة المشابهة فى الآية ١١٠ من سورة « المائدة »/ ص ١٤٩) .

أما الآية الكريمة التالية : ﴿ قل : يا أَهْلَ الكتاب ، تعالَوْا إلى كَلمةٍ سَوَاءٍ بيننا وبينكم : ألا نَعْبُدَ إلا الله ، ولا نُشْرِكَ به شيئا ... ﴾ [آل عمران ٦٤]، فإنه يترجمها بما يجعل معناها : « كلمة سواء بيننا وبينكم هى أننا ، مثلكم ، لن نعبد إلا الله ... إلخ » (ص ٨٤) ، وكأن أهل الكتاب هنا هم الأصل الذى ينبغى احتذاؤه فى التمسك بالوحدانية فيَعدهم المسلمون بأن يتمسكوا بالتوحيد تمسكهم به . وفى هذا ، كما هو واضح ، قلبٌ للحقائق التاريخية . لكن إذا كان قصارى جهد الرسول وأتباعه أن يسيروا على درب أهل الكتاب ، فلم كان الدين الجديد إذن ؟ إن الضمير فى «نعبد» و « لا نشرك » يعود على الطرفين : المسلمين وأهل الكتاب ، وطبعا ليس معنى دخول المسلمين تحت هذا الضمير أنهم كانوا يعبدون غير الله ، وإنما هو لون من ألوان الحجاج المهذب الرقيق الذى لا يراد به إفحام الخصم بل كسب قلبه باللين والحسنى . وهو أسلوب يتبعه القرآن أحيانا كما فى قوله تعالى : ﴿ قل : من يرزقكم من السماء والأرض ؟ قل : الله ، وإنا أو إياكم لَعَلَى هدًى أو فى ضلالٍ مبين﴾ [سبأ ٢٤] ، وذلك بدلا من تنفير الخصم منذ الوهلة الأولى بكشف عوار منطقه ، إذ يلجأ المجادل اللبق إلى الإبهام باستخدام ضمير المتكلمين وإدخال نفسه من ثَمَّ فى الأمر فلا يتعيَّن بذلك المخطئ تعينا صريحا .

وفضلا عن هذا الخطإ الفاحش نراه ، فى تعليقه على هذه الآية نفسها فى الهامش، يشرح المقصود بـ « أهل الكتاب » هنا فلا يورد إلا رأيين: أنهم يهود المدينة وحدهم ، أو أنهم اليهود والنصارى معا ، ثم يضعِّف الرأى الثانى متجاهلا الرأى الثالث الذى يقرر أن « أهل الكتاب » فى هذه الآية هم النصارى فقط ، ومتجاهلا أيضا أنه إذا كان اليهود داخلين فى « أهل الكتاب » فى هذه الآية فمن باب الأولى ينبغى أن يكون

النصارى مندرجين فيها هم أيضاً ، لأن الشرك فى عقيدتهم أظهر .

والآن انظر إلى هذا الكيد الخبيث الخفى الذى لا يحسنه إلا بلاشير وأمثال بلاشير. إنه يترجم قوله تعالى : ﴿ وقالت طائفة من أهل الكتاب : آمنوا بالذى أُنزل علـى الذين آمنوا وجه النهار ، واكفروا آخره لعلهم يرجعون ﴾ [آل عمران ٧٢] بما يؤدى المعنى على أية حال . إلى هنا ولا غبار على ما فعل ، إلا أن الدس يبدأ بعد أن فرغ من نقل الآية كما هى موجودة فى القرآن إلى الفرنسية ، إذ يضيف بين معقوفتين هذه الكلمات الثلاث : « de leur erreur » ، التى تجعل المعنى : « لعلهم يرجعون عن ضلالهم » (ص٨٥) . كلمات ثلاث ، ولكنها كحمة العقرب فيها السم ناقعا . ووجه الخبث فى هذه الإضافة التى تبدو للعين العجلى وكأنها فضل توضيح من الكاتب لمعنى الآية أنها تصور اليهود على أنهم كانوا مقتنعين بأن الرسول وأصحابه على ضلال . فهل من العقل يا ترى أن يلجأ من هو مقتنع بأنه على حق وأن أعداءه على باطل فى قضية الكفر والإيمان ويريد أن يهديهم إلى الخير أن يلجأ إلى هذا الأسلوب القذر الذى يدبره اليهود بليل أملا منهم فى أن يلبسوا على المسلمين أمر دينهم فينصرفوا عن الدعوة الجديدة وصاحبها؟ ثم إن المعروف عن القرآن أنه لا يهاجم غير المسلمين لمجرد أنهم لم يدخلوا الإسلام ، بل يصب هجومه على من استبان لهم وجه الحق فعاندوا وتآمروا ، فكيف يهاجم هذه الطائفة من أهل الكتاب ويفضح أضغانهم ويرميهم بأنهم حسدة حقدة لا يطيقون أن يروا النبوة فى غيرهم من العالمين كما تنطق بذلك الآية التى تتلو آيتنا هذه إذا كانوا مقتنعين هذا الاقتناع كله بأنهم على حق والمسلمين على باطل ؟ لقد كان موقفه منهم حينئذ خليقا أن يكون أهدأ وأرق من ذلك كثيرا بهدف تشجيعهم على معاودة التفكير فيما هم مؤمنون به وفى الدعوة الجديدة وتوجيههم إلى دلائل صدقها .

وهذا مثال آخر على علم ذلك المستشرق الذى بتأليفه كتابا فى نحونا لطلبته فى فرنسا يظن أنه فعلا يعرف النحو العربى . إنه يقرأ مثلا الآية التالية التى تطلب من الرسول عليه السلام مقاطعة مجالس الكفر التى يستهزأ فيها بآيات الله ثم تضيف بعد ذلك : ﴿وإمّا ينسينّك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾ [الأنعام ٦٨] ، فماذا يفعل ؟ إننى أتخيله وهو يعصر ذهنه على النحو التالى : « آه . هذه نون توكيد ، وهذا الفعل يدل على النسيان ، إذن فالنسيان مؤكد . والشرط ينصبّ على المستقبل ، إذن

فهناك نسيان مؤكد سوف يقع فى المستقبل . وما دام الفاعل هو ضمير المخاطب ، والمخاطب هو الرسول ، فالنسيان سيقع حتما من الرسول . طيب ، وماذا نفعل بالشرط الذى يربط الجملتين ؟ بسيطة . نُلْغيه . المهم أن نجعل الشيطان يُنسِى الرسول بالتأكيد ما نهاه الله عنه . أما الجملة الثانية فلها رب اسمه الكريم ، وتستقل بنفسها ، ونُبدِى فى فهمها وترجمتها ما نشاء من ضروب الجهل ، ويكون الكلام بالتالى هكذاً : " Assurément le Démon te fera oublier (cett prescription) . Après les avoir édifié , ne reste point avec les injustes ". ومعناه : « وليُنْسِيّنك الشيطان هذا النهى . وبعد تذكير القوم الظالمين لا تقعد معهم » (ص١٥٩) . أما كيف سيمكنه عليه السلام تذكير القوم الظالمين بعد أن يكون هو نفسه قد نسى فحَلٌ هذا اللوغاريتم عند مستشرقنا اللوذعى العبقرى، بارك الله لنا فيه وأكثر من أمثاله ! ومما يؤكد أن هذه ليست غلطة عابرة أنك تجد هذا الفهم الخاطئ قد تكرر فى ترجمته لقوله عز وجل : ﴿يا بنى آدم، إما يأتينكم رسل منكم يقصّون عليكم آياتى فمن اتّقى وأصْلَحَ فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ [الأعراف ٣٥] (وانظر ص ١٧٩ أيضا) .

وبرغم أن القرآن يحدد الثلاثين والأربعين التى واعدها الله موسى عليه السلام بأنها ثلاثون ليلة زادت عشر ليال فتمت أربعين ليلة [الأعراف ١٤٢] فإن بلاشير يرفض إلا أن يترجمها بـ «ثلاثين يوما ، وأربعين يوما». ذلك أنه لا يقيم وزنا لأمانة العلم فيما يتعلق بالنص الذى إذا لم يكن هو يقدسه فمئات الملايين غيره تفعل . لقد كان الله سبحانه قادراً على أن يميز الثلاثين والأربعين بأنها أيام ، لكنه لم يفعل ، وإذن وجب ترجمة ما هو مكتوب أمامنا . وللمفسرين فى سرّ التمييز بالليالى رأىٌ مؤدّاه أن موسى صام هذه المدة ليلها ونهارها ، فحتى لا يظن ظانٌ أن الصوم كان مقصورا على الأيام فقط جعل الله تبارك وتعالى التمييز بالليالى . وفى الحقيقة أنا لا أستطيع أن أعرف مدى صحة هذا الكلام ، ولكنى أستشهد بالآية الكريمة التى تتحدث عن إرسال الله ريحا صرصرا على قوم عاد ﴿ سَبْعَ ليالٍ وثمانيةَ أيام حُسُوما ﴾ [الحاقة ٧] ، ففيها إشارة واضحة إلى أن ليالى مدةٍ ما ربما لا تتطابق عددا مع أيامها ، وإذن فأربعون ليلة قد تكون تسعة وثلاثين يوما ، وقد تكون واحدا وأربعين . وربما كانت المواعدة بين موسى عليه السلام وربّه تتم ليلا فقط . من يدرى ؟ أيا ما يكن مقطع الحق فى هذا كله فإن

ترجمة الليالى بـ « jours » خطأ صراح (انظر ص ١٩١/ الترجمة والهامش ، وانظر أيضا ص ٣٥/هـ الآية ١٣٨).

وعند ترجمته لقوله تعالى : ﴿ وإذا لم تأتهم بآيةٍ قالوا : لولا اجْتَبَيْتَها ﴾ [الأعراف ٢٠٣] يدعى أن المفسرين المسلمين غير متأكدين من معنى «اجتبيتها» وأنه من ثمّ رَكَنَ فى ترجمتها إلى حدسه . والواقع أنه ترجمِ الفعل إلى « inventer »، وهو قريب من المعنى الذى ذكره المفسرون (وهو « اختلقتها » ، وإن كان بعضهم يقول أيضا إن معنى العبارة : « لولا اقترحتها على ربك » . أى أنه لم يأت بشىء من عنده لا حدسا ولا استنتاجا ، بل اعتمد أشيع ما ذكره المفسرون للفعل من معنى . هذه واحدة، والثانية أنه جعل « وإذا لم تأتهم بآية ... » : «وإذا أتيتهم بآية ...» فقلب النفى إثباتا . أما الثالثة فإنه ترجم « لولا اجتبيتها » بما معناه : «ألم تكن لتجتبيها ؟ » أو بأسلوبنا العصرى: « ألم تكن ستجتبيها ؟ (ص٢٠٠) ماسخا بذلك الآية مسخا شنيعا ، إذ أصبحت هكـذا : « وإذا أتيتهم بآية قالوا: ألم تكن ستجتبيها (أو ستخترعها) ؟ » ، فهل لذلك من معنى مفهوم ؟ وكأنه كان يحسّ بتخبطه فى فهم الآية فبادر فألقى التهمة على رؤوس المفسرين (الملاحظ أنه فى المواضع الأخرى التى ورد فيها تركيب «لولا فعلت كذا وكذا ! » قد ترجمه ترجمة صحيحة . انظـر مثلاً ترجمتـه لـ﴿لولا جاؤوا عليه بأربعة شهداء ﴾ ، ﴿ ولولا إذ سمعتموه قلتم: ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ﴾ [النور ١٢ ـ ١٣، ١٦] ، وكـذلك ﴿ لولا تستغفرون الله ﴾ [النمل ٤٦] .

وهو لا يكتفى بإلقاء التهم الجزافية على كواهل المفسرين بل لا يتورع أيضا عن أن يغير فى القرآن بحجة أن عبارة النص الأصلى غير مناسبة . والواقع أن هذا غرور ، إذ يظن أنه (وهو الفرنسى الأعجمى) ، من دون ملايين المسلمين الذين قرأوا القرآن ودرسوه على مدى الأربعة عشر قرنا الماضية، قد اكتشف مثلا أن كلمة «أماناتكم» (فى قوله تعالى : ﴿ لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم ﴾ [الأنفال ٢٧]) غير مناسبة فبدّلها سيادته إلى « أمانتكم » (بصيغة الإفراد) وترجمها إلى « la confiance » (ص ٢٠٤ / الترجمة والهامش) . إن الإسلام قد كلف أتباعه بأمانات شتى لا بأمانة واحدة، فما وجه الصعوبة فى هذا ، وبخاصة أن هناك تفاسيـر لم تغفل توضيـح سبب استخدام صيغـة الجمـع هنا ؟ (انظر مثلا « الوجيز » للواحدى ، و « حاشية الصاوى على الجلالين » . وفى « محيط المحيط » أن « الأمانة كل ما فُرِض على العباد » . وقد

فرض الله على عباده فروضا مختلفة ، فالأمانات متعددة إذن ، ولا غرابة فى جمعها . والأمانات فى الآية الكريمة هى الأمانة المفروضة على المسلم تجاه ربه ، وتلك المفروضة عليه نحو رسوله ، وكذلك أمانته تلقاء أهله ، وهكذا ... وعلى كل مسلم أن يتحرز غاية التحرز من خيانة إحدى هذه الأمانات ، فما الغرابة فى ذلك ؟ لقد نزلت هذه الآية فى واحد من المسلمين أفشى أحد أسرار الدولة الجديدة لأعداء الإسلام فأساء إلى هذه الأمانات جميعا . ويبدو أن بلاشير قد كشف عن معنى لفظة « أمانة » فى معجم عربى - فرنسى فوجدها مفردةً تعنى « loyauté » ، ولكنها حين تجمع يذكر قبالتها « dépots » ، ووجد أن «أمانات» بمعنى « dépots » لا تستقيم مع السياق الذى يتحدث عن خيانة الله وخيانة رسوله ولا يتسع للأمانات بمعنى « الودائع التى يأتمن عليها الناس بعضهم بعضا » .

ثم إنه أحيانا ما تفوتـه التفرقة بين شيات المعنـى المختلفـة ، فمثلا عبارة ﴿ والله خير الماكرين ﴾ [الأنفال ٣٠] تدل على أن الأفضلية هنا مطلقة ، وكان ينبغى من ثم أن تترجم هكذا : " Allah est le meilleur des machinateurs " ، أما الترجمة التـى أوردهـا بلاشيـر علـى النحـو التالـى : " Allah est meilleur en Sa machination " ، (ص ٢٠٥)من غير " le " قبل «أفعل التفضيل» فإنها تدل على أقل كثيرا من المقصود ، إذ تعنى أنه شديد جدا فى مكره ، ولكن من غير إطلاق . وهو حين يعترض على تفسير المفسرين لكلمة « براءة » [التوبة ١] بـ « التبرؤ » يدل على لجاجة، فهو يؤكد أن هذا المعنى يتعارض مع سماح الآية الثانية من السورة للمشركين بأن يسيحوا فى الأرض أربعة أشهر (انظر ص ٢١٢/ هـ الآية ١) . ولعله يستغرب كيف يتبرأ الله ورسوله من المشركين ثم يسمح لهؤلاء المشركين أنفسهم بالضرب فى الأرض آمنين طوال هذه المدة . ومقطع الرأى أنه لا تعارض بين هذا وذاك ، فأنت لا تنبذ العهد الذى بينك وبين فلان لتنقضّ عليه فى التو واللحظة وتقتله ، وإنما لا بد من فترة سماح . كذلك فقد فاتته نبرة التهديد الواضحة فى الآية ذاتها : ﴿ واعلموا أنكم غير معجزى الله ، وأن الله مخزى الكافرين ﴾ ، وما تنص عليه الآية الخامسة مما ينتظر هؤلاء المشركين بعد مرور الأشهر الأربعة : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ... ﴾. وينبغى أن يكون مفهوما أن المشركين المقصودين هنا هم المشركون الذى كان بينهم وبين المسلمين عهد ثم نكثوه ، أما الذين لم ينقضوا عهدا فإن عهدهم باق إلى نهاية

مدته كما تقـول الآية الرابعة . وفوق ذلك كله فإن الآية الثالثة قاطعة ، برغم لجاجة هذا المستشرق ، فى الدلالة على أن البراءة هنا معناها « التبرؤ » ، وإلا فما معنى : ﴿وأذانٌ من اللهِ ورسولِه إلى الناس يوم الحَجِّ الأكبرِ أن اللـه برىء مـن المشركيـن ورسولُه ﴾؟ إنَ اعتراضَه على تفسيرِ المفسرين المسلمين لكلمة «براءة» فى ضوء هذه الآية يبين أنه لا يدرك أنها والآيةَ الثانيةَ تعالجان الموضوع نفسه . وليس هذا بغريب من بلاشير ، فإن له فى هذا الباب لغرائب .

وهو يتحذلق قليلا عند « واو » ﴿ وأذان من الله ورسوله ﴾ فيدَّعى أن جملتى «براءة من الله ورسوله ... » و « أذان من الله ورسوله ... » هما مجرد جملتين متجاورتين لا عطف بينهما ، أى أن « الواو » ينبغى حذفها . هكذا يقرر هذا العلامة النحرير ، ثم يحذف من ترجمته هذه الواو محاولة منه للإساءة إلى النص القرآنى ، إذ يوحى بهذا الحذف أن تلك « الواو » قد زيدت أو على الأقل أن أسلوب القرآن من الرداءة بحيث يأتى هو الأعجمى ويصلحه بعد أربعة عشر قرنا على مقتضى ذوقه الذى لا يدرك أن تتابع جملتى « براءة من الله ورسوله ... » و « أذان من الله ورسوله ... » من غير واو عطف هو السخف والفجاجة عينها (انظر ص ٢١٢/ ترجمة الآية ٢) .

وهو يترجم «النَّسِىء» فى قوله سبحانه : ﴿ إنما النَّسِىءُ زيادةٌ فى الكُفْر ﴾ [التوبة ٣٧] بـــ : « le mois intercalaire » . وهذا خطأ فاحش لم يشأ هو أن يمر بسلام فأفاض فى الشرح والمقارنة (ص ٢١٨/هـ الآية ٣٧) بما يفيد أن « النسىء » هو شهر كانت تضيفه العرب آخر كل سنة قمرية حتى يأتى الحج فى فصل بعينه من فصول العام . وهو يقارن هذا الصنيع بما يفعله اليهود فى تقويمهم ، إذ يضيفون أياما فى آخر العام كى يحلَّ عيد الفصح دائما فى الربيع . والحقيقة إن الإنسان ليحار فى معرفة المصدر الذى استقى منه بلاشير هذا الفهم الغريب ، وبخاصة أن التفاسير واضحة فى هذا. وسأنقل هنا عبارة الزمخشرى ، وهى تلخص ما ورد فى التفاسير الأخرى عن «النسىء» كما كان يمارسه العرب فى الجاهلية . يقول مفسِّرنا الكبير : « النسىء تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر » . لاحظ أن النسىء هو تأخير حرمة الشهر لا إضافة الشهـر، فضلا عـن أن يكون هـو « الشهر المضاف نفسه: le mois intercalaire » كما هو اجتهاد بلاشير العجيب . ذلك «أنهم كانوا أصحاب حروب وغارات ، فإذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون شق عليهم ترك المحاربة ، فيحِلّونه ويحرِّمون مكانه شهرا آخر ، حتى

رفضوا تخصيص الأشهر الحرم بالتحريم ، فكانوا يحرّمون من شهـور العام أربعة أشهر » .
والذى يخرج به قارئ التفاسير أن الشهر الذى كانوا يتلاعبون به هو « المحرّم » ، فكانوا يحلونه ويحرمون « صَفَرا » بدلا منه، ومرة كانوا يرجعون فيحرّمون « المحرم » ويحلّون «صَفَرا» . فأين هذا مما يزعمه بلاشير من أن هناك دلائل قوية تبعث على الظنَ بأن الشهر المضاف كانوا يقحمونه بين ذى الحجة والمحرم؟ وما هذه الدلائل القوية ؟ وأين هى يا ترى ؟ وفضلا عن ذلك كله فالمعاجم العربية ـ الفرنسية لا تفسر «النسيء» على هذا النحو البلاشيرى العجيب . وهـا هـو ذا معجـم « الفرائد الدُّرّية » مثلا يقرر فـى عبـارة لا تحمـل لبسا أن « النسيء » هو « mois des Arabes où la guerre est interdite» ، وذلك بعد أن ذكر أن من معانيه « retard, delai » .

كذلك يخطئ هذا المتحذلق فهم قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وأَخْفَى ﴾ [طه ٧] . إنه أولاً يفهم «وأخفى» بمعنى « الشيء المخفى » ، وهو ثانيا يرى أنه ينبغي أن يلتزم النص هنا فيترجم العبارة كلها على النحو التالى : « يعلم السر مهما يُخفَ » (ص٣٣٨) ، وهذا نص عبارته : «Il sait le secret même bien caché» ، مع أن المعنى هو أن الله يعلم السر ومـا هو أشد خفاء من السّر (انظر هامش الآية السابقة فى الصفحة المشار إليها) .

وهـو يضطرب ويتخبط أمام قول الحق : ﴿ إن الذين كفـروا ويصُدُّون عن سبيل الله ... ﴾ [الحج ٢٥]. ويبدو أن الآية ، لعدم جريان تركيبها على أسلوب المستوى الأدنى من الكلام والكتابة ، قد أربكته . وكالعادة يشفع جهله بالتقول على المفسرين الذين يظن أنهم ما داموا قد انتقلوا إلى جوار ربهم فإنه يستطيع أن يدعى عليهم ما يشاء بلا رقيب ولا حسـيب ، فـهـو يزعم أن « واو » « ويصـدون » قـد خلقت لهـم من المصاعب ما لم يقدروا على تخطيها (ص ٣٦٠/هـ الآية ٢٥) . وعبثا تبحث في كلامه عن أسماء هؤلاء المفسرين الذين عجزوا عن فهم هذه الواو وجاء هو فَحَلّ المشكلة بأن أراح نفسه وحذف هذا الحرف مما يمثل اعتداء شنيعا على النص القرآنى ! وهو لم يذكر لنا وجه الصعوبة فى هـذه « الواو » ، وربما كان يظن أنه لا يصح عطف « مضارع » على «ماض» أو ربما حيّره أنه لا يجد خبرا مباشرا لـ « إن » (فى « إن الذين كفروا ...») . وكلتا النقطتين قد بحثها المفسرون وقالوا إن « يصـدون » قـد جـاءت بصيغة المضارع لأن « الصد » مستمر منهم ، فهو غير مختص بزمن معين .

وكذلك ذكروا أن خبر « إن » مفهوم من جواب الشرط فى آخر الجملة : ﴿ نُذِقْه من عذاب السَّعير ﴾ ، أى أنه إذا كان من يريد فى المسجد الحرام بإلحادٍ بظلمٍ سيذيقه الله العذاب الأليم فمن باب الأولى سوف يذيق الكافرين الذين يصدون عن سبيله ومسجده الحرام من هذه الكأس . فأين الصعوبة إذن ؟

وهو أمام تركيب الجملة التالية: ﴿ إمّا تُرِيَنّى ما يُوعَدون * ... فلا تجعلنى فى القوم الظالمين ﴾ [المؤمنون ٩٣ ـ ٩٤] يعجز عجزا تاما عن إدراك أن الجملة شرطية ، مع أن كل ما حدث هو أن حرف الشرط « إنْ » قد دخلت عليه « ما » . أتعرف كيف ترجم تلك الآية ؟ لقد ترجمها هكذا : " Dis : Seigneur ! or ça ! montre moi ce qui leur est promis ! Seigneur ! ne me place point parmi le peuple des injustes " (انظر ص ٧٣٧) ، ومعنى هذا الكلام : « رب ، والآن أرِنى ما يوعَدون . رب ، لا تجعلنى فى القوم الظالمين » . وهـذا طبعـا شىء ، ومعنـى الآية شىء آخر .

وهو يرفض ما يقدمه المفسرون من شرح لقوله تعالى : ﴿ وخُذْ بيدك ضِغْثا ، فاضرب به ولا تحنث ﴾ [ص ٤٣] على شبهة أن حَلف أيوب لَيضربنّ امرأته مائةً لا يتسق مع قوله سبحانه قبل ذلك : ﴿ واذكر عبدَنا أيوبَ إذ نادى ربّه أنى مَسّنى الشيطانُ بنصبٍ وعذاب ﴾ [الآية ٤١ من السورة نفسها] . والحق أنى لا أفهم كيف لا يتسق هذا مع ذاك ، وحتى لو كان بلاشير محقًا فى رفض ما أتى به المفسرون فكيف ساغ له أن يترجم «فاضرب به» بمعنى « فاستعمله » شارحا ذلك فى الهامش بأن الله قد أمره أن يأخذ حزمة من العشب يداوى بها قروحه ، ومؤكدا أنه اعتمد فى هذه الترجمة على حدسه (ص ٤٨/هـ الآية ٤٣) . أرأيتم إلى هذا الحدس الذى يفسر «اضرب به» بمعنى « تَدَاوَ به » ؟ ثم يمضى فيترجم « لا تحنث » بـ « لا تجدّف : ne blasphémez pas » . فهل كان داود عليه السلام يجدّف ؟ داود الذى مدحه الله بأنه كان ﴿ صابرا ، نعم العبدُ ! إنه أوّاب ﴾ ؟ وفضلا عن هذا فإن شنشنة بلاشير فى تمزيق أوصال الآيات وتقديم هذه وتأخير تلك لا تفارقه هنا ، فقـد رتب الآيات من جديد حتى أصبحت كالآتى : « واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنُصبٍ وعذاب (آية ٤١) * اركُض برجْلك ، هذا مُغْتَسَلٌ بارد وشراب (٤٢) * وخذ بيدك ضِغْثا ، فاستخدمه ولا تجدّف . إنا وجدناه صابرا (٤٤) * ووردَدْنا له أهله ومثلهم معه

رحمة مـن عندنا وذكرى لأولى الألباب (٤٣) * نعم العبد ! إنه أواب (تتمة الآية ٤٤) » .

ولهذا الرجل أشياء فى منتهى العجب ، وإلا فكيف ساغ له أن يترجم قوله عز وجل : ﴿ فاستغفر لنا ﴾ [الفتح ١١] بـ : « pardonne nous : فاغفر لنا » (ص ٥٤٣ ـ ٥٤٤) ؟ هل فى صياغة العبارة كل هذا الغموض الذى يجعله يخطئ هذا الخطأ الذى لا يُغْفَر ؟ لقد طلب المخلّفون من الأعراب من الرسول الكريم عليه أزكى الصلاة والسلام أن يستغفر الله لهم ، فأتى هذا المستشرق الأمين ، والأمين جدا ، وجعلهم يلتمسون من الرسول أن يغفر هو لهم .

كذلك ترجم ﴿ ماء معين ﴾ [الملك ٣٠] بـ « une eau pure : ماء صاف » (ص ٦٠٧) . ألم يقرأ ما قاله المفسرون فى شرح هذا اللفظ وأنه « الماء الجارى على سطح الأرض بحيث تناله الأيدى بسهولة » ، وذلك فى مقابل « غوْراً » ؟ وفى «الفرائد الدرية » : « الماء المعين هو ." qui jaillit à la surface de la terre (source) " وانظر أيضا ترجمته لـ ﴿ كأس من معين ﴾ [الصافات ٤٥] (ص ٤٧٦) ، و [الواقعة ١٨] (ص٥٧٢) . ونحن حين نعترض على ترجمة « الماء المعين » بـ « الماء الصافى » لا ننكر أن هذا الماء صاف ، إلا أن الآية لم تتعرض لصفة الماء من حيث كدورته أو نقاؤه ، لكنها امتنت على عباد الله بأنه سبحانـه قـد سهل لهم الحصول على هذا العنصر الحيوى فِي حِياتهم ، والذى لولاه ما كانت حياة أصلا ، بأن أجراه لهم فى الأنهار والترع وبجسه عيونا بل أقدرهـم علـى استنباطـه من باطن الأرض بحيث يرى فى نهايـة المطاف فوق سطحهـا وتناله أيديهم فى يسر . فكان لزاما على هذا المستشرق ألا يتصرف فى الآية على هذا النحو الذى أخرجها عـن دلالتها إلـى شىء آخـر سكتت عنـه ولم تتعرض له .

* * *

إلى هنا وأتوقف عن ضرب الأمثلة ، فلا بد أن يكون القارئ قد أمله ذلك التطويل مع أنه ليس إلا عينة ضئيلة من كومة من الأخطاء والحذلقة، ونتحول إلى محاولات ذلك المستشرق فى الشرح والتعليق . وأود أن أنبه من الآن إلى أنى لن أتوسع فى ضرب الأمثلة على هذا الجانب من عمل بلاشير، ولكننى سأكثر منها عندما أصل إلى تخطئته

القرآن نحويا وأسلوبيا وادعاءاته الخاصة بعدم ارتباط الآيات المتوالية بعضها ببعض .

ومن الأمثلة التى أقدمها للقارئ على تلك التعليقات أن بلاشير ، عند ترجمته للآيات التى تتناول قصة البقرة التى أمر الله بنى إسرائيل أن يذبحوها [البقرة ٦٧-٧٣] ، قال ما نصه : « إن القصة التالية جميعها توازى ما جاء فى سفر « العدد »/ الأصحاح ١٩/ الآية الأولى وما بعدها» (ص ٣٧) . وليرجع من يحب إلى القرآن وإلى العهد القديم ليتأكد بنفسه أن ما قاله بلاشير هو ادعاء لا يستقيم إلا فى نقطتين اثنتين هامشيتين ، أما النقاط الباقية بل اتجاه القصة كلها فمختلف مختلف . صحيح أن موسى قد بيّن لهم أن البقرة المطلوبة للذبح لابد أن تكون « صحيحة لا عيب فيها ، ولم يعلُ عليها نير » ، وهو ما يقابل ما ذكره القرآن فى هذا الشأن من أنها بقرة ﴿ لا ذلول ، تثير الأرض ولا تسقى الحرث ، مسلّمة ﴾ . لكن هذا هو كل ما هنالك من تشابه ، أما الباقى فمختلف كلّه كما قلت . فالبقرة فى القرآن صفراء فاقع لونها ، وهى فى العهد القديم حمراء (أو " rousse " كما ذكرها بلاشير فى الهامش ، وكما وردت فى ترجمتى « Segond و Ostervald الفرنسيتين) ، وهى فى القرآن ﴿ لا فارض ولا بكر ﴾ أى لا مسنّة ولا فتيّة، أما العهد القديم فقد سكت عن ذلك . ثم إنه ليس فى العهد القديم نص على أن لون البقرة لا بد أن يكون خالصا لا شية فيه كما جاء فى القرآن . لا ، ولا فيه ذكر للجاجة اليهود وسخفهم فى كثرة الأسئلة التى تدل على ترددهم أو استهزائهم . والمهم بعد ذلك كله أنّ ذبح البقرة فى العهد القديم قصد به إحراقها بعد ذلك وجمع رمادها وخلطه بماء يستعمله اليهود للتطهر من النجاسات المختلفة ، وهى عندهم كثيرة ومعقدة ومعنتة ، أما فى القرآن فقد طلب الله سبحانه منهم أن يضربوا ببعضها جثة القتيل الذى اختصموا فيمن قتله فيهبّ حيا ، ثم يعقب سبحانه قائلا: ﴿كذلك يحيى الله الموتى ، ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾. فأين التوازى بين القصتين الذى يزعمه بلاشير إذن ؟

وهو لا يظن أنه قادر على فهم القرآن فحسب بل على تغييره أيضا . أتدرى كيف يقرأ الآيات الكريمة التالية : ﴿ وما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس : كونوا عباداً لى من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون * ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا . أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون؟ * وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لَمَا آتيتكم من كتاب

وحكمة ثم جاءكم رسولٌ مُصَدِّقٌ لما معكم لَتؤمنُنّ به ولَتنصرُنّه . قال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى؟ قالوا : أقررنا . قال : فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ﴾ [آل عمران ٧٩ ـ ٨٠] ؟ إنه يقتطع الجزء الآتى : «وإذ أخذ الله ميثاق النبيين» من جملته ويجعله تتمة جملة الاستفهام لتكون هكذا : « أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون وإذ أخذ الله ميثاق النبيين ؟ » . هذه هى البَلية الأولى، أما الثانية فإنه يضع قوله تعالى : « لَمَا آتيتكم من كتاب وحكمة » بعد قوله « أأقررتم ؟» بحيث تصبح الترجمة هكذا : « قال هذا الرسولِ : أأقررتم لما آتيتكم من كتاب وحكمة ؟ » . فهل سمع أحد بهذا التركيب : « فلان يقرّ لكذا » ؟ ثم يترجم : « وأخذتم على ذلكم إصرى » بما معناه : « وآخذُ ذلك على مسؤوليتى : Je prends celà à ma charge » جاعلاً السائل هو الرسول عليه الصلاة والسلام لا الله سبحانه وتعالى . وهو لذلك يضيف من عنده كلمة « هذا الرسول » فاعلا لـ « قال » التى مرت ، كما يضيفها لـ « قال » الآتية على هذا النحو : « قال هـذا الرسول: فاشهدوا ...» . وفى الهامش نقرأ هـذا التعليق : « يبدو بوضوح أن جملة « قال (هذا الرسول) » قد أضيفت بعد ذلك كما يدل عليه تغير الضمير، وهو « الواو » فى « قالوا (أى بنو إسرائيل) » . فانظر كيف خلَطَ الضمائر فجعل الضمير العائد على رب العزة عائداً على الرسول مرتين ، وجعل الضمير العائد على النبيين عائدا على بنى إسرائيل مع أنه لا ذكر لبنى إسرائيل مطلقا هنا (انظر ص ٨٦/هـ الآية ٧٥) .

وهو فى تفسيراته وشروحه يحاول دائما التشكيك فى كل شىء بلا أوْهَى أساس . المهم التشكيك والسلام ، وإلا فمن ذا الذى يمكن أن يخطر فى باله أن « المسجد الأقصى » [الإسراء ١] ليس هو المسجد الموجود فى بيت المقدس بل هو « مسجد فى السماء » ؟ اسمع ما يقوله بلاشير : « كان « المسجد الأقصى » ، فيما يبدو ، يعنى لدى معاصرى محمد مسجدا سماويا ... وبلا ريب فإن تعبير « المسجد الأقصى» لم يفقد معنى « أورشليم السماوية » ويصبح معناه مدينة يهوذا نفسها إلا فى وقت لاحق، ربما فى خلافة بنى أمية فى دمشق عندما حاولوا أن يزحزحوا مكة عن مكانتها كعاصمة دينية وحيدة للإسلام ! » (ص ٣٠٥/هـ الآية ١) . والسؤال الفورى هو : أين دليله على أن « المسجد الأقصى » كان يعنى عند معاصرى الرسول مسجدا سماويا؟ وأين أيضا دليله على أن اكتساب اللفظة لمعناها الحالى لم يتم إلا فى عصر بنى

أمية ، وللسبب المشار إليه ؟ أرجو أن أنبه القارئ لطريقة بلاشير الخبيثة فى محاولة الإقناع عن طريق الإبهام ، إذ يبدأ كلامه بهذه العبارة : « يبدو أن هذا التعبير كان يعنى عند معاصرى محمد ... » ، وهى عبارة تدل على مجرد الظن ، ولكنه بعد أن يخدِّر القارئ قليلا يقفز من مجرد الظن إلى التأكيد ، إذ يقول : « وبلا ريب ... إلخ » . ومع ذلك فهو يتظاهر بأنه رجل موضوعى ، إذ إنه غير متأكد تماما متى بالضبط كان ذلك ، ولهذا يضيف عبارة : « ربما كان ذلك فى عصر بنى أمية » ... وهكذا !

وهو ، بلا دليل أيضا إلا الوساوس الشيطانية والرغبة فى إثارة الشكوك، يعترض على تفسير المفسرين لـ « رِجال » فى قوله تعالى : ﴿ فى بيوتٍ أَذِنَ اللهُ أن تُرفَعَ ويُذكَرَ فيها اسمه يسبِّح له فيها بالغدوِّ والآصال * رجالٌ لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذِكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، يخافون يوما تتقلَّب فيه القلوب والأبصار ﴾ [النور ٣٦ ـ ٣٧] بأنهم هم المؤمنون المسلمون قائلا : « إن لنا فى الواقع كل الحق فى أن نرى أن المقصود بذلك هم بعض الرهبان النصارى » (ص ٣٨١ / هـ ٣٧) . والدليل ؟ لا دليل! وهو بهذا يتناسى أن السورة كلها من أولها إلى آخرها لا ذكر فيها، لا من قريب ولا من بعيد ، لأحد من أهل الكتاب يهودا أو نصارى ! علاوة على أن القرآن لا يُقِرّ لأحد من أهل الكتاب بالنجاة يوم القيامة إلا من أسلم منهم (انظر آل عمران ٨٤ ـ ٨٥، ١١٣ ـ ١٤٤ ، والمائدة ٨٢، ٨٥) .

وبالمثل نراه يعترض على شرح المفسرين لقوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا كافةً للناس بشيرا ونذيرا ﴾ [سبأ ٢٨] بأن المقصود الناس جميعهم عرباً وغير عرب ، لا فرق بين أحمرهم وأسودهم ، وهو ما يدل على عالمية الإسلام ، قائلاً : « إن مثل هذا التفسير يحمِّل النص ما لا يحتمل » (ص ٤٥٩/هـ الآية ٢٧) ثم لا يزيد ، مع أن الآية فعلا تدل على هذا . ولعله يريد أن ينفى عن الإسلام صبغته العالمية . وأنا لن أحاجّه إلا بشىء واحد فقط هو إقراره (ص ١٥٣/هـ الآية ١٩) بأن عبارة « ومن بَلَغَ » فى قوله تعالى على لسان الرسول : ﴿ وأُوحِىَ إلىّ هذا القرآنُ لأُنذِرَكم به ومن بَلَغ ﴾ [الأنعام ١٩] هى « إشارة مهمة لفكرة عالمِيَة الدعوة الإسلامية » .

وهو يعترض على شرح المفسرين لـ « سِدْرة المُنْتَهَى » بأنها سِدْرَة فى السماء ، مرجحا ما يراه كايتانى من أنها مكان قرب مكةَ ! اللهم صلِّ على النبى ! طيب ، و« جنة المأوى» التى عندها هذه السدرة ؟ بسيطة ! « جنة المأوى » هى « ڤيلا » تحيط بها

حديقة فى أطراف مكة (ص ٥٦٠ـ ٥٦١/هـ الآيتين ١٤ ، ١٥) . أى أن من مات من الذين آمنوا وعملوا الصالحات هو الآن فى ڤيلا مثل هذه هناك فى ضواحى مكة ، ويمكن كل واحد من المسلمين أن يحصل على تأشيرة دخول إلى السعودية ليتأكد بنفسه من وجود أحبابه وأصحابه هناك ، كل منهم فى « ڤيلا » من هذه «الڤلل» ، فيطمئنّ قلبا على مصيرهم . ألم يقل الله : ﴿ أمّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنّات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون ﴾ [السجدة ١٩] ، وجنة المأوى هى ، عند مولانا المستشرق ، « ڤيلا » محوطة بجنينة فى ضواحى مكة ، وجنات المأوى جمع لها؟ والطريف أنه سكت ولم يعلق بكلمة واحدة على تعبير « جنات المأوى » الوارد فى سورة « السجدة » .

***

أظن أن هذه الأمثلة تكفى ، والآن إلى اجتهاداته النحوية والأسلوبية . إن هذا المستشرق يدّعى أن آية ﴿ ولكلٍّ وجهة هو مولّيها ، فاستبقوا الخيرات ﴾ [البقرة ١٤٨] قد أُقحمت فى موضعها ، بسبب فهم المسلمين لكلمة « وجهة » بمعنى « قبلة » ، فأُقحمت هذه الآية من ثَمّ بين الآيات التى تتناول موضوع القبلة . وفى رأيه أن هذه الكلمة تعنى «وجهة الحياة» (ص ٤٩/هـ الآية ١٤٣) . فلنفترض أن تفسيره هو التفسير الصحيح ، فأين النبوّ عن السياق هنا ؟ ألا تتحدث السورة من أولها ، وبخاصة عند قوله تعالى : ﴿ ودّ كثير من أهل الكتاب لو يردّونكم من بعد إيمانكم كفارا ﴾ ، عن هذا الاختلاف بين البشر كفارا وأهل كتاب ومنافقين ومؤمنين وأن على المسلمين أن يشمروا عن ساعد الاجتهاد ويعملوا على إرضاء ربهم باستباق الخيرات ؟ فأين النبوّ عن السياق ؟ وأين الدليل من ثَمّ على أن الآية مقحمة فى موضعها هذا ؟

وهو يزعم أن الأسلوب من أول قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، استعينوا بالصبر والصلاة ﴾ [البقرة ١٥٣] قد تغير ، وأن الآيات قد أصبحت أقصر (ص ٥٠/هـ الآية ١٤٨) . والحقيقة أن الأسلوب عند هذه الآية لم يتغير ، فالآيات من أول السورة تتراوح بين الطول والقصر : فآية ﴿ واتّبعوا ما تتلوا الشياطين على ملْك سليمان ...﴾ [١٠٢] تبلغ نحو سبعة أسطر (فى طبعة المصحف ذى الخمسة عشر سطرا فى الصفحة) ، وآية ﴿ فاذكرونى أذكركم ﴾ [١٥٢] لا تكاد تستغرق سطرا واحدا (وليلاحظ القارئ الكريم أن هذه الآية الأخيرة تسبق الآية التى يدعى هذا المستشرق أن الآيات عندها قد

أصبحت أقصر ، والتى هي مع ذلك أطول من هذه الآية ومن آيات أخرى سابقة كآية ﴿صبغَةَ الله ، ومن أحسن من الله صبغة ؟... ﴾ [١٣٨] ومن آية ﴿ إذ قال له ربه : أسْلِمْ ... ﴾ [١٣١ ، وهى أقصر من هذه] ، ومثلها فى القصر آية ﴿ بَديع السماوات والأرض ... ﴾ [١٢٧] ، وآية ﴿ ولقد أنزلنا إليك آيات بينات ... ﴾ [٩٨] ، وآية : ﴿وقالوا : قلوبنا غلف ... ﴾ [٨٨] . وأقصر من ذلك آية ﴿ أولاَ يعلمون أن الله يَعْلَمُ ...؟ ﴾ [١٧٧] ، وآية ﴿ ثم بعثناكم من بَعْد موتكم ... ﴾ [٥٥] ، وآية ﴿ ألاَ إنهم هم المُفْسِدون... ﴾ [١٢] ... إلخ . ثم فلنفترضَ أن ملاحظته صحيحة ، فما دلالتها ؟

وهو يرى أن آية ﴿ إنّ الصّفا والمروةَ من شعائرِ الله ...﴾ [البقرة ١٥٨] فى موضعها الذى هى فيه تثير مشكلة ، إذ كان من المتوقع فى نظره أن تكُون مع الآيات التى تتعرض لشعيرة الحج ، وهى الآية ١٩٦ وما بعدها (ص ٥٠/هـ الآية ١٥٣) . والذى أحب أن أعلق به هنا أن الآيات من أول قوله تعالى : ﴿ وإذْ جعَلْنا البيتَ مثابةً للناس وأَمْنا ... ﴾ [١٢٥] ، أى من قبل آية ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله ... ﴾ بثلاث وثلاثين آية حتّاها تتحدث عن الكعبة ومقام إبراهيم ، وأنه وإسماعيل عليهما السلام قد بنياها ليطوف بها الحجيج ... إلخ ، وأن الصلاة بعد التحول عن بيت المقدس ينبغى أن تكون إليها . فأنت ترى أن ذكر التطواف بالصفا والمروة هنا ، وهو داخل فى الحج والعمرة ، غير نابٍ عن السياق .

وهو يقترِح أن تُقرأ « ينْعق » فى قوله تعالى : ﴿ ومثَلُ الذين كفروا كَمثَلِ الذى ينْعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداء ﴾ [البقرة ١٧١] بالبناء للمجهول « يُنعق » على اعتبار أن التشبيه هنا هو بين الذين كفروا والبهائم ، زاعما أن تفسير البيضاوى للآية يزكى هذا الاقتراح (ص ٥٢/هـ الآية ١٦٦) . والحقيقة أن ليس فى كلام البيضاوى فى شرح هذه الآية ما يعضد هذا الاقتراح ولا من باب التوهم البعيد ، فالبيضاوى يقدّر مضافا محذوفا فيكون معنى الكلامِ : « ومثل داعى الذين كفروا كمثل الذى ينعق ... » ، كما أنه يورد تفسيرا آخر مفاده أنهم فى دعائهم الأصنام كمثل الذى ينعق بالبهائم ، فالمشبّه بالبهائم هنا هو الأصنام ، ولكنه يسارع فيقول : «ولكن لا يساعد على هذا التفسير قوله : « إلا دعاء ونداء » لأن الأصنام لا تسمع ، إلا أن يجعل ذلك من باب التمثيل المركب » ، فأين كلام البيضاوى الذى يزكى هذا الاقتراح العجيب ؟ ثم إن اللغة تعرف « فلان ينعق ببهائمه » مثلا ، ولا تعرف « فلان

ينعق بهائمه بالدعاء » حتى يمكن أن يبنَى الفعل على المجهول كما يقترح هو . إن هذه رطانة أعجمية، والقرآن لم ينزل برطانات المستشرقين . ثم كيف غفل هذا الإحصائى عن إحصاء الآيات التى تبتدئ بـ « مثلهـ(م) كمثل ...» ليرى بأم عينيه أن ذلك أسلوب قرآنى ؟ فالله سبحانه يقول مثلا فى هذه السورة في صفة المنافقين : ﴿مَثَلُهم كَمَثَلِ الذى استَوْقَد نارا ، فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم ، وتركهم فى ظلمات لا يبصرون * ... * أو كَصَيِّبٍ من السماء ... ﴾ [١٧ - ١٩] ، وبالطبع لم يقصد إلى تشبيههم هم أنفسهم بالصيّب (أى المطر) ، بل إنى لأرى أنه لم يقصد تشبيههم بالذى استوقد نارا، لأن الذى استوقد نارا (فيما أرى) هو الرسول عليه السلام، والذين ذهب الله بنورهم وحرمهم من الإبصار هم المنافقون . وعلى ذلك فلا حاجة للقول بالالتفات في الضمير « هم » فى « نورهم » . وفى هذه السورة أيضا يقول المولى جل شأنه : ﴿ مَثَل الذين ينفقون أموالَهم فى سبيل الله كَمَثَل حبّةٍ أنْبَتَتْ سَبْعَ سنابل ...﴾ [آية ٢٦١]، وليس معقولا أن يكون التشبيه معقودا بين « الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله » وبين « الحبة التى أنبتت سبع سنابل » ، بل هو معقود بين إنفاقهم وبين هذه الحبة المباركة . ومثل ذلك يقال فِي الآية الكريمة التالية [السورة نفسها ٢٥٦] : ﴿ ومَثَلُ الذين يُنفقون أموالهم ابتغاءَ مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جَنَةٍ بربوة أصابها وَابِلٌ فأتَتْ أُكُلَها ضعفين ... ﴾ ، وفى الآية المباركة الآتية : ﴿ مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثلَ ريح فيها صِرٌّ أصابت حَرْثَ قوم ظلموا أنفسهم فأهلَكته ... ﴾ [آل عمران ١١٧] ، إذ ليس المقصود هو تشبيه ما ينفقون فى الدنيا بالريح التى فيها صِرّ ، بل القول بأن ما ينفقونه هو الحرث الذى أهلكته هذه الريح، وهذه يقابلها كفرهم بالله ومحاربتهم لدينه ورسوله ... ، وهكذا مما لا يدخل فى طوق الإحصائيين ، فإن المسألة أوسع من مجرد الإحصاء الذى لا يحسن كثير من هؤلاء المستشرقين غيره . إنها مسألة الذوق الأدبى والبصر بتركيب الكلام البليغ .

إن كل اعتراضات بلاشير على أسلوب القرآن الكريم وتركيب جُمَله لتدلّ دلالة قاطعة علىِ أن فهمه وذوقه فى هذا المجال لم يتجاوزا المرحلة الأولية ، فهو يخطّئ كل عبارة لم يجرِ ترتيب الكلام فيها على العاديّ المألوف جدا الذى يأتى فيه مثلا الفعل أولا، وبعده فاعله ، ثم المفعول ، ثم المفعول المطلق... وهكذا . وإذا كان هناك حوار مثلا ثم قاطع أحد المتحاورين الآخر فلا بد أن يقال بصريح العبارة : « وقاطعه

قائلا : «...». فإذا جاء الأسلوب خاطفا أو تغير ترتيب الكلام لمقتضًى بلاغى ضرب البروفسور الفرنسى أخماسًا فى أسداس ، ثم عاد فاتهم القرآن بالخطإ. إنه مثلا لا يرى أية علاقة نحوية بين قوله تعالى : ﴿ ويعلِّمه الكتابَ والحكمةَ والتوراةَ والإنجيل ﴾ وما سبقه، وكان يريد أن يضعه بعد قوله سبحانه : ﴿ وجيها فى الدنيا والآخرة ، ومن المقرّبين ﴾ [آل عمران ٤٨ ، ٤٥ على الترتيب] لولا أن المشكلة ستظل قائمة هناك أيضًا . كذلك فهو يرى أن النص القرآنى الآتى : ﴿ ورسُولا إلى بنى إسرائيلَ : أنى قد جئْتُكم بآيةٍ من ربِّكم ... إلخ ﴾ [نفس السورة ٤٩] ينبغى تصحيحه بإضافة هذه العبارة : « J' ai été envoyé » فى أوله ليكون الكلام هكذا : « وقد بعثت رسولا إلى بنى إسرائيل : أنى قد جئتكم ... »، إذ هو يزعم أن السرد القصصى ابتداء من هذه الآية لا علاقة نحوية بينه وبين ما سبق (ص٨٢/هـ الآية ٤٣) . والحقيقة أن المسألة أبسط من هذا كله ، فالكلام ، إذا حصرنا أنفسنا فى الآيات التى أمامنا مباشرة ، يبدأ بمخاطبة الملائكة مريم قائلين : ﴿ إن اللهَ يبَشِّرك بكلمةٍ منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهًا فى الدّنيا والآخرة ، ومن المقرَّبين * ويكلّم الناسَ فى المَهْد وكهلا ومن الصالحين ﴾ [٤٠-٤٦]، وهنا لا تتمالك مريم نفسها فتقاطع الملائكةَ ضارعة إلى ربها مستفسرة فزعة : ﴿ قالت : ربِّ ، أنّى يكونُ لى ولدٌ ولم يمسَسْنى بشر؟ قال : كذلكِ اللهُ يَخلُقُ ما يشاء ! إذا قضى أمرا فإنما يقول له : كُنْ ! فيكون ﴾ . وبعد هذه المقاطعةَ من جانب مريم يعود كلام الملائكة فيتصل ثانية : ﴿ ويعلّمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل * ورسولا إلى بنى إسرائيل : أنى قد جئتكم بآية من ربكم ... ﴾ [٤٧-٤٩] . أظن أن الأمر قد أضحى واضحا وضوح الشمس الآن ، ويبقى أن نوجه تركيب الكلام فى الآيات نحويا : فأما قوله سبحانه : ﴿ قالت: ربِّ ، أنّى يكونُ لى ولد ... ؟ قال : كذلك الله يخلقُ من يشاء ... ﴾ فقد عرفنا أنه معترض فى سياق كلام الملائكة ، وإذن فقد بانت العلاقة النحوية بينه وبين ما سبقه وما تلاه ، أم ترى إيراد جملة اعتراضية أو أكثر خطأ نحويا عند سادتنا المستشرقين؟ وأما قوله تعالى : ﴿ ويعلِّمه الكتابَ والحكمة ... ﴾ فهو معطوف على مجموعة الأحوال التى تبدأ بقوله عز وجل : ﴿ وجيها فى الدنيا والآخرة ﴾ وتستمر هكذا : ﴿ ومن المقرّبين ﴾، ﴿ ويكلِّم الناسَ فى المَهْد وكَهْلا ﴾ ، ﴿ ومن الصالحين ﴾، ﴿ ويعلمه الكتاب والحكمة ﴾، ﴿ ورسولا إلى بنى إسرائيل ﴾، وهى كما ترى أحوال بعضها

مفرد، وبعضها جملةٌ فعلُها مضارع، وبعضها شبه جملة ، وصاحب هذه الأحوال جميعا هو المسيح . فأين المشكلة هنا إذن ؟ إن الأمر لا يحتاج إلى هذا السخف الذى أضافه بلاشير إلـى النص القرآنى ليصحح بزعمه ما فيه من خطإ ، فإن عبـارة « ورسولا إلـى بنى إسرائيل » ليست مـن كـلام المسيح عليه السلام بل من كلام الملائكة كما مرّ للتو بيانه ، وإنما يبدأ كلام المسيح بعيد ذلك بـ ﴿ أنى قد جئتكم بآيةٍ مـن ربكم ... إلـخ ﴾ علـى تقدير : « معلنا لقومه : أنى قد جئتكم ... » . وفى الكلام التفات ، إذ انتقل الضمير من الغائب إلى المتكلم كما لا يخفى ، وهى طريقة قرآنية تجد لها شبها فى طريقة الحوار فى قصص فرچينيا وولف وزملائها ومن يشايعهم على أسلوبهم فى كتابة القصة .

ومن جرأة هذا الرجلِ أيضا فى الهجوم على القرآن وتخطئته تأكيدُه أن عبـارة « من استطاع إليه سبيلا » قَلِقة فى موضعها من قوله تعالى : ﴿ ولِلّه على الناس حِجُّ البيتِ من استطاع إليه سبيلا ﴾ مع أنها ،كما هو واضح ، بدلٌ من النَاس ، فما وجه الاعتراض إذن ؟

وهو أيضًا يرى أن آية ﴿ولن تستطيعـوا أن تَعْدلـوا بين النّساء ولو حَرَصْتُم ...﴾ [النساء١٢٩] تقطع تسلسل الكلام المتصل بين الآية السابقة والأخرى اللاحقـة (ص١٢٤/ هـ الآية ١٢٨) ، مع أن الواقع خلاف ذلك، فإن قوله : ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم، فلا تميلوا كلَّ المَيل فتَذَرُوها كالمُعلّقة﴾ هو إشارة إلى إساءة أخرى من الإساءات التى قد تقع من الزوج نحو زوجته والتى ذكرت الآية السابقة اثنتين منهـا ، وهمـا النشوز والإعراض ، ثم تجىء آية ﴿ وإن يتفرقا يغْنِ اللهُ كُلاً مّن سعتِه ... ﴾ التالية معقبةً على جميع هذه الإساءات التى ربما لا يفلح معها الصلح الموصَى به فى الآيتين كلتيهما ، فيكون التفرق فى هذه الحالة أصلح من عشرة تقوم على التنكيد والإيلام . فالآيات الثلاث يقفو بعضها بعضا على غاية الإحكام والترابط .

ومن هذا الوادى كذلك نَفْيه وجود رابط نحوى بين آية ﴿ ورُسُلاً قد قَصَصْناهم عليك من قبل ، ورسلاً لم نَقْصُصْهم عليك . وكلّم الله موسى تكليمـا﴾ [النساء ١٦٤] والآية السابقة عليها : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوحٍ والنّبيّين من بَعْده ... ﴾ (انظر ص١٢٩/هـ الآية ١٦٢) مع أنها جارية على أسلوب الاشتغال ، فبدلا من « وقد قصصنا عليك رسلاً من قبل ... » جاءت الآية الكريمة على ما جاءت عليه .

ويمكن الرجوع إلى هذا التركيب فى باب «الاشتغال» . ويرى النحويون أن نصب الاسم المتقدم على فعل الاشتغال فى مثل هذا التركيب أرجح من رفعه لأن الجملة ، برغم بدئها باسمٍ ، معطوفة على جمل أخرى فعلية : ﴿ إنا أوحينا ... وأوحينا ... وآتينا (داود زبورا) ﴾ .

والغريب الشاذ أن بلاشير يرى فى تركيب العبارة التالية : ﴿ كونوا قوّامين لله شهداءَ بالقسْط ﴾ [المائدة / ٨] غرابة وشذوذا ، قائلا إنه كان يتوقع أن يستخدم ذات التركيب الموجود فى الآية ١٣٥ من سورة «النساء» : ﴿كونوا قوامين بالقسط شهداء لله﴾ ، إذ يستغرب أن « يشهد » إنسان ما « على » القسط (حيث يترجمها هكذا : « té-moins de l'équité ») (انظر ص١٣٤/هـ الآية ١١) ، وهو استغراب لا محل له ولا معنى ، فمنذا الذى يستطيع أن يفرض على غيره أن يستخدم عبارة سبق له استعمالها من غير أدنى تعديل فيها ؟ إن القرآن قد يكرر بين الحين والآخر عبارة استخدمها من قبل ، وعندئذ قد يوردها كما هى ، وقد يجرى عليها بعض التحوير ، وهذا شائع معروف ، فلماذا الاستغراب هنا ؟ وإذا كان القرآن قد قال فى سورة «النساء» : ﴿ كونوا قوّامين بالقسْط شُهَدَاءَ لله ﴾ ، فما الذى يمنع أن يعيد هذه العبارة فى سورة «المائدة» على هذا النَحوَ الجديد : ﴿ كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ﴾ ؟ إن القيام والشهادة ، كما تقول الآيتان ، ينبغى أن يكونا لله وأن يتمّا على أساس من القسط ، فعلام هذى الضجة الكبرى ؟ علاما؟ وربما كان الأجدى أن نتساءل عن السرّ فى ذلك . ويبدو لى ، والله أعلم، أن القسْط (وهو العدل) قد قُدِّم فى آية سورة «النساء» ليكون أقرب إلى ما سبق من تحذيرَ الله للمؤمنين من « عدم العدل » بين الزوجتين، بينما أُخِّر فى آية سورة «المائدة» لأن تحذير الله سبحانه للمؤمنين من «الجور» عن «القسط» فى التعامل مع الأعداء قد تلا الآية ولم يسبقها ، فأُخِّر ذكر القسط ليكون قريبا من ذلك .

ومستشرقنا يجهد كل الجهد فى التهجم على القرآن والتشكيك فى تاريخه . انظر كيف يتهم الآية الكريمة التالية : ﴿ ومِنهم من يستمع إليك ، وجعلنا على قلوبهم أكنّة أن يَفقَهوه ... ﴾ [الأنعام ٢٠] بأنها ، فيما يبدو ، قد خضعت للتنقيح . ودليله علَى ذلك أنها تختلف عن سابقاتها أسلوبيا (ص١٥٤/ هـ الآية ١٢٥) . ولا بد لى من الاعتراف بأنى لا أدرى أى اختلاف أسلوبى هذا الذى يتحدث عنه ، وكيف عرف هو أن ها هنا اختلافا فى بناء الكلام إن كان ؟ أيقصد أن الآية أطول مما سبقها من آيات ؟

لكن الآية السادسة من السورة نفسها أطول منها ، وأطول منها أيضا الآية التاسعة عشرة . لقد سبق إلى ذهني أنه ربما قصد اختلاف طول الآيات ، فهذا هو قصارى جهده فى فهم الاختلاف الأسلوبى. ولنسلم له أن ها هنا اختلافا فى منحى الأسلوب ، فهل هذا دليل على أن الآية ربما أعيدت صياغتها ؟ ومن ذا الذى قام بالتنقيح يا ترى ؟ آلرسول، الذى يحاول هذا المستشرق أن يوهم بأنه هو مؤلف القرآن ؟ أم الصحابة ؟ أم التابعون ؟ أم تابعو التابعين ؟ فليكن المنقح من يكون ، فالمهم أين الدليل ؟ وإذا كان القرآن قد مرّ بعمليات تنقيح كما يدعى هذا المستشرق فى أكثر من مناسبة ، فلماذا يا ترى لا يزال يحوى كل هذا الكم من الأخطاء النحوية والأسلوبية التى يأخذها عليه ؟

وهو يعترض علي قول المفسرين إن الضمير « هم » فى « يحشرهم » من قوله تعالي : ﴿ ويوم يحشرهم جميعا : يا معشر الجنّ ، قد استكثرتم من الإنس ، وقال أولياؤهم من الإنس : ربّنا ، استمتع بعضنا ببعض ... ﴾ [الأنعام١٢٨] يعود على الجن والإنسن ، قائلا إنه إذا صح هذا يصبح الكلام بغير رابط حقيقى يربطه بما قبله (ص١٦٧/هـ الآية ١٢٨) . ولنا هنا سؤالان : فأما أولهما فهو : إذا لم يكن المقصود بهذا الضمير هو معشر الجن والإنس ، فمن المقصود إذن ؟ وهل ثمة فى الآية إلا الجن والإنس يحشرون ؟ وكيف عمي هذا الرجل عن الحوار فى الآية بين الله سبحانه وبين الجن والإنس ، وذلك عقيب قوله : ﴿ ويوم نحشرهم جميعًا ﴾ مما يدل على أن الحشر إنما ينصب على هذين الفريقين ؟ أما السؤال الثانى فهو : ألا تدور الآيات السابقة (من أوله قوله تعالى : ﴿ وجعلوا لله شركاء الجنّ ... ﴾ [١٠٠] مرورا بقوله: ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبىّ عدوًا شياطين الإنس والجنّ ... ﴾ [١١٢] ، وقوله : ﴿ وإنّ الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ... ﴾[١٢١]) علي أن ما يربط شياطين الجن وشياطين الإنس فى الدنيا من عناد وكفران لن ينفعهم شروى نقير يوم القيامة ، يوم يحشرون إلى ربهم فيبكّتهم ويحاسبهم ويأمر بهم فيقذفون فى قرارة الجحيم كما تبين الآية موضع البحث ؟

وهذه الجرأة فى تقطيع أوصال النص القرآنى نجدها فى فصله للآيات التى تبدأ بقوله سبحانه : ﴿ قل : تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم ... ﴾ [الأنعام١٥١] عما قبلها، إذ يضع لها عنوانا جانبيا هو « وصايا للمؤمنين » (ص١٧١) ، مع أن الكلام ما زال موجها إلى المشركين الذين حرّموا ما لم يحرّمه الله وأحلوا ما حرّمه ، فقتلوا أولادهم ،

وحرّموا ظهور بعض الأنعام ولحوم بعضها الآخر على الإناث ... ثم هم بعد ذلك كله يتبجّحون قائلين: ﴿ لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرّمنا من شيء ﴾ [١٤٨]، فيقرعهم الله بقوله: ﴿ قل : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ ﴾ [١٤٩] ويتحداهم أن يأتوا بأى إنسان يشهد أن الله حرم هذا [١٥٠]، وهنا نسمع صوت الحق عز وجل صادعا : ﴿ قل : تعالَوا أتل ما حرم ربكم عليكم : ... ﴾ [١٥١]، فهل يقال بعد ذلك كله إن الكلام هنا موجه للمؤمنين على أساس أنه وصايا لهم ؟ ثم بعد أن ينتهى تعداد ما حرم الله يبين سبحانه أن القرآن فى هذه الأوامر والنواهى ليس بدعا ، فها هو ذا موسى قد أوتِىَ كتابا فيه تفصيل كل شيء ، وأن هذه التحريمات والوصايا قد وردت فى التوراة ، ثم يعقب عز وجل قائلا : ﴿ وهذا كتاب مبارك ، فاتّبعوه واتّقوا لعلكم ترحمون * أن تقولوا : إنما أُنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا، وإن كنّا عن دراستهم لغافلين * أو تقولوا : لو أنّا أُنزل علينا الكتاب لكنّا أهدى منهم ﴾ [١٥٥ ـ ١٥٧]. فهذا وما بعده يدل على أن الكلام هنا موجّه إلى المشركين ، ويؤكده أيضًا ما يتلو ذلك من تهديد فى قول رب العزة : ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك ؟ يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا . قل : انتظروا ، إنا منتظرون ﴾ (١٥٨). فتأمل كيف أن هذا المستشرق بعد ذلك كله يعمى عن اتجاه الكلام ولا يدرى لمن يساق .

إننى مضطر إلى القفز فوق كثير من الادعاءات البلاشيرية ، وإلا فلن أفرغ . والآن إلى أواخر سورة « الأعراف » حيث يزعم أن آية ﴿وإذا قيل لهم: اسكنوا هذه القرية ، وكلوا منها حيث شئتم رغدًا ... ﴾(١٦١) لا ترتبط نحويا بشيء ، وإنما هى إعادة للآية ٥٨ من سورة «البقرة» (ص١٩٥/هـ الآية١٦١) مع أن الآية فى هذا الموضع هى حلقة فى سلسلة التذكيرات التى بدأها الله سبحانه بقوله : ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يُستضعفون مشارق الأرض ومغاربها ... ﴾ [١٣٧] والتى يمن فيها سبحانه عليهم بما غمرهم به من نعم وينبههم إلى ما ارتكبوه من معاصٍ برغم تتالى النذر والعقوبات . وقد مرّ استعمال « إذ » قبل ذلك مرتين : فى قوله تعالى : ﴿ وإذ أنجيناكم من آل فرعون ...﴾ [١٤١]، وفى قوله سبحانه : ﴿ وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر ... ﴾ [١٦٠]، ووردت أيضًا عدة مرات بعد ذلك فى قوله عز وجل : ﴿ وإذ قالت أمّة منهم: لم تعظون قوما ...؟﴾ [١٦٤]، وفى قوله : ﴿ وإذ تأذن ربك

لَيَبْعَثَنَّ عليهم إلى يوم القيامة ... ﴾ [١٦٧]، وفى قوله : ﴿ وإذ نَتَقْنا الجَبَلَ فوقهم كأنه ظلة ... ﴾[١٧١] ، ثم فى قوله : ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ... ﴾ [١٧٢]، وإن كان الكلام فى الآية الأخيرة عن بنى آدم بعامة، وليس عن بنى إسرائيل وحدهم . وأظن أنه بعد كل هذا التوضيح قد بدا عوار مزعم بلاشير .

ومن بين سقطاته الكثيرة فى اتهامه لهذه الآية أو تلك من سورة «الأنفال» بأنها لا ترتبط نحويا بما قبلها نختار هذه السقطة : إنه يدعى أن قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، إذا لَقِيتم فئةً فاثبتوا ... * وأطيعوا اللّهَ ورسولَه ، ولا تنازَعوا فتفشَلوا ... ﴾ [الأنفال٤٥ـ٤٦] لا يرتبط نحويا بما قبله (ص٢٠٧/هـ الآية ٤٧) . ومرة أخرى لا أدرى ماذا يقصد بقوله هذا. أهو يشير إلى انتقال الأسلوب من الخبر فى الآيات السابقة إلى الإنشاء فى هاتين الآيتين ؟ وهل مثل هذا الانتقال يسوّغ اتهام الآيتين بأنهما لا ترتبطان نحويا بما قبلهما ؟ إن الآيتين امتداد للآيات السابقة التي يبين فيها سبحانه للمؤمنين أنه قد جمعهم والمشركين على غير ميعاد ، وإلا ما التقوا ، وجعل النبى يرى عدد المشركين فى منامه قليلا حتى لا يفشل المؤمنون ويتنازعوا فى الأمر . فإذا جاءت آيتانا هاتان وحضتا المؤمنين على الثبات فى قتال القوم وحذرتاهم من التنازع والفشل حتى لا تذهب ريحهم ، أفيصح أن يقال حينئذ إنهما لا ترتبطان نحويا بما قبلهما ؟ كيف ذلك ؟

ومن « الأنفال » إلى « يونس » حيث نتوقف عند محاولة بلاشير العثور على الاسم الظاهر الذى يعود عليه الضمير فى « جَرَيْنَ » من قوله تعالى : ﴿حتى إذا كنتم فى الفُلْكِ ، وجرين بهم ... ﴾ [يونس٢٢)] وكأنها مشكلة المشاكل ، فهو يرى أنه لا بد من إضافة عبارة « هذه السفن : ces bateaux » قبل قوله : « جرين بهم » لتجد نون النسوة فى « جَرَيْنَ » ما تعود عليه (انظر ص٢٣٤/هـ الآيتين ٢٢ ـ ٢٣ أ ، ب). وسر اضطرابه وعجزه هنا ، وإن ظن أنه قد أتى بالذئب من ذيله ، هو فَهْمُه لعبارة ﴿حتى إذا كنتم فى الفُلْك﴾ بمعنى « إلى أن تكونوا فى الفلك » ، ووَهْمُه أن الجملة تنتهى هنا، وعدم استطاعته أن يدرك أن « الفُلْك » هنا جمع لا مفرد . فلو أنه لم يَسْقُط هذه السقطة الفاحشة حين وهم أن الجملة تنتهى بقوله : «حتى إذا كنتم فى الفُلْك » ،

ولو أنه لم يعاند المفسرين الذين شرحوا «الفُلْك» بأنها « السفن » لما أقحم نفسه فى هذا المأزق .

ومن أول « يونس » إلى نهايتها ، فماذا نجد ؟ إنه يرى أن آية ﴿ ثم نُنَجّى رُسُلَنا والذين آمنوا . كذلك حقًّا علينا نُنْجِى المؤمنين ﴾ [١٠٣] لا ترتبط بما قبلها لا من ناحية المعنى ولا من ناحية تركيب الكلام . وكالعادة يتركنا من غير أن يوضح ماذا يقصد بعدم ارتباطها بما قبلها من جهة تركيب الكلام (ص٢٤٤/هـ الآية ١٠٣) . أيقصد أن الآيتين السابقتين عليها تقومان على جمل إنشائية : استفهاما وأمرا ، بينما هى مكونة من جملتين خبريتين ؟ لكن هل هذا مسوغ لمثل هذا الحكم؟

إن جودة الأسلوب قد تقتضى التنويع بين الخبر والإنشاء بألوانهما المختلفة، أما من ناحية المعنى فإن الله سبحانه ، بعد أن هدد الكفار المعاندين بأنهم إن لم يسارِعوا إلى الإيمان فإن عذابا رهيبا ينتظرهم ، يعقِّب على ذلك بأنه حينئذ سوف ينجى رسله وأولياءه ، وهو معنى شديد الوضوح .

ولأن كثيرا من اعتراضات ذلك المستشرق لا جديد فيها ، ومن ثم فإن الرد عليها سيكون مجرد تكرير لما فات ، فإننا نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نقفز فوق عدد من السور حتى نصل إلى الآية العاشرة من سورة « الحج » حيث نجده يستعرض ذكاءه فى ضبط بعض « الجرائيم الأسلوبية » وهى تنتقل بالعدوى من سورة « آل عمران » [الآية١٨٢] إلى سورة «الحج» مما جعل الرسول ، الذى هو طبعا مؤلف القرآن فى زعم بلاشير وأمثاله، بدلا من أن يقول بعد ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ...* له فى الدنيا خزى، ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ﴾ [٨ ـ ٩] : ﴿ ذلك بما قدمت أيديهم ... ﴾، يقول : ﴿ ذلك بما قدمت يداك ... ﴾ (انظر ص ٣٥٨/هـ الآية ١٠) . وهذا السخف يوجب علينا أن نتريث هنا قليلا ، فقد ترجم بلاشير ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير ... ﴾ بحيث تكون : « ومن الناس من يعبدون الله على حرف، فإن أصابهم خير ... إلخ » مما جعله يقول : « ذلك بما قدمت أيديهم » كما لا بد أن القارئ قد لاحظ . ثم إنه لا يقدر على التفرقة بين هذا الكلام العادى وبين أسلوبٍ تتحول المسألة به من خبر يُحكَى إلى موقف يحدث تحت أبصارنا فى اللحظة الراهنة فندركه مباشرة بدلا من أن تتم معرفتنا به عن طريق الرواية . وقد سبق أن أشرت إلى أن هذا الأسلوب يجرى عليه كثير من كتاب القصة فى العصر الحديث بعد أن مهده لهم

قصاصو تيار الوعى . ثم إن هذا الأسلوب قد استُخْدِم فى هذه السورة مرة أخرى ، وقد كان المتوقع أن يعلق بلاشير عليه ، لكنه لم ينبس ببنت شفة (انظر ترجمته للآية ٢٢ من هذه السورة) .

ولست بحاجة إلى أن أورد أمثلة أخرى لأبرهن على أن هذا أسلوب قرآنى أصيل لا مسألة عدوى كما يقول ! والملاحظ أن عبارة سورة «الحج» هي : ﴿ ذلك بما قدّمت يداك ﴾ ، أما عبارة « آل عمران » فهى : ﴿ ذلك بما قدّمت أيديكم ﴾ ، أى أن الضمير هناك مفرد ، وهنا جمع ، ولكن بلاشير ، فيما يبدو ، يشير إلى انتقال الضمير فى الحالتين من الغيبة إلى الخطاب .

وهو يتابع باريت فى أنه ينبغى تصحيح قوله تعالى « للّه » فى ﴿ قل : مَنْ ربُّ السماوات السبع وربُّ العرشِ العظيم؟* سيقولون : لله . قلْ : أفلا تتقون ؟ * قل : من بيده ملكوت كلّ شىءٍ ، وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ * سيقولون: للّه ... إلخ ﴾ [المؤمنون٨٤ ـ ٨٩] بحذف اللام منها (ص٣٧٣/هـ الآية ٨٩) ليكون الكلام هكذا : ﴿ قل : من رب السماوات ... ؟ * سيقولون : الله ... * قل : من بيده ملكوت كل شىء ...؟* سيقولون : الله ... إلخ ﴾ . والحقيقة أن ثمة قراءة بهذا، وإن كنت لا أعرف مدى صحتها ، بيد أن الصياغة الحالية ، فيما أرى ، تشتمل على نكتة لطيفة لا تستطيع القراءة الأخرى اقتناصها ، وهى أن الله سبحانه ربما أراد الإشارة إلى أن المشركين لا يشاحّون فى وجوده ، ولذلك سوف يعدلون فى إجابتهم عن قولهم: « الله » ، الذى يوحى بأنهم كان يمكنهم إنكار وجوده ، إلى قولهم : « لله » ، الذى يوحى بأنه موجود وأن الأمر الذى ينحصر فيه السؤال هو : أهذه السماوات والأرض والملكوت ... له أم لغيره ؟ مرة أخرى : فكأن صيغة السؤالين الثانى والثالث يراد بها إحراجهم بمحاولة استدراجهم إلى إنكار وجود الله ، الذى لا ينكرونه أصلا ، فيقعون حينئذ فى التناقض . وكأنهم تنبهوا إلى هذا فلم يجيبوا عليه بل قالوا : « وهل هناك شك فى وجوده ؟ إن هذه السماوات والعرش والملكوت ... كل ذلك لله» . والذى أوحى لى بهذا أن القرآن ينصّ على أنهم لم يكونوا ينكرون وجود الله عز وجل ، فهم يقولون عن الأصنام : ﴿ ما نعبدهم إلا ليقرّبونا إلى الله زُلْفَى ﴾ [الزمر٣] ، والله سبحانه يقول لرسوله عليه أزكى الصلاة والسلام: ﴿ ولئن سألتَهم : من خلَقَ السماوات والأرض وسخّر الشمسَ والقمرَ ؟ ليقولُنّ : الله ﴾ [العنكبوت٦١] . ولنفترض أن هذا التوجيه

غير صحيح ، فإن الآية لن تحتاج إلى أى تصحيح عندئذ ، إذ ليس شرطا أن تأتى الإجابة دائما على ما نتوقـع ، فإنَّ « سيقولون : لله » الأولَى معناها : « سيقولون: إن السماوات السبع والعرش للـه »، ومثلها « سيقولون: لله » ، الثانية كما لا بد أن القارئ الكريم قد حَزر من خلال التوجيه السابـق . وتكـون الإجابة على هذا النحو قد قُصِدَتْ قصدا لإضفاء جدة على الكلام ولَفت الانتباه .

وأحب أن أقف هنا لحظة لأبوح للقارئ بأنى ، رغم ضيقى الشديد بمزاعم كثير من المستشرقين فى كتاباتهم عن لغتنا وآدابنا وديننا ، أجد متعة لا تُحَدّ ولا توصف فى قراءة كتاباتهم ، إذ تفتح لنا أبوابا فى فهم تراثنا اللغوى والأدبى والدينى، وتطلعنا على أشياء فيه لولا هى ما كنّا لنفكر فيها. خذ مثلاً قوله تعالي : ﴿ والذين كفروا أعمالُهم كَسَرابٍ بِقيعةٍ يحسبه الظمآنُ ماءً ... * أو كظُلُمات فى بَحْرٍ لُجِّيٍّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب . ظلماتٌ بعضها فوق بعض . إذا أخرج يده لم يكَد يراها. ومن لم يجعل الله له نورا فما لَهُ من نور ﴾ [النور/ ٣٩ ـ ٤٠] . إن بلاشير يرى فى عدم وجود اسم ظاهر يعود عليه الضمير فى « أخرج يده » مشكلة متعذرة الحلّ (ص٣٨٢/هـ الآية ٤١) . وإنى لأسأل القراء ممن قرأوا هذه الآية عشرات المرات بل مئاتها : أوَقَدْ لاحظ أى منهم أن الآية ينقصها شيء، أى شيء ؟ لقد كان الضمير يرجع فى ذهنى تلقائيا إلى شخص ألقت به الأقدار فى قلب هذه الظلمات المتراكبة ، حتى وصلت إلى ترجمة بلاشير لهذه الآية واعتراضه على تركيبها . وقد خالجنى أن أهمل مناقشة هذا الاعتراض لأنى لم أجد له معنى سوى أن صاحبه أعجمى ، وفضلا عن ذلك فهو مدخول النية ينّكش عن أى شيء يستطيع أن يسميه خطأ بمنكاش . ثم إنه ليس من خطتى مناقشة كل مزاعم هذا المستشرق وأمثاله . إلا أن هاتفا هتف لى من داخل نفسى أن أعدْ قراءة الآيات ، وإذا بتعليل ينقدح فى ذهنى فيما يشبه الإلهام بأن الله سبحانه وتعالى ربما قصد من حذف الاسم الظاهر الذى كان يمكن أن يعود عليه الضمير فى قوله : ﴿ إذا أخْرَجَ يده ﴾ إلى الإيحاء بمدى تكاثف هذه الظلمات حتى إننا نحن الذين نشاهد هذا المنظر لا نستطيع أن نبصر فيه شخص ذلك الذى قذفت به يد المقادير فى وسط هذا الهول الحالك ، ومن ثم فإن الله عز وجل قد ضرب عن ذكره صفحا ، اللهم إلا حين تناول الموقف من وجهة ذلك الشخص نفسه عندما أحسّ بيده حين أخرجها ، إذ ليست الظلمات المتراكبة بمانعة من ذاك ، ولكنه مع هذا لم يستطع

أن يراهـا : ﴿ إذا أخرجَ يَدَهُ لم يكَدْ يراها ﴾ ، فعند ذلك استعمل الضمير الذى تركنَا حيث نحن نتساءل : ومن يكون ذاك ؟ ومن الذى ألقى به هناك ؟

وكعادتنا فى إهمال كثير من هراء هذا المستشرق وغيره نَضْرب صفحا عن مناقشة ما ورد بعد ذلك من تخطئات تدل على الجهلِ الفاحش ، إلى أنَ نبلغ ملاحظته الغريبة عن عدم ارتباط قوله تعالى : ﴿ وإنه لتنزيل ربِّ العالمين * نزل به الرُّوحُ الأمينُ * على قلبك لتكون مـن المُنْذرين * ... إلخ ﴾ [الشعراء ١٩٢ وما بعدها] بما قبله من جهة النحو ومن جهة المعنى (ص ٤٠٢/هـ الآية ١٩٢) . والحق أننى لا أدرى كيف غفل عن أن هذه الآيات مع مقدمة السورة يكوّنان ، بالنسبة لموضوع السورة ، ما يشبه الصَّدَفتين . وحتى يتضح مقصدى من هذا الكلام أقول إن أول السورة يتحدث عن عناد المشركين وتكذيبهم واستهزائهم بما ينزّله الله على نبيّه ، ثم تمضى السورة فتهددهم بوبيل العاقبة وتذكّرهم بما وقع لأمثالهم من الأمم المكذبة السابقة ، حتى إذا فرغت من ذلك عادت لتتحدث عن القرآن وأنه ﴿ تنزيلُ ربِّ العالمين * نزل به الرُّوحُ الأمين * ... ﴾ ، وكأن تلك المقدمة وهذه الخاتمة هما القشرتان اللتان تنضمان انضمامًا لطيفا ومُحْكَمًا فى ذات الوقت على ما بداخلهما . فالهاء إذن فى ﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين ﴾ تعود على ما ساقته هذه السورة من قصص المكذبين الهالكين ، وهو ما عبّرت عنه مقدمة السورة فى هذه الآيات : ﴿ تلك آياتُ الكتابِ المبين *... * وما يأتيهم من ذِكْرٍ من الرحمن مُحْدَثٍ إلا كانوا عنه مُعرِضين * فقد كذَّبوا ، فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ﴾ [٢-٦] .

ويشبه هذا إلى حد بعيد قول رب العزة : ﴿ وما علمناه الشِّعْرَ ، وما ينبغى له . إن هو إلا ذِكْرٌ وقرآن مبين * لِيُنْذِرَ مَنْ كان حيًا ويحقَّ القولُ على الكافرين ﴾ [يس ٦٩ - ٧٠] الذى يتهمه بلاشير بأنه لا علاقة له بما قبله (ص ٤٧٣/هـ الآية ٦٩) ، مع أن هذه العلاقة واضحة لمن كانت له عينان. وأرجو من القارئ الكريم أن يرجع إلى فاتحة السورة ليرى أنها تشبه مقدمة سورة « الشعراء » ، حتى إذا بلغت السورة منتهاها أراد الله سبحانه أن يعْذِر من نفسه بأن قال ما مُفَاده أن ما ينذركم به عبدى ورسولى، وما يذكركم به من نعمى ، وما يصوره مما ادخرته لعبادى الصالحين من أطايب جنتى إنما هو الجِدّ كلّ الجِدّ ، وليس تهاويل شاعر .

وقد يتساءل القارئ المسلم بعد ذلك كله : ولماذا يمضى بلاشير فى تخطئاته

الجاهلة للقرآن الكريم بهذه الثقة ؟ والسبب باختصار هو أنه يهدف من وراء الإلحاح على أن بالقرآن أخطاء لغوية وأسلوبية إلى إثارة البلبلة والشك بين المسلمين وصدّ غير المسلمين عن دين الله اعتمادا على أن للتكرار قوة إيحائية لا يَسلَم منها عادة إلا ذوو النفوس الصلبة الراسخة فى العلم واليقين ، وإلاّ فما الذى يريده مثلا من إثارة هذه الضجة الكذابة حول منعوت « بشيرا ونذيرا » فى قوله تعالى : ﴿ حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فُصِّلَتْ آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون * بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم ، فهم لا يسمعون ﴾ [فصلت ١ ـ ٤] : ما هو ؟ رغم أن الجواب واضح شديد الوضوح ، إذ المنعوت هو « قرآنا » ، وكذلك من إصراره على أن « بشيرا » ، على الأقل ، لا يمكن أن يوصف بها إلا إنسان ، وهذا الإنسان هو محمد ، إلا أن يكون قصده من وراء ذلك هو الإجلاب على القرآن ، إذ ما دام المنعوت محذوفا فمعنى هذا أن ها هنا سقطا ، وأن القرآن من ثم قد نقص منه أشياء ؟ ترى من أين لبلاشير أن الصفة « بشيرا » لا يمكن أن يوصف بها شىء بل إنسان ؟ أو قد اتخذ عند لغتنا عهدا ألا يوصف إلا إنسان بأنه « بشير » فلن تخلف هذه اللغة عهده أم ماذا ؟ فما رأيه إذن فى قوله تعالى : ﴿ إن هذا القرآنَ يَهْدى للتى هى أقْوَم ، ويبشّر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ﴾ [الإسراء ٩] ؟ أولا يجوز أيضا إسناد الفعل « يبشّر » إلى القرآن ؟ وما رأيه كذلك فى قوله سبحانه : ﴿ ومن آياته أن يُرسِلَ الرياحَ مبشَّرات ﴾ [الروم ٤٦] ؟ أولا يصح أن يقال عن الرياح إنها « مبشرات » ؟ وما الفرق بين أن يقال عن الشىء إنه « بشير » أو إنه « يبشر » أو إنه « مبشّر » ؟

ومن هذه الاتهامات أيضا تجويزه أن يكون قوله تعالى : ﴿لكلّ أوّابٍ حفيظ﴾ [ق٣١] وكذلك قوله : ﴿ من خَشِىَ الرحمن بالغيب ، وجاء بقلبٍ منيب ﴾ [نفس السورة ٣٢] قد انتقلا من موضعيها الأصليين ، وادعاؤه أن كلا منهما لا يرتبط نحويا بما قبله (ص ٥٥٢/هـ الآية ٣١) . ولقد رجعت إلى بعض كتب التفسير فوجدتها لم تقصّر فى توجيه هاتين العبارتين نحويا بما يلقى ضوءا باهرا عليهما . ومع ذلك فإنى أستطيع أن أضيف توجيها نحويا آخر يظهر من كتابتى للآيات على النحو التالى : ﴿وأزلفت الجنة للمتقين غيرَ بعيد * هذا ما توعدون ، (وهو مدّخر) لكلّ أوابٍ حفيظ * (أقصد) من خَشِىَ الرحمن بالغَيْب وجاء بقلب منيب ﴾، فهذه هى الطريقة العادية لربط الآيات ، أما على النحو الذى وردت به فى القرآن فإن روابط الجمل

محذوفة . وهكذا الأسلوب القرآنيِ فِي معظم الحالات ، ويمكن تقريب صورته فى نفسى بالإشارة إلى الطريقة التى بنيت بها الأهرامات المصرية ، إذ المعروف أن أحجاره ، برغم عدم وجود مادة بينها لاصقة كالأسمنت مثلا ، ملتحمة أشد الالتحام . وها هى ذى القرون المتطاولة قد مرت عليها ولم تنل منها منالا . فالقرآن لا يعرف عادةً ما نلجأ إليه لنربط به جملنا وفقراتنا من مثل : « فمن ناحية ... ، ومن ناحية أخرى ... » أو «إلى هنا وكفى ، والآن ننتقل إلى النقطة التالية ... » أو « أقصد أن أقول ... » أو « قال فلان : ... ، فرد عليه علان صائحا : ... ، فما كان من ذلك إلا أن قاطعه قائلا : ...» ... إلخ ، إلخ . إن آيات القرآن لتشبه كُتَلاً جرانيتية منحوتة مصقولة ما إن توضع الواحدة منها فوق الأخرى أو بجانبها حتى تتماسكا بقدرة إلهية أشد ما يكون التماسك .

وبلاشير لا يقتنع بما قاله المفسرون ، وهو الصواب الذى لا صواب غيره، من أن التثنية فى سورة « الرحمن » فى قوله تعالى : ﴿ فبأىِّ آلاءِ ربِّكما تُكذِّبان ؟ ﴾ إنما هى للدلالة على جنس الإنس والجان ، زاعما أن الأبسط منَ ذلك أن يقال إنها للتكثير حسبما هو معروف فى الأسلوب العربى القديم ، وبخاصة فى الشعر (ص ٥٦٨هـ/ الآية ١٢) . والذى أريد أن أبادر بذكره هنا هو أن الشعراء لم يستعملوا فى الخطاب التثنية وحدها بل استعملوا المفرد أيضاً والجمع . وها هو ذا امرؤ القيس فِي معلقته التى يوجّه الكلام فى أولها لصاحبين له حقيقيين أو متوهمين قائلا : « قفَا نبْكِ من ذكرى حبيب ومنزل » يقول فِي أواخر هذه المعلقة ذاتها موجها الحديث إلى صاحب واحد هذه المرة : « أصَاحِ ، ترَى برْقًا ... » ، وها هو ذا طرفة ، وهو شاعر جاهلى أيضا ومن أصحاب المعلقات ، لا يذكر صاحبا واحدا ولا صاحبين بل جماعة من صحبه ، إذ يقول :

وُقوفًا بها صَحْبى علىّ مَطِيَّهم   يقولون : لا تَهْلِكْ أسًى وتجلَّدِ

فهذا هو الرد على بلاشير . إن فى سورة « الرحمن » ، قبلِ مجيء ذكر الإنس والجن، خطابين بضمير الجمع : ﴿ وأقيموا الوزنَ بالقسْط ، ولا تخسروا الميزان ﴾ لأن الكلام كان موجها لجماعة الخلائق المكلفة من غير تفصيل ، فلما ابتدأ التفصيل بقوله تعالى: ﴿ خلَق الإنسان من صلصالٍ كالفخار * وخلق الجانَّ من مارجٍ من نار ﴾ [١٤ ـ ١٥] واكبه الخطاب بضمير المثنى للإنسان والجان . فهذا هو التوجيه الواضح الصحيح .

وهو كعادته يجزم بأن قوله تعالى : ﴿ والذين جاؤوا من بعدهم يقولون : ربنا ، اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ... ﴾ [الحشر ١٠] لا يرتبط نحويا بما قبله (ص ٥٨٧/ هـ الآية ١٠) . وسواء أكانت هذه الآية قد نزلت مع ما سبقها دفعة واحدة أم نزلت بعد ذلك كما يدعى هو فإن الآية مرتبطة بما قبلها ارتباطا وثيقا . ولكن علينا أولا أن نراها فى سياقها حتى يكون الكلام على أساس بيّن . يقول الله تعالى فى فىء بنى النضير كيفية توزيعه : ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم. وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا . واتقوا الله ، إن الله شديد العقاب * للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله . أولئك هم الصادقون * والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون * والذين جاؤوا من بعدهم يقولون: ربنا ، اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا . ربنا ، إنك رءوف رحيم ﴾ [الحشر ٧ ـ ١٠] . وقد قرأت للمفسرين فى إعراب الأسماء التى تبتدئ بها الآيات الثلاث الأخيرة أن قولـه : « للفقـراء المهاجرين» بدل من « لذى القـربى » ، وأن « الذين تبوأوا الدار والإيمان » و « الذين جاؤوا من بعدهم » معطوفـان علـى «الفقراء المهاجرين» . بيد أن هذا التوجيه يستلزم أن يكون لـ« الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم » ، وهم الأنصار ، حق فى هذا الفىء ، وهو خلاف الواقع التاريخى الذى نعرفه . كما أن هناك إعرابا آخر لـ « الذين تبوأوا الدار والإيمان » و « الذين جاؤوا من بعدهم » هـو أن كلا منهمـا مبتدأ ، وخبر الأول جملة « يحبون من هاجر إليهم ...» ، وخبر الثانى جملة «يقولون : ربنا ، اغفر لنا ولإخواننا ...» ، وهو توجيه لا بأس به . وإنى أرى أن من الممكن أيضا إعراب «الذين تبوأوا الدار» و « الذين جاؤوا من بعدهم » على أساس أنهمـا معطوفان على « أولئك » فى قوله تعالى : «أولئك هم الصادقـون » ، وتكـون جملتـا « يحبون من هاجر إليهم ... » و « يقولون : ربنا ، ... » حالين من اسمى الموصول السالفى الذكر . المهم أن زعم بلاشير بأن قوله تعالى : ﴿ والذين جاؤوا من بعدهم ﴾ غير مرتبط نحويا بما قبله هو زعم فاسد يدل على عجز عن تتبع خيط الكلام برغم وضوحه التام لكل ذى بصر .

ثم نأتى إلى هذا المثال الأخير الذى يؤكد فيه مستشرقنا أن قوله سبحانه : ﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربُّه فأكرمه ونعَّمه فيقول : ربى أكْرَمَنِ *... ﴾ وما بعده [الفجر ١٥ وما بعدها) لا يرتبط بما قبله . والحقيقة أن هذه هى نتيجة النظرة العجلى . إن السورة تلوّح لأهل مكة وأمثالهم بمصاير الأمم السابقة التى كانت أقوى منهم وأغنى ثروةً وأكثر جندا ، وتوحى لهم بأن مثل هذا المصير ينتظرهم لأنهم مثلَهم كفروا بالله واليوم الآخر وتهافتوا على الدنيا والمال ، فالكرامة عندهم لمن كان ذا غنى ، والهوان لمن حرمه. وهم فى غمرة ذلك لا يبالون بأية قيمة روحية أو إنسانية ، ولا يرق لهم قلب لفقير أو مسكين . ولا يفوتنى أن أشير ثانية إلى أن الآيات القرآنية مرتبط بعضها ببعض ارتباطا محكما ، وإن قلّت أو عدمت أدوات الربط بينها ، وهو المشاهد هنا .

على أن جرأة بلاشير الجاهلة الحمقاء لا تقف عند هذا الحدّ ، بل نراه يقحم على سورة « النجم » العبارتين المشهورتين اللتين تقول بعض الروايات إن الشيطان قد نطق بهما عندما كان النبى عليه الصلاة والسلام يتلو قوله تعالى من هذه السورة : ﴿أفرأيتم اللات والعزّى * ومناة الثالثة الأخرى ؟﴾ [الآيتان ١٩ ـ ٢٠] ، إذ أضاف ذلك المستشرق الوقح عندئذ تينك العبارتين: « إنهن الغرانيق العلا * وإن شفاعتهن لترتجَى » على أنهما الآية العشرون مكررةً مرة ثانية وثالثة (ص٥٦١) ، غير مكلف نفسه بأن يوضح فى الهامش السبب الذى حداه إلى هذا الصنيع الشيطانى الذى أقل ما يوصف به أنه خيانة علمية وأخلاقية وإساءة أدب وذوق ، حيث أضاف إلى النص القرآنى ما ليس فيه . ولقد بينّا فى كتبنا : « مصدر القرآن ـ دراسة لشبهات المستشرقين والمبشّرين حول الوحى المحمدى » و « ماذا بعد إعلان سلمان رشدى توبته ؟ دراسة فنية وموضوعية للآيات الشيطانية » و « دائرة المعارف الإسلامية ـ أضاليل وأباطيل » كيف يستحيل أن تكون هاتان العبارتان جزءاً من القرآن ، وبخاصة من الناحية الأسلوبية ، فليرجع القارئ إليها مشكوراً .

الفصل الرابع

(ترجمة أبو بكر حمزة (*))

المفهوم أن الترجمة تعكس فهمِ صاحبها للنص الذى يترجمه ، ومن ثم فترجمة القرآن هى عمل تفسيرى . ومما يحمَد للشيخ أبو بكر حمزة أنه كان ، فى معظم الحالات ، يترجم الآية على حسب ما يتراءى له أنه أصحّ فهم لها ثم يتبعها فى الهامش بترجمة أخرى أو أكثر للآية ذاتها وفق تفسير هذا المفسر أو ذاك . ولكنه على رغم كثرة التفاسير والتراجم القرآنية التى رجع إليها فإن قائمة مراجعه للأسف الشديد ، لا تضم مثلاً « فى ظلال القرآن » لسيد قطب رحمه الله ، وهو عمل رائد فى حقله ، وكان بوسعه أنِ يعين الأستاذ المترجم على فهمِ أصحّ لكثير من الآيات ، وعلى رؤية أوضح لبناء السُّوَر .

وكذلك من محاسنِ هذه الترجمة أن المترجم قد قدّم لبعض السور بمقدمات يعالج فيها بالتفصيل الموضوع الرئيسى الذى تعرضت له السورة المذكورة . وربما كانت أطول هذه المقدمات هى مقدمة سورة « محمد » التى تقع فى أكثر من أربع عشرة صفحة .

ورغم محاسن الترجمة ، ورغم الجهد الضخم الذى تحمّله المترجم لينقل القرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية ، فإن بعض المسائل التى أثارها عند ترجمة هذه الآية أو تلك ، أو فى مقدمة هذه السورة أو غيرها ، جديرة بوقفة . ومن ذلك أنه (جـ١/ ص ٣٦١ ـ ٣٦٢) يرى أن الآية الرابعة والخمسين من سورة « الأنفال » هى تكرار للآية الثانية والخمسين من السورة نفسها ، وهو ما يثير استغرابه فيمضى محاولا تفسير هذا التكرار ،

---

(١) هذه الترجمة قام بها الشيخ أبو بكر حمزة شيخ المعهد الإسلامى التابع لمسجد باريس ، وهو عربى من الجزائر . وقد شرع فيها عام ١٩٦٦م ، وصدرت فى باريس عام ١٩٧٢ ، وتقع فى مجلدين كبيرين يبلغ عدد صفحاتهما خمسا وسبعين ومائتين وألفا من القطع الكبير ، فضلا عن عدد من الملاحق فيما يزيد على مائة صفحة . وهى أكبر ترجمة فرنسية وقعت فى يدى حتى الآن . وترجمة بهذه الضخامة تشهد ، ولا ريب ، بمدى الجهد الذى بذله المترجم ، ويشهد معها هذا الحشد من المراجع الذى يشارف الثمانمائة ما بين عربى وإنجليزى وفرنسى وألمانى وإيطالى ، بعضها يبحث فى الأديان ، وبعضها فى التاريخ ، وبعضها فى السياسة، وبعضها فى السحر ... إلخ .

مؤكدا أن الرازى هو المفسّر الوحيد الذى حاول ذلك من قبل ، وكان رأيه أنها تكملة للآية السابقة . ثم يعقب قائلا إنه لا يفهم كيف يكون هذا التكميل ، بل الأحرى فى نظره أن يكون أعضاء اللجنة التى اضطلعت على عهد عثمان ، رضى الله عنه ، بكتابة نسخة رسمية للمصحف قد وصلتهم روايتان مختلفتان لآية واحدة فاحتفظوا بدافع من تحرجهم الدينى بالروايتين معا . ثم يختم تعقيبه هذا بالإشارة إلى أن الزمخشرى يرى فى الآية الثانية من الآيتين السالفتى الذكر تكريرا أريد به التأكيد .

إن كاتب هذه السطور لا يستطيع أن يرى ما يوجب الاستغراب أو الحيرة فى الآية الرابعة والخمسين من سورة « الانفال » . وهى ، بكل تأكيد ، ليست تكرارا للآية الثانية والخمسين من نفس السورة برغم احتوائها على بعض الألفاظ الواردة فيها . وحتى لو سلمنا جدلا بأنها تكرار لها فإنى لا أدرى كيف يمكن أن يؤدى ذلك إلى هذا التخريج العجيب الذى لا ينهض على أساس تاريخى ، إذ لم يصلنا شىء عن الروايتين المختلفتين المزعومتين ، وإلا لكان المترجم نفسه أول من يورد ذلك ، ولا على أساس من النقد الأدبى ، فإن التكرار فى هذه الآية ، إن سلمنا به ، ليس بدعا فى أسلوب القرآن الكريم ، وإلاّ فما بال الأستاذ المترجم لم يتحير أمام آيتى ﴿ إن فى ذلك لآيةً ، وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم ﴾ ، وقد تكررتا سبع مرات فى سورة «الشعراء» ، أو أمام آيتى « فكيفَ كان عذابى ونُذُرِ ؟ * ولقد يسّرنا القرآن للذّكر ، فهل مِن مدّكرٍ ؟ ﴾ ، وقد وردتا بضع مرات فى سورة « القمر » ، أو آية ﴿ فبأىِّ آلاءِ ربكما تكذّبانَ ؟ ؟ ﴾ ، التى تكررت فى سورة (الرحمن) ثلاثين مرة ؟ لقدَ كانتَ حيرة المترجم تكون مفهومة لو لم يكن هذا التكرار ملمحًا أسلوبيا قرآنيا . إن الرازى والزمخشرى قد أصابا الحق حين أكد الأول أن الآية الثانية من الآيتين المشار إليهما مكمِّلة للآية السابقة عليها ، ورأى الثانى فيها تأكيدا للآية الثانية والخمسين.

وقبلِ أن أوضح رأيى فى هذه المسألة لابد أن أورد الآيتين فى سِياقهما ، وهو : ﴿ولو ترى إذ يتوفَّى الذين كفروا الملائكةُ يَضْربون وجوهَهم وأدبارهم: وذوقوا عذابَ الحريق * ذلك بما قدّمتْ أيديكم ، وأن اللهَ ليس بظلام للعبيد * كدأبِ آلِ فرْعَونَ والذين من قبلهم . كفروا بآيات الله ، فأخذهم الله بذنوبهم . إن الله قوىٌّ شديدُ العقاب * ذلك بأن الله لَمْ يَكُ مغيرًا نعمةً أنعمها على قوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم، وأن الله سميع عليم * كدأبِ آلِ فرعَونَ والذين من قبلهم . كذّبوا بآيات ربهم ، فأهلكناهم بذنوبهم،

وأغرقنا آلَ فرعَونَ . وكلٌّ كانوا ظالمين ﴾ [الأنفال٥٠ ـ ٥٤]. ومن هذا السياق يتضح أن الآية الرابعة والخمسين مرتبطة بالآية السابقة عليها ارتباط الثانية والخمسين بما قبلها، فهي تؤكد أن ما أصاب الكفار العرب إنما هو من صنع أيديهم ، تماما كما أن ما وقع لآل فرعون ومَنْ قبلهم إنما جنَوه هم على أنفسهم . ثم تأتي الآية الثالثة والخمسون لتلمس جانبا آخر من القضية ، وهو أن النعم التي تتقلب فيها أمة من الأمم لا تزول عنها ما قامت بواجب الشكر عليها ، فأمّا إذا كفرتها وجحدت يد المنعم المتفضل سبحانه فلا تلومنّ ساعتئذ إلا نفسها ، وهو ما حدث لآل فرعون ومن قبلهم (انظر الآية الرابعة والخمسين) . ومقارنة بين الآيتين ٥١ و ٥٣ تبيّن أن الأخيرة تفصّل ما أجملت الأولى ، وتلقي (كما سلف القول) الضوء على جانب آخر من القضية . كما أن المقارنة بين الآيتين ٥٣ و ٥٤ توضح أن الثانية تفصيل وإضافة للأولى ، وليست (كما زعم المترجم) مجرد تكرار لها. وحتى نفهم مرمى الآيتين ٥٣ ـ ٥٤ أحب أن أشير إلي الآية السابعة والستين من سورة « العنكبوت » : ﴿ أولَم يَرَوا أنا جعلنا حَرَماً آمنا ويُتَخَطَّف الناسُ من حَولِهم ؟ أفبالباطل يؤمنون ، وبنعمة الله يكفرون ؟ ﴾، وإلى سورة «قريش» كلها حيث يمنّ الله سبحانه على قريش بما يسّر لهم من رحلتى الشتاء والصيف ويلفتهم إلى ما يجب عليهم تجاه هذه النعمة ، وكذلك إلى الآيتين ٥٧ ـ ٥٨ من سورة « الشعراء » اللتين تحكيان كيف تحولت النعم الإلهية عن فرعون وقومه حين كذبوا بآيات ربهم : ﴿ فأخرجناهم من جنّاتٍ وعيون * وكنوزٍ ومَقامٍ كريم ﴾ . وإذا كانت لفظة « النعمة » لم تذكَر بنصّها فى هاتين الآيتين فإننا نجدها فى الآيات ٢٥ ـ ٢٨ من سورة « الدخان » التى تتحدث عن نفس الموضوع : ﴿ كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونَعْمَةٍ كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوما آخرين ﴾ . وفى سورة « المزمل » نجد المقابلة ذاتها بين تكذيب الكفار بآيات الله وما ينتظرهم من عقاب مهين وبين عصيان فرعون وقومه لرسولهم والوبال الذى صبه الله عليهم [الآيات ١١ ـ ١٦] . والذى يلفت النظر فى هذه الآيات فيما نحن بصدده هو هذا التهديد بزوال النعمة فى قوله تعالى : ﴿ وذَرْنى والمكذّبين أُلِى النَّعْمة ، ومَهِّلْهُمْ قليلا ﴾ ، هذا التهديد الذى شرع يتحقق منذ غزوة بدر، وهو ما تناولته صراحةً الآيتان ٥٣ ـ ٥٤ من سورة « الأنفال » . وغنى عن القول أن هذه المقابلة قد عولجت فى أكثر من سورة أخرى .

وفي موضع آخر يدّعي المترجم أن الآية الرابعة والأربعين من سورة «هود» : ﴿وقيل: يا أرض ، ابلعي ماءك ، ويا سماء أقلعي ، وغيض الماء ، وقضي الأمر ، واستوت على الجوديّ ، وقيل : بعداً للقوم الظالمين !﴾ كان ينبغي أن تتلو الآية السابعة والأربعين من السورة ذاتها ، وهي : ﴿ قال : ربّ، إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم ، وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين ﴾ ، بيد أنها قد بقيت في مكانها الحالي احتراما لترتيب الآيات في المصحف العثماني . ونظرة واحدة إلى هذه الآية في موضعها الحالي تبين أن ادعاء المترجم هو ادعاء يفتقر إلى أساس يقوم عليه ، فليس شرطا أن يأتي بلع الأرض ماءها وإقلاع السماء واستواء الفلك على الجوديّ في نهاية القصة ، إذ يمكن أن يكون ذلك قد وقع أولا ثم نادى نوح ربه بعد ذلك : ﴿ ربّ ، إنّ ابني من أهلي ...﴾ ، فبين الله له أنه ليس من أهله ، ووعظه وربأ به أن يكون من الجاهلين ، فاستغفره نوح عليه السلام ، وعندئذ أتى النداء الإلهي بأن يهبط نوح بسلام من الله وبركات عليه وعلى أمم ممن معه. ذلك ممكن جدا ، وذلك هو الذي يفهم من ظاهر الآيات الذي لا مسوغ لتجاهله وافتراض ترتيب للأحداث مختلف ، فإن أيا منا لم يكن مع نوح في الفلك كي يؤكد أن ترتيب الوقائع في هذه القصة هو على خلاف الظاهر. وحتى لو افترضنا أن انقطاع هطول المطر وتوقف الأرض عن التفجر بالماء قد سبقا مباشرةً هبوط نوح عليه السلام من الفلك ، فليس هذا أيضا شرطا لأن تأتي الواقعتان على هذا الترتيب في الرواية القرآنية حتى يمكننا الادعاء بأنه لولا احترام المسلمين لترتيب المصحف العثماني لكان من الواجب أن تتوالى الآيتان على هذا النحو . فقد يرى راوي قصة ما تقديمَ واقعة في السرد لدواع فنية على أخرى قد سبقتها . وإذن فإن صحّ أن وقائع قصة نوح عليه السلام قد حدثت على الترتيب الذي يدّعيه المترجم فإن القرآن يكون قد عالج هاتين الواقعتين كلاً على انفراد ، حتى إذا ما فرغ من الأولى وصوّر نتائجها انتقل إلى الثانية بدورها وأبرز عواقبها . فأما الواقعة الأولى فهي عصيان ابن نوح واغتراره بأن الجبل يعصمه من الماء ثم حيلولة الموج بينه وبين أبيه فكان من المغرقين ، وأما الثانية فهي أن نوحا حزن على ما آل إليه مصير ابنه فدعا ربه فكان ما كان من رد المولى عليه ثم استغفاره عليه السلام ربه فندائه سبحانه له أن ﴿ اهبط بسلام ... ﴾ . ويكون القرآن لأمرٍ ما لم يشأ أن يوالي بين الواقعتين ، إذ ربما أراد الإيحاء مثلا بأن الابن العاصي قد أصبح ذكرى بعيدة ينبغي ألا تشغل الأذهان ، أو ربما قصد إلى إبراز المصير الرهيب

الذى آل إليه الابن الكافر وتركيز الضوء عليه بدلا من تشتيت الانتباه بينه وبين الحزن الأبوى الذى تحرّك فى قلب نوح عليه السلام ومناجاته ربه إلى أن استطاع أن يسيطر على هذه المشاعر التلقائية ويفيق إلى حكمة الله . ونَسْج وقائع القصة على هذا المنوال ليس أسلوبا غريبا على القرآن الكريم . وتحضرني الآن الآيات التى تناولت قصة سبإ وما أفاء الله عليهم من نعم ثم كفرانهم بها وما عقَبَ ذلك من انتقام إلهى ، فكيف عالج القرآن هذه القصة ؟ لقد قسمها إلى جزأين متناولا كلاً على حدة ، إذ تناولت الآيات ١٥ ـ ١٧ من تلك السورة تصوير خصب أرضهم والجنان التى كانوا يتمتعون بخيراتها والشكر الذى كان ينبغى عليهم أن يؤدوه لله ، فلما أعرضوا أرسل عليهم سيْل العرم وبدّلهم بجنتيهم أشجارا ذات أُكلٍ خمط وأثلاً وقليلا من أشجار السِّدر . ثم تعود الآيتان ١٨ ـ ١٩ من السورة نفسها إلى الحديث عن جانب آخر من النعم ، وهو الجانب التجارى ، وكيف انتقم الله منهم هنا أيضًا حين ظلموا أنفسهم فجعلهم أحاديث ومزّقهم كل ممزّق . فهل يُفْهم من هذا أن الله قد بدلهم بخصب جنانهم شوكا وعوسجا ، ثم عاد عز وجل فوسّع عليهم فى تجارتهم ويسّر لهم أسفار قوافلهم ؟ ذلك بعيد، والأرجح أن العقوبتين قد تزامنتا . ونلاحظ أن أداة الربط بين جزأى القصة هى حرف « الواو » (أول حرف فى الآية الثامنة عشرة) ، وهو نفسه أداة الربط بين الواقعتين اللتين سلفت الإشارة إليهما من قصة نوح وولده فى سورة « هود » . وهذا الحرف ، كما هو معروف ، لا يفيد ترتيبا بل مطلق الجمع ، فلا حرج من تقديم واقعة على أخرى قد سبقتها أو حدثت معها فى وقت واحد والربط بينهما بهذه الأداة التى لا يلزم أن تفيد ترتيبا بعينه .

إن وجه الخطورة فيما قاله المترجم هو ما يُفْهَم منه من أن القرآن ، كما نقرؤه اليوم، قد حدث فيه بعض التغيير . أقول إن هذا هو ما يفهم مما قاله المترجم ، ولا أظننى متجنيًا عليه ولا محمِّلا كلامه ما لا يحتمل . وإذا كان عند القارئ أدنى ريب فليرجع إلى الجزء الثانى من هذه الترجمة / ص١٢٧٩ / ف٢ حيث يقرر الشيخ حمزة أن بعض الآيات قد نقلَت عن مواضعها أثناء ولاية سيدنا عثمان رضى الله عنه ، إذ لم يكن معروفا إلى أى سورة تنتمى ولا فى أى موضع ينبغى أن تُكْتَب . وهو هنا يحيل القارئ على ص٢٦ ـ ٣٥ من المقدمة التى صدّر بها الأستاذ محمد حميد الله ترجمته للقرآن الكريم (ط. باريس/ ١٩٥٩م) . ومعنى ذلك أن بعض الآيات قد

وُضِعَتْ كيفما اتفق لجهل نساخ المصحف على عهد عثمان بموضعها الحقيقى ، فضلا عن أن آية أخرى على الأقل كان ينبغي أن يكتبوها فى موضع آخر غير موضعها الحالىّ هى آية سورة « هود » ، بالإضافة إلى أنهم ، تحت ضغط من شدة تحرجهم ، قد زادوا علـى القرآن آية لم تكن فيه هى آية سورة « الأنفال » .

إن السؤال هو : أين كان مصحف أبى بكر فى ذلك الوقت ؟ ألم يكن هو عمدة هؤلاء النُّسّاخ ؟ أم إن هذا المصحف أيضًا كان يعانى من الاضطراب ذاته ؟ ثم كيف يستقيم هذا الادعاء مع الإيمان بأن الله قد تكفَّل بحفظ القرآن ، إذ قال : ﴿ إنَّا نحن نزّلنا الذِّكْرَ ، وإنَّا لَهُ لحافظون ﴾ [الحجر٩] ؟ لقد كنت أتوقع أن يعلق الشيخ أبو بكر حمزة على هذه الآية الكريمة بما يلقى ضوءا على ما زعمه فى آيتى سورة «الأنفال» وسورة «هود» ، ولكنه للأسـف لم يفعل بـل اكتفـى بترجمتهـا على النحو التالى : " C'est nous, en vérité , qui t'avons communiqué rémémoration et, certes, c'est nous qui en sommes les gardiens " (جـ١/ص٥١٩) . إنه لو لم يكن مسلما بل أحد كبار المسؤولين المسلمين فى فرنسا لكان موقفه مفهوما . كذلك كيف يمكن التوفيق بين ما زعمه من وقوع بعض الاضطراب فى القرآن (وعلى عهد من ؟ على عهد عثمان !) وبين ما يؤكده هو نفسه (جـ٢/ص١٢٦٨/ف٢) من أن تكذيب النبى عليه الصلاة والسلام أو إنكار أى شيء من القرآن هو بمثابة الشك فى القرآن كله والوقوع من ثم فى الكفر ؟

ومما يؤخذ عليه أيضًا أنه ينقل قوله تعالى : ﴿ يا مَعْشَرَ الجنِّ والإِنْسِ ، إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا ... إلخ ﴾ [الرحمن/٢٢] على النحو التالى : " O peuples des démons et des hommes " (جـ٢/ص١٠٦٥) ، ومعناه : «يا معـشر الشياطين والإنس». وليس فى الهـامش المخـصص لهـذه الآية (ص١٠٦٦) أى تعليق يمكن أن يلقى ولو بصيصا ضئيلا من الضوء على السبب الذى دفعه إلى ترجمة لفظة « الجن » هنا بـ « démons » بدلاً من « jinns » ، التى استخدمها فى ترجمـة عنوان سورة « الجن » وآياتهـا (ص ١١٤٦ وما بعدها) . والغـريب مع ذلك أنه فى مقـدمـة هذه السـورة (ص١١٤٩) يقـرر أن الجن هم ذرية إبليس، فهل هذا صحيح ؟ إن القرآن يقرر أن إبليس كان من الجن ، وليس فيه قط ما يشير إلى أنه كان لهم كآدم للبشر . وحين يشير القرآن الكريم إلى إبليس وذريته فالمفهوم

أنه يشير إلى الشياطين لا إلى الجن بعامة ، إذ إنه في سورة « الجن » ينص على لسان الجن أنفسهم بما لا يدع مجالا للَبس أنهم طرائق قدد ، وأن منهم القاسطين ومنهم المسلمين . والمترجم نفسه يشير إلى هذا فى الفقرة السابقة مباشرة .

ومما يحيّر كذلك قولُه في الفقـرة الأخيرة من المقدمة التى مهّد بها لسورة «الجنّ» (جـ٢/ ص ١١٥٠) ما مفاده أننا لن نعرف الإسلام على حقيقته إذا جهلنا أن عقلانييه وكبار مفكريه قد أنكروا بعد الدراسة المتعمقة وجود الجن . ثم يذكر من هؤلاء المعتزلةَ وابنَ رشد ، وكذلك ابن خلدون ، الذى ينقل عنه أن ما جاء فى القرآن عن الجن إنما هو allégories . وهذه اللفظة تعنى « القـصص الرمـزى » ، إلا أن المترجم قد استعملها فى ترجمة كلمة « متشابهات » ، التى استخدمها ابن خلدون ، مع أن المتشابه هو ما استأثر الله بعلمه . أى أن المتشابهات شىء ، والقصص الرمزى شىء آخر مختلف تماما . ثم ما دام الله سبحانه قد أكّد وجود الجن وأفاض القول فيهم بل سمّى إحدى سوره باسمهم ، فما معنى أن يؤكد المترجم فى مقدمته لهذه السورة أن من الجهل بالإسلام ألا نعرف أن مفكريه الكبار قد أنكروا وجود الجن ؟ إن مفكرى الإسلام الكبار ليسوا إلا بشرا من البشر، أفنصدقهم، حتى لو صحّ ما نسبه المترجم إليهم، فى أمر من أمور الغيب الذى لا يعلمه إلا الله ، ونرد قول عالم الغيب والشهادة ؟ إن المترجم طبعا لم يقل هذا ، لكن الطريقة التى عرض بها الأمر والموضع الذى عرضه فيه يوحيان بالكثير . إن أفضل شىء نفعله هو أن نقف عند ما جاء فى القرآن عن الجن ولا نعدوه إلى ما وراءه ، فإنه لا طائل تحته ، ولْنفوِّض إلى الله العلم بمراده ، فلا أظننا بغانِيِي شىء من أمثال هذه الشطحات .

كذلك من الجزم فى غير موضعه أن يؤكد المترجم أن متع الجنة ، كما فصّلها القرآن ، ينبغى ألا تؤخذ على ظاهرها وأنه إذا كان القرآن قد تحدث عن الحُور العِين والفاكهة واللحم فقد كانت عينه على العرب الحسِّيِّين الأجلاف المتضورين جوعا والذين كان شعراؤهم أنفسهم كثيرا ما يشتكون الجوع فى قصائدهم ، ونادرا ما كانوا يتحدثون عن العطش (جـ٢/ ص١٠٤٢ /هـ الآية ٢٢ من سورة « الطور ») . إن هذا الكلام يثير أكثر من سؤال :

١ ـ هل الإسلام دين عربى جاء إلى العرب وحدهم حتى يعمل القرآن لهم كل هذا

الحساب فيصوّر الجنة وفق مرادهم ؟ فكيف دخلت كل هذه الأجناس الأخرى فى الإسلام إذن ؟

٢ - وهـل العرب يتفردون من بين الأمم بحب الطعام الشهى والمرأة الجميلة ؟ إن هذه هـى دعوى بعض المستشرقين الذين يريدون أن يقولوا إن أممهم أرقى من أمة العرب ... إلى آخر هذه السخافات التى يطلّعون علينا بها بين الحين والحين . فهل يوجد من بين هؤلاء المستشرقين أو أممهم واحد ، واحد فقط ، ينفر من أكلة شهية أو يتقزز من امرأة جميلة ؟ إن السعار وراء هذه المتع لَعَلَى أشدّه فى هذه المجتمعات ، فلِمَ إذن الاستعلاء على المتع التى وعد الله بها عباده المتقين فى جنات عدن ؟ إننى أفهم أن يقول إنسان إن هذه اللذات ، على حالتها التى هى عليها فى هذه الدنيا ، لها جانبها المنفّر : فالطعام مثلا قد يسبب لنا مغصا ، وهو بعد أن نشبع منه لا تعود له الجاذبية الأولى ، ثم إنه إذا تُرِك فترة طويلة يتعفن . فهذه ملاحظة لها وجاهتها، ولكن من قال إن متع الجنة ستكون كمتع هذه الدنيا؟ إنها ، كما يؤكد القرآن والحديث ، سوف تكون متعا خالصة مصفّاة . إننا لا يمكننا أن نعرف طبيعة هذه المتع لسبب بسيط هو أن القرآن الكريم يذكر أنه سوف تُبدّل الأرض غير الأرض والسماوات ، أى أن الكون سوف يتخذ وضعا جديدا ، وسوف يجرى على قوانين أخرى غير التى نعهدها الآن . أما أن نجزم بأن الجنة هى متع روحية فقط فهذا ، مرة أخرى ، رجم بالغيب .

٣ - كذلك لا أظن الأستاذ المترجم إلا مُوقنا بأن الذين آمنوا بالرسول عليه الصلاة والسلام هم أفضل أخلاقا وأرقى وأزكى نفوساً ممن أصروا على عنادهم وماتوا على الكفر . لكن توجيهه هذا للآيات التى تصف نعيم الجنة يعنى أن الذين آمنوا به عليه السلام كانوا أكثر حسيّة وأسعى وراء متع الطعام والنساء ، وأن الكفرة الذين لم تغرّهم لذائذ الجنة كانوا أضبط لشهواتهم؟ ألا يجرّ هـذا التوجيه ، كما نرى، إلـى نتائج عجيبة ؟

٤ - ثم إن كلام المترجم يوحى بما معناه أن القرآن قد اهتم بوصف طعام أهل الجنة ولم يهتم بوصف مشاربها ، فشعراء الجاهلية ، وهم شهود على قومهم ، كانوا كثيرا ما يشتكون الجوع فى قصائدهم ، ونادرا ما اشتكوا العطش كما قال ، وفاته

أن القرآن قد فصّل القول فى مشارب أهل الجنة فى مواضع عدة من خمر وعسل ولبن وماءٍ معين .

ورغم ذلك فليس معنى كلامى أن متع الجنة ستكون مقصورة على هذه اللذائذ وحدها ، فثمة رضوان الله ، وثمة السلام الشامل الذى ستتقلّب فيه نفوس الصالحين ، وثمة وجه الله ذو الجلال والإكرام . وأيا ما يكن الأمر فلا مسوغ لكل هذه الحساسية التى يشعر بها بعض المسلمين كلما تحدثوا عن دينهم إلى الغربيين ، فإنك لا تهدى من أحببت . وليس من المعقول أن ندعو الناس إلى دين الله بأسلوب يُشتَمّ منه رائحة الاعتذار عن الله. والله على كل حال غنى عن العالمين ، وهو سبحانه لا يحب النفاق ولا المنافقين الذين يظهرون التأفف مما هم غارقون فيه إلى ذقونهم بل إلى قمة رؤوسهم .

كذلك يلفت النظر أن المترجم ، فى تعليقه على آيات سورة «ص» التى تحكى قصة الخصم الذين تسوّروا المحراب ودخلوا على داود ففزع منهم ، يؤكد أن هذه القصة إنما تشير إلى حكاية أوريا كما وردت فى كتب اليهود (انظر جـ٢/ ص ٩١٨/هـ الآية ٢١ من سورة « ص ») ، أى ما يدّعونه على داود عليه السلام من أنه طمع فى زوجة أحد قواده ، وأنه زنى بها فحبلت منه ، وأنه تحيّل حتى تخلص من زوجها وأخذها بعد ذلك لنفسه . فهل هذا مما يتفق وعقيدة الإسلام فى الرسل من أنهم مثل عليا للبشر ، أو ما يصف القرآن به داودَ نفسَه ، وبخاصة قُبيلَ هذه الآيات ، من أن الله قد سخر الجبال معه يسبّحن بالعشىّ والإشراق ، والطير محشورة كلٌّ له أوّاب ، وأنه قد آتاه الحكمة وفصل الخطاب ؟ وهل يفترق تصرف داود على هذا النحو (حسب رواية اليهود الأنجاس) عن سلوك أى شهوانى لئيم؟ قد يقال إن الرسل هم قبل كل شىء بشر ، والبشر يخطئون . لكننا لا بد أن ندرك أن ثمة فرقا بين خطإ تافه يمكن أن يقع فيه النبى والرسول وخطيئة كهذه الخطيئة الشنيعة التى ينسبها اليهود ، عليهم لعنات الله، إلى هذا النبى الكريم . وأيا ما يكن مقطع الحق فى هذه القصة فإن الآيات المشار إليها يمكن فهمها على نحو آخر لا يتصادم مع ظاهر النص ولا مع روحه ، وهو أن داود عليه السلام حين دخل عليه الخصم على هذا النحو الغريب المباغت ، وبعد أن استمع إلى أحد الطرفين ، سارع إلى إصدار الحكم من غير أن يتريث ليتثبّت مما سمع ، واتهم الطرف الثانى بالبغى والعدوان ، ثم تنبه إلى هذا فخرّ راكعا وأناب (انظر « فى ظلال القرآن » لسيد قطب فى تفسير هذه الآيات) . ومع ذلك فإنى لا أستطيع الجزم بأن هذا

هو التفسير الصحيح لهذه الآيات ، إلا أنه أقرب إلى عقل المسلم وعقيدته ، بخلاف التفسير الذى أشار إليه الشيخ أبو بكر حمزة اعتمادا على تلفيقات اليهود ، فهو تفسير يصادم عقيدة المسلم مصادمة عنيفة .

أما فى قصة موسى عليه السلام كما ترويها سورة « القَصَص » فإن الأستاذ المترجم يعرب عن حيرته الشديدة قائلا إن موقف موسى ، كما يصوره القرآن والتوراة ، يبلبل العقل . فهو يستغرب كيف يقتل موسى عليه السلام إنسانا ويهمّ بقتل الثانى ، ثم عندما يحاكَم غيابيا ويطلبونه لتطبيق القانون عليه نراه يتهم الحكومة بأنها ظالمة (جـ ٢/ص ٧٩٧ / هـ الآية ٢١) . وكذلك يستغرب المترجم تصرفات موسى إزاء فرعون، الذى أخذه فى قصره وربّاه ، إذ لم يبْد (على حسب تعبيره) أية علامة على عرفان الجميل أو الاحترام (نفس المجلد والصفحة / هـ الآية ١٥) . فهذا الموقف ، كما يقول ، يعلو على مدارك العقل البشرى . فهل هذا صحيح؟ إن فرعون ، كما نعرف ، كان يريد قتل موسى حين التقطه آله وأتَوْا به إلى القصر لولا شفاعة زوجته ، التى كانت على خلافه مؤمنةً بالله . فهذه واحدة ، والثانية أن موسى إنما لكز الذى منْ عدوّه حين رآه يقتتل مع الذى من شيعته كما يقول القرآن الكريم ، وإذا كانت اللكزة قد قضت عليه فهو لم يقصد ذلكَ بل أحسّ من فوره بالذنب وتأنيب الضمير قائلا : ﴿ هذا منْ عَمَلِ الشيطان . إنه عدوٌ مضلٌ مبين ﴾ ، واستغفر ربه ووعد بألا يكون ظهيرا للكافرين. ويمكن فهم انحياز موسى للذى من شيعته فى ضوء الاستبداد الذى كان فرعون يصبه على أبناء طائفته وتذبيحه أطفالهم ، فهو انحياز إلى المظلوم . والثالثة هى أن الملأ لم يحاكموا موسى غيابيا كما يقول المترجم بل قد ائتمروا به ليقتلوه ، فجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ناصحا إياه بالخروج من المدينة فخرج منها خائفا يترقب داعيا بقوله : ﴿ ربِّ، نجّنى مِن القومِ الظالمين ﴾ . فما الذى لا يستطيع العقل البشرى أن يفهمه فى موقف موسى هذا من فرعون؟

* * *

ذلك ، وأرجو أن يهتم الناشر فى الطبعة الثانية بتصحيح الأخطاء المطبعية، وبخاصة فى تنقيط وتشريط الحروف الرومانية التى تؤدّى بها الكلمات العربية ، وفى سقوط بعض الآيات أو أجزاء منها ، مثل الآية الخامسة من سورة « سبأ » والآية ٥٦ من سورة «يس» مما نزل بعدد آيات الأولى إلى ثلاث وخمسين آية من أربع وخمسين ، وآيات

الثانية إلى اثنتين وثمانين من ثلاث وثمانين ، وأن يراجع أيضا ترجمة بعض الآيات مثل قوله تعالى فى سورة « الزمر » (جـ٢/ص ٩٢٤) : ﴿ أَلاَ هو العزيزُ الغفّار ﴾ ، الذى نقلـه الشيخ حمزة إلـى الفرنسية على النحو التالى : "Or ca , n'est - il point le puissant le clément ? " ، وهـو ما يعنى أنه يعدّ « ألا » فى هذه الآية استفهامية بمعنى « أليس ؟ » ، مع أنها استفتاحية . ومما هو جدير بالذكر أن سافارى ومونتيه وبلاشير قد ترجموا مثلَ هذه العبارة على أنها جملة استفهامية ، لكن كان من المنتظر من أبو بكر حمزة، وهو العربى المسلم ، ألا يقع فى مثل هذا الوهم .

الباب الثانى

(المترجمات والتعليقات)

الفصل الأول

(القرآن (*))

ليس ممكنا معرفة محمد إذا أهملنا دراسة ما ورد عنه فى القرآن ، الذى يمثل وثيقة أخرى تختلف عن الأحاديث ، إذ هو أداة تأثيره الرئيسية على العالم ، وبدونه كان يمكن أن يضطلع بدور كبير ، إلا أن نفوذه الذى سيكون حينئذ ضعيفا كنفوذ قُصَيٍّ سلفه السياسى كان سيتلاشى بموته . ولولا هذا التأثير المستمر الذى لا يتحقق إلا من خلال الآثار المكتوبة لَمَا خلّف وراءه ، مثل كثير غيره ، إلا ذكرى عابرة . إن القرآن هو المصدر الوحيد لحياة المسلمين الدينية والأخلاقية والمدنية والسياسية [١] ، وهو لا يزال فى يومنا هذا الرباطَ الاجتماعى الوحيد الذى يتيح لهم قدرا من التماسك . كما أن القرآن هو الذى جعل عمل محمد يستمر حتى الآن ، وبه سوف يبقى إلى ما شاء الله . وفيه أيضا يمكننا أن نرى محمدا بكل عظمة عبقريته ومثالبها، هذه العبقرية التى تعلو كثيرا على مستوى الأمم التى جاء لهدايتها ، ولكنه اضطرَّ على غير دراية منه أن يقدم لها عددا من التنازلات هبطت به هو نفسه رغم أنه لولا هذه التنازلات ما كان ليَفْهَمه أو يتبعه هؤلاء الذين دعاهم إلى دينه ورقّاهم كثيرا [٢] .

إننى هنا مضطر أن أضع جانبًا الأسئلة المتعلقة بتأليف القرآن لأنها تتصل اتصالا مباشرا بعِلْمَيِ اللغة والتاريخ . وإنه لأمر جد صَعْب حتى بالنسبة لأمهر الباحثين إشاعة شىء من النظام فى سور القرآن وآياته ، إذ هى محاولة ندر أن ينجح فيها أحد[٣] . إننا نعرف أن زعماء المسلمين ، وعلى رأسهم عمر ، قد فكروا بعد وفاة النبى فى جمع القرآن فى كتاب واحد يكون دليلا للدين الجديد ، وقد اضطلع أحد كتبة محمد بهذا الأمر الذى وُكل إليه رسميا فجمع المصحف الذى نُقِّح ثانية بعد عشرين عاما [٤] ، وهو ذات النص الذى بينَ أيدينا الآن . ولا يمكن ، كما قلت ، أن يحيط بصحته أدنى شك ، ومع ذلك فأى غموض ، وأى حجب كثيفة ! وإذا كانت العقلية العربية ، بتأثير الإيمان والجهل ، قد قبلت هذه الفوضى ، فكيف يمكن العقلية الحديثة أن تتنازل فترضى بها ؟[٥] .

(*) من كتاب « Mahomet et le Coran » للمستشرق الفرنسى J. Barthélemy Saint Hilaire (ط. Paris, Librairie Académique, 1865) من ص ١٧٩ فصاعداً .

إن الضوء الوحيد الذى كان ممكنا إلقاؤه عليه هو ضوء التاريخ . ولأن حياة محمد جميعها كانت معروفة بما فيه الكفاية فقد كانت محاولة ترتيب السور تاريخيا ممكنة بناء على ما تضمه هذه الحياة من أحداث(٦) . ومن الواضح أن لغة محمد كان لا بد لها أن تتلون حسب الوقت والظروف التى كانت تحيط به ، إذ لم يكن يستطيع ، وهو لا يزال فى عزلته وفى غمرة تأملاته وقلقه فوق جبل حراء أو عندما شرع يعلّم خفيةً بعض الأتباع المخلصين أو حتى عندما كان يجادل القرشيين المكذبين الساخرين المتجمعين حول الكعبة الوثنية ، أن يتحدث بالطريقة التى تحدث بها بعدئذ بعد أن انتصر فى مائة معركة ودانت له شبه الجزيرة العربية جزئيا ، وعندما كان يوفد السفراء إلى الدول المجاورة يدعوها إلى اعتناق الإسلام ، وبعد أن آمن به كل من كانوا قد كفروا به قبلا . إنه لم يكن ليعظ المهاجرين والأنصار فى المدينة كما كان يعظ من قبل فى مكة خفية . وحين دخل البلدَ الحرام منتصرا بعد عشرة أعوام من النفى ، وبعد أن اتسع سلطانه كثيرا كان لابد أن يتخذ كلامه طابعا آخر . ألا يمكن ، مع هذا الخيط التاريخى، أن نضع أيدينا على ترتيب السور الأصلى بحيث تعكس أو بالأحرى تكشف لنا المراحل المختلفة التى مرت بها نفسية النبى حين كان يدعو بما يوحيه إليه ربه ، ويشدّ أزر أصحابه ، ويؤسس دينه وحكومته ، وينظم مجتمعا جديدا ، ويلعن الكفار وعبدة الأوثان، ويلاحق أعداءه ؟ هذه هى الأسئلة التى تبحث لها العقول المفكرة المتطلعة عن جواب . لقد صنف مسيو جوستاف ڤيل سور القرآن مرتِّبا إياها بناء على داسات جادة ومعرفة بالموضوع محيطة شاملة(٧) ، وبعده اضطلع مسيو وليم موير ثانيةً فى ظل ظروف أكثر مواتاة بهذا العمل الشائك . وحتى نتحقق مما يواجه الباحث فى هذا الموضوع من عقبات كأداء يكفى أن نقارن بين هاتين القائمتين اللتين ليست بينهما أية رابطة . إن السورة الأولى فى قائمة مسيو ڤيل ، الذى يتابع فى ذلك المصنِّفين المسلمين ، هى السوة الـ ٩٦ ، بينما هى السورة ١٠٣ فى قائمة مسيو موير . والثانية عند مسيو ڤيل هى الـ ٧٤ ، بينما عند مسيو موير هى الـ ١٠٠ . وعلى هذا المنوال تستمر الاختلافات حتى نهاية القائمة . وفضلا عن ذلك فإن مسيو ڤيل يرى أن السور المكية أربع وعشرون ، والمدنية ثلاثون ، بينما لا تزيد عن عشرين فى رأى المسيو موير ، الذى يعتقد أن الباقى قد أُلّف فى مكة . وإذا كان الاتفاق بين مثل هذين العالمين المتمكنين بهذه الضآلة ، أفليس لنا أن نعتقد أن هذه المشكلة يكاد يستحيل حلها ،

على الأقل فى الوقت الحاضر ، وأن الأحزم أن ننتظر كشوفا جديدة .

ومن الواضح أنه ينبغى أوّلاً ، إن أمكن ، التمييزُ الحاسم بين السور المكية والمدنية : ففي مكة كان محمد ، فى بدء مهمته ، يحاول إقناع المكذبين ، ويجادل الخصوم ، ويوضح رسالته ، ويعرض العقيدة الجديدة لعلّه يكسب هؤلاء العتاة . إلا أنه لم يكن بمكنته التفكير فى قمعهم ، فقد كانت تنقصه القوة ، وكان الأذى ينتظره كلما دعا جهارا إلى الدين الجديد . وقد اضطُرَّ بعد عشر سنوات متصلة من المعاناة والألم سِرّا فى البِداية ، ثم علانية من بعد ، إلى الفرار حمايةً لنفسه وخوفا على حياة أتباعه . فهذه الظروف تختلف تماما عن الظروف التى ستجدّ بعد ذلك ، ومن الطبيعى أن تترك أثرا عميقًا فى السُّوَر التى شهدت مولدَها هذه المرحلةُ المملوءة بالقلاقل والإهانات .

وعلى العكس من ذلك استطاع محمد فى المدينة بين أتباعه المتحمسين المخلصين وبمساعدتهم الفائقة أن ينظم أمور الدين الذى تصوره لاستنقاذ الجزيرة العربية . ولم تكن الصعوبات التى واجهته شيئا مذكورا بل كان بمقدوره أن يتخطاها ، وسرعان ما انتصر فى بدر . وعلى رغم بعض الانتكاسات العابرة فقد كان مجده يزداد تألقا ، بينما كانت الوثنية تنحسر تدريجيا ويقترب اليوم الذى سيُقْضَى عليها فيه نهائيا فى عقر دارها فى الكعبة. لقد كانت حياة محمد فى المدينة سلسلة متوهجة من الانتصارات ، أما فى مكة فقد كانت خطرا متصلا أدى فى النهاية إلى فراره . إن بينَ السور المكية والمدنية من البُعْد ما بين الضعف والقوة ، والهزيمة والانتصار . وهناك فرقٌ آخر لا يقل أهمية هو أن محمدا فى مكة كان أصغر سنّا، وكانت عبقريته لا تزال فى عنفوانها . وفى مكة أيضاً تلقى دفقات الوحى الأولى ، وكان لابد أن تنعكس وثبات روحه فى السور التى انبثقت آنذاك ، على غير دراية منه تقريبا ، من سبحاته الطويلة الملتهبة . أما بعد ذلك فإنه ، وإن ظل متحمسا ، فقد كان على دراسة ووعى بما يطرأ على فكره . وإذا كان اتصاله بجبريل لم ينقطع فإن هذا الاتصال غير المعتاد لم يعد يفزعه مثلما حدث لأول مرة ظهر له فيها هذا الروح السماوى . لقد اختلطت شواغل السياسة بالاهتمامات الدينية ، كما أنه أصبح متأكدا من رسالته الشخصية . وكل ما كان ينبغى عليه عمله هو أن يقوّى إيمان أصحابه وعزائمهم ، ويسوى خلافاتهم ، وينظم جهودهم . وفى هذه الظروف لم يكن استحصاد عقله فى قمة تألقه . صحيح أن الإلهام لم ينقطع عنه ، لكنه إلهام

المشرّع والقائد العسكرى .

وهكذا فإن الاختلاف فى السن والظروف هو من الوضوح بحيث نبصر معه المكى والمدنى وخصائص أسلوب كليهما ، لكن العقبة تكمن فى محاولة تصنيف السُّور على أساس هذه المعطيات المزعزعة رغم صحتها . ونحن حتى الآن لم نر ، ولا حتى بين الثقات ، من قَدَرَ على اقتحامها . والذى يجعل مثل هذا الأمر شبه مستحيل هو أننا نجد فى السورة الواحدة آية مدنية ، بينما التى تليها قد نزلت فى مكة . أينبغى إذن أن نمزق السور ؟ ومن لنا بما يتطلبه الأمر من يدٍ حسّاسة مبصرة يواتيها التهوّر فتهجم على هذه المحاولة ؟ ولنفترض أنه يمكن على نحوٍ مقنعٍ تسويغٍ ذلك ، إن ما سنصل إليه حينئذ لن يكون إلا تخمينا لا بأس به ، وإن تصنيفا يحاوله آخر سيكونٍ ترتيبا جديدا لا بأس به أيضا ، وعلى هذا النحو سيختفى الأصل ويحل محله عملٌ مهما يعكس من علم وذكاء فهو قائم على الفرضيات.

ويمكن القول ، بناء على هذه الأسباب الوجيهة ، إن أفضل شىء هو ترك القرآن على ما هو عليه باضطرابه البادى للعيان ، وأيضا بما فيه من لهبٍ قدسىٍّ ، وما يحوطه من إجلال مستمر . والمؤكد من بين الأحاديث الكثيرة المضطربة أن محمدا ، وقد فجأته الوفاة ، قد أُعْجِل عن أن يضمّ بنفسه شظايا الوحى المتناثرة . وقد وُكِلَتْ هذه المهمة فيما بعد إلى زيد بن ثابت أحد كتبته الذى أداها بورَع ، إلا أن ذلكَ لم يكن على وجه الدقة جمعا رسميا، فإن أبا بكر وعمر قد أحسّا باحتياجهما شخصيا إلى مثل هذا المصحف الذى عُدَّ مِلْكيّة شخصية لهما إلى حد أنه انتقل بعد وفاة عمر لا إلى خليفته فى الحكم بل إلى ابنته . كذلك كانت هناك مصاحف أخرى فى أيدى المسلمين ، الذين احتدمت بينهم الخلافات حول صحة عدد من الآيات . وللتخفيف من هذه الخصومات الوخيمة أمر الخليفة عثمان الأول بكتابة مصحف جديد مؤسس على نسخة حفصة ، وكان هذا الجمع نهائيا . وعلى رغم أن النسخ القديمة ، على عكس أوامر الخليفة ، لم تختف ، فقد قُدِّر لهذا المصحف الأخير الانتصار ، فظل فى أيدى المسلمين لا يصيبه إلا التغييرات الخفيفة (٨) التى يُنْزِلها الزمن حتى بأَحْظَى الآثار بالاحترام .

ومسألة أخرى ليست أقل أهمية وليس من السهل الوصول إلى رأى شخصى بشأنها، وهى أسلوب القرآن . بيد أنه يمكننا هنا أن نركن إلى الرأى الشائع ونعدّ القرآن قمة الإبداع فى اللغة العربية على رغم أننا نستطيع أن نربط كثيرا من شياته الأسلوبية بمراحل حياة مؤلفه . إن ما أجمعت عليه الآراء من جمال شكله لَيضارع جلال مضمونه ، وإن كمال صياغته لا يهبط بالعبارة عن المستوى السامى لموضوعه . ولقد شاهدنا قبلا كيف كانت تلاوة محمد تغزو قلوب مستمعيه ، وليس من ريب فى أن هذه الجاذبية التى تؤكدها حالات الإسلام الكثيرة المستبعدة كانت لمحمد عوناً لدى هؤلاء القوم المتذوقين لبدائع الشعر . لقد قيل عن محمد إنه لم يكتب الشعر قط ، وذلك خشية أن يُحسب واحدا من الشعراء العاديين ، بل إذا صحت الرواية فليس من المؤكد أنه كان يعرف القواعد العروضية . إلا أن عنفوان الفكرة وحيوية الصور وقوة العبارة وجدّة المعتقدات كانت ، من ناحية أخرى ، شفيعاً لهذه النثر الآسر الذى كان يهيمن علَى القلوب حتى من قبل أن تقتنع العقول . وإننا لنؤمن بأن مثل هذا السّحر لا يقدر عليه قَطّ شخص آخر ، إذ هذه ميزة خاصة بمحمد وحده من بين مؤسسى الأديان كلهم . وإنها لمنقبة عظيمة أن يبقى القرآن أجمل أثر أدبى فى لغته ، ولست أستطيع أن أجد لذلك نظيرا فى التاريخ الدينى للبشرية أجمع . وعلينا أن نضع نصب أعيننا هذه الحقيقة إذا كان لنا أن نقدّر هذا التأثير الخارق للقرآن ، الذى كان من السهل الإيمان بأنه صنعة إلهية ، إذ لم يُسْمَعْ بأن أحدا من العرب قد أتى بمثله .

أما نحن غير المسلمين فيمكننا أن نحس هذا التأثير ، ولكن بدرجة أقل كثيرا، من خلال الترجمات . وهى ، على رغم ما لا بد أن تُشيعه من برودة ، لا تستطيع أن تقضى على حرارة لهيبه الذى لا يزال يحتفظ بقدر كبير من التألق مما يمكن أن نخمن معه ما كان عليه من عنفوان وتوهج فى نصه الأصلى . نحن إذن لا نملك إلا أن نأخذ القرآن كما هو فى وضعه الحالى وأن نستخلص منه بعض الأفكار الأساسية التى تعطينا صورة صادقة ودقيقة إلى حد كاف .

والمعروف أن القرآن يتألف من مائة وأربع عشرة سورة مقسمة إلى آيات متفاوتة. وهذه السُّوَر تختلف طولا ، وأطولها عموما هى السُّوَر المقدّمة فى الترتيب . وبينما يبلغ

بعضها اثنتين وعشرين صفحة ، فإن بعضها لا يتجاوز السطر والسطرين . وكل سورة تحمل عنوانا مأخوذا عادة من إحدى عباراتها، إلا أن هذا العنوان ليس دائما وثيق الصلة بالأفكار المبعثرة التى من المفروض أنه يدل عليها . كما أن كل سورة تبتدئ بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » ، هذه الصيغة الدالة التى تُعدّ ضربة قاتلة للوثنية . وعلى هـذا النحـو أيضا يبتـدئ القرآن ، الذى تمضـى سورته الأولى كما يلى : ﴿ الحمد لله رب العـالمين * الرحـمن الرحيم * مالك يوم الدين * إياك نعبـد وإياك نستعين * اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمتَ عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ .

وهكذا فإن وحدانية الله ولطفه وكرمه ، هذا الإله الذى يثيب المحسنين ويعاقب المذنبين ، هى أول ما يستقبلنا من القرآن . بل يمكن القول إنها هى الفكرة الوحيدة التى يقتصر عليها عارضا إياها بكل ما تنطوى عليه ، مفصِّلاً البراهين عليها ، راجعا إليها ومكررا إياها فى كل صورها . ولا يمل محمد قط وهو يتحدث عن الله الواحد القادر الكريم الذى يكلأ البشر ويعينهم فى المصائب ويواسيهم فى الشدائد ، والذى لا يريد منهم إلا شيئا واحدا هو الخضوع بإخباتٍ لليد الرحيمة التى تبرّأهم وتحييهم . ولكى يُدخِل هذا الاعتقاد فى القلوب الغُلْف التى كان يخاطبها فقد كان يلفت الأبصار إلى جميع الآيات الكونية ، فكان يُقْسِم بالشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاّها ، وكان يقسم أيضا بالصبح إذا تنفّس ، والليل إذا عسعس ، وبالسماء ذات البروج ، وبالنجم الثاقب ، وبالأرض وما طحاها ، وبالبلد الأمين ، وبالتين والزيتون وطورِ سينين . وكان يقسم كذلكِ بالعاديات ضَبْحًا ، ، كما كان يقسم بالقلم وما يَسْطُرون ، وبالكتاب المبين . وأيضا كان يقسم بنفسٍ وما سوّاها ، فألهمها فجورها وتقواها ، ويعلن أن الله إله واحد ، وأن الوثنية قد أشركت به فى ضلالها آلهةً لا حول لها ، وأن الإنسان فى اغتراره بأمواله وتماديه فى غيّه يجحد ربوبيته ، علىٍ عكس القلوب المؤمنة المبصرة التى تقوم دوما بواجب الشكرِ والعبادة . ثم يتلو : ﴿ يُسبح لله ما فى السماوات وما فى الأرض ، له المُلْك وله الحمد ، وهو علي كلّ شيءٍ قدير * هو الذى خلقكم، فـمنكم كافر، ومنكم مؤمنٌ ، والله بما تعملون بصير * خلق السماوات والأرض بالحق ، وصوّركم فأحسنَ صوركم ، وإليه المصير * يعلم ما فى السماوات والأرض ويعلمُ ما تُسرّون وما تُعلنون ، والله عليم بذات الصدور * ... * ما

أصاب من مصيبةٍ إلا بإذنِ الله ، ومن يؤمن بالله يَهْدِ قلْبَه ، واللهُ بكل شيءٍ عليم * ... * فاتقوا الله ما استطعتم ، واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم، ومَن يوقَ شحَّ نَفْسِه فأولئك هم المُفلحون * إن تُقرِضوا الله قرضا حسناً يُضاعِفْه لكم ويَغْفِرْ لكم ، واللهُ شكورٌ حليم * عالِمُ الغيبِ والشهادةِ العزيزُ الحكيم ﴾ .

فهذه هى النبرة السائدة فى القرآن ، وما على الإنسان إلا أن يفتح المصحف على أية صفحة فيجد آيات مثل هذه جمالاً . لقد قيل إنه لولا داود وإشعياء ما توصل محمد إلى مثل هذا الوحيِ ، إلا أن هذا القول ليس صحيحا على إطلاقه . والذى نعتقده هو أن محمداً كان يَمتَح من المنابع نفسها التى مَتَحَ منها النبيان العبرانيان ، ألا وهى الآيات الكونية ذاتها ، وامتلاء قلبه بالوجود الإلهى ذاته ، ثم الثورة ذاتها على المعتقدات الغليظة من حوله[٩] . فليس النبى العربى مقتبسا ولا سارقا ، إذ إن معرفته بكتب اليهود كانت مشوَّهة وغير مباشرة ، ولولا أن انفعال روحه كان عميقا لما كان اقتباسه من غيره بمسعفٍ إياه بمثل هذا التعبير السامى والصادق عن مشاعر قلبه . حقا أن هذه الأفكار بالنسبة لنا ليست جديدة فى شىء، وأننا على دراية بأصولٍ لها أجَلّ وأكمل[١٠] ، إلا أن الجزيرة العربية لم تسمع بها قط قبل محمد ، بل هو الذى أتاها بها وهداها إليها .

وبجانب وحدانية الله ، المعتقَد الأول فى الديانة المحمدية ، يتحدث القرآن عن معتقَد ثان يتفرع بالضرورة عن هذا ، ألا وهو الإيمان بالحياة الأخرى ، التى يؤكدها القرآن بكل الوسائل وبالإلحاح والحماسة ذاتيهما . فبعد هذه الحياة الدنيا لا بد أن يَمْثُل كل إنسان أمام خالقه ليحاسبه على أعماله ونياته ، ولسوف يأتى اليوم الذى تَجْزِى العدالة الإلهية فيه المحسنين وتعاقب المسيئين . إننى أعرف جيدا كل ما قيل عن جنَّة محمد ، ولا أنكر أن الحُور العين تستحق ما تلَقّاه من تهكم ذوى النزعة الروحية ، إلا أن الحُور العِين يشغلن من القرآن أقل كثيرا مما يُظَنُّ عادة. وإن جنة المسلمين لتَرِدُ فيه على هيئة حدائق رائعة تجرى من تحتها الأنهار ، وهو ما لا يضارعه فى مثل هذا الجو الحارق[١١] للجزيرة العربية أية لذة أخرى . وما أكثر ما يتحدث محمد عن الآخرة والجنة دونما أن يَرِد ذِكْر للحور العين اللائى سيكنّ من نصيب المؤمنين ! وعندما يذكرهن فإن ذلك يتم عادة فى تحفظ وحياء لا يخطئهما الإنسان إلا إذا وقع فريسة للنكات الإباحية التى يتناولهن بها المتهكمون .

إن خطأ محمد هنا هو أنه أراد أن يحدد أمورا ليس بمقدور البشر أن يَرَوْها بالوضوح الذى يرغبون(١٢) . ولقد كان عليه أن يكتفى بتأكيد وجود الآخرة بما فيها من الثواب والعقاب وعلاقة الأرواح ببارئها(١٣) . إن حنكة سقراط لم تتخطَّ هذه الحدود ، ولقد كان أحجى بالرسول أن يصنع صنيعه، إلا أن محمدا كان عليه أن يقنع قوما شهوانيين يتطلع خيالهم العارم إلى ما يطفئ غليله . بل إنه هو نفسه ، أثناء قيامه بإصلاح أعراف قومه ، قد استسلم لتيارها . وقد كلف هذا الضعفُ الإسلامَ غاليا ، إذ ساهم كثيرا فى أن يحتل الصفَّ الثانى والمتزعزع من صفوف الحضارة البشرية(١٤) . لقد كان يمكن أن يكون أفضلَ من هذا فى نفسه وأنفعَ للأديان الأخرى لو كان أطهر معتقداتٍ وأعرافًا ، ولكن أيا ما تكن صورة الحياة الأخرى فإن المهم هو إقناع النفوس بهذه العقيدة الراسخة ، وهو ما فعله محمد ، وإن استحق التثريب لما اتّبعه من وسائل . إن الإيمان بالحياة الأخرى ليس أقل شيوعًا بين المسلمين منه بين النصارى ، وإلى القرآن يرجع هذا التقدم العظيم .

وكان محمد ، كما سبق القول ، جَمَّ التواضِع ، فهو لم يخادع نفسه بأن ما أتى به إنما هى أفكار أصيلة بل كان دائم الاهتمام بوصْل دينه بما سبقه من أديان ، كما كان يعتمد بلا انقطاع على كتب اليهود والنصارى ومروياتهم (١٥) . لقد كان مفعما بالاحترام لها بل بالإعجاب الشديد بها ، وكان يسره أن يذكر مرارا وتكرارا أسماء من سبقه من الأنبياء ، الذين جاء لإكمال رسالتهم . لقد كانوا روادا ، ومن ثم لم يكن واجبًا عليه أن يأتى بشىء جديد وقد اصطنع نفس اللغة التى اصطنعوها ، وربما لم يكن أحسن منهم حظا فى مهمته التى كانت امتدادا لمهمتهم (١٦) ، إلا أنه وقف نفسه على شرف الدعوة إلى تعاليمهم المجحودة. وما من أحد أحق بالإجلال لديه من آدم ونوح وإبراهيم وموسى وداود وعيسى، وما كان يَذْكُر التوراةَ ولا المزاميرَ ولا الإنجيلَ إلا بخشوع وإجلال، إذ هى الكتب التى يدين لها القرآن بوجوده . وبدلا من أن يخفى ما أخذ منها كان يفتخر به(١٧) ، فعظمته مستمدة من عظمتها . أما المسيح فإن محمدا كان يثنى عليه ثناءً جمًّا لم يكن يُتَوَقَّع معه ما دار بعد ذلك من حروب طاحنة بين الإسلام والنصرانية . ومثالاً على ثناء النبى العربى عليه نسوق هذه الكلمات التى نسبها محمد كعادته إلى الله : ﴿ وآتينا عِيسَى بن مَرْيَمَ البيِّنات ، وأيدناه بِرُوح القُدُسِ ﴾ . وفى

مكان آخر يستخدم محمد عبارات أصرح مقرًا ببعض العقائد النصرانية: « وإذ قالت الملائكة : يا مريم، إن الله اصطفاكِ وطهركِ واصطفاكِ على نساء العالمين * ... * إن اللهَ يُبَشِّرُكِ بكلمةٍ منه اسمه المسيحُ عيسى بن مريم وجيهًا في الدنيا والآخرةِ ومن المقرَّبين * ويكلِّمُ الناسَ في المَهدِ وكهلاً ومن الصالحين * قالت : ربِّ ، أنّى يكونُ لى غلامٌ ولم يمسسنى بشر ؟ * قال : كذلك اللهُ يخلُق ما يشاء . إذا قضى أمرًا فإنما يقول له : كُنْ ، فيكون * ويعلّمه الكتابَ والحكمةَ والتوراةَ والإنجيلَ * ورسولاً إلى بنى إسرائيلَ : أنيِّ قد جئتكم بآيةٍ من ربكم ، أنى أخلق لكم من الطِّينِ كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكونُ طيراً بإذنِ الله ، وأُبرئ الأكمهَ والأبرصَ وأُحيى الموتى بإذنَ الله ، وأُنبئكم بما تأكلون وما تدَّخرون في بيوتكم . إن في ذلك لآيةً لكم إن كنتم مؤمنين * ومُصدِّقًا لما بيْنَ يدىَّ من التوراة ، ولأُحِلَّ لكم بعضَ الذى حُرِّم عليكم . وجئتكم بآيةٍ من ربِّكم ، فاتقوا اللهَ وأطيعون * إن اللهَ ربِّى وربكم فاعبدوه . هذا صراطٌ مستقيم » .

لقد كانت معرفة محمد بالكتب التى كان يستشهد بها بكثير من الاحترام جدَّ ضئيلة . ويبدو أنه قد أخذ ما اقتبسه لا من الكتب المقدسة ذاتها بل من روايات ضعيفة ومحرفة . بيد أن هذا قد قاده بلا ريب إلى هذا التسامح الذى تشهد عليه آيات كثيرة فى القرآن ، فهو يصرح فى واحدة من أهم السور قائلا (١٨) : « إن الذين آمنوا ، والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخِر وعَمِلَ صالحا ، فلهم أجْرهم عند ربهم ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ، ثم بعد ذلك بقليل فى السورة ذاتها يؤكد المبدأ ذاته على نحو أوضح وأوجز : « لا إكراه فى الدِّين، قد تبيَّن الرُّشْدُ من الغَىّ . فمن يَكفُر بالطَّاغوت ويؤمِنْ بالله فقد استمسك بالعُروةِ الوُثْقَى لا انفصام لها . والله سميع عليم ». ومما لا ريب فيه أن روح الاعتدال والمودة هذه المتسامحة مع الآخرين لم تنتشر بين المسلمين ، إلا أنها بارزة فى القرآن، الذى لا يقف موقف اللَّدد إلا من عبدة الأوثان . إن همجية هذه الأقوام المتعطشة للقتال وما هم عليه من تعصب ، وليس ما جاء به النبى ، هما اللذان كانا يدفعان المسلمين إلى نهب غيرهم والقضاء عليهم . ولقد كان النبى متسقا مع نفسه باحترامه لأولئك الذين كانوا يطيعون من كان يكرمهم من الأنبياء السابقين . ولا أظننى إلا منصفا لمحمد حين أقول إن رأيه الحقيقى فى اليهود والنصارى تعبر عنه مثل هذه الآية : «ولا تُجادلوا أهْلَ الكتابِ إلاَّ بالتى هى أحْسَن ، إلا

الذين ظلموا منهم ، وقولوا : آمنّا بالذى أُنْزِل إلينا وأُنزِل اليكم ، وإلَهنا وإلَهكُم واحدٌ ، ونحن له مُسْلِمون﴾ .

إلا أن هذه المبادئ تتعارض مع تاريخ الإسلام ومع كثير من تصرفات محمد ، الذى كان موقفه من اليهود رهيبا . إنها السياسة وضروراتها ، وقد نزل على محمد على حكمها . ومع ذلك فإن الخلاف إنما كان خلافا فى المصالح لا فى المعتقدات التى كانت متشابهة وتقترب من التماثل فى معظم الأحيان .

إن القرآن ليس كتابا دينيا فحسب ، بل هو فوق ذلك مدوّنة يستمدّ منها المسلمون قوانينهم المدنية على نحو أو على آخر ، إلا أنه لا يصعب على من يقرأ هذه النصوص المضطربة أن يتبين أن محمدا لم تتجه نيته إلى أن يجعل من القرآن شريعة ، فهو على أحسن الفروض لا يضم قوانين بل مبادئ سلوكية للفرد والأسرة . لكن التبجيل الذى كان يحيط بشخصه هو الذى جعل لما يقوله[١٩] ، بالغا ما بلغت ضآلته ، قوة المراسيم الصادرة عن أعظم الملوك بأسًا وحكمة . إن من المستحيل علينا نحن المتعودين على الدقة المنهجية فى مدوّناتنا القانونية منذ الإمبراطورية الرومانية أن نرى ما يمكن عدّه تصنيفا قانونيا فى هذا الخليط المضطرب من الأدعية الدينية والحِكَم الأخلاقية والأساطير والإشارات التاريخية والمواعظ والتهديدات والابتهالات الجليلة التى تلوح من خلالها بين الحين والحين بعض التوجيهات التى يمكن أن يكون لها طابع تشريعى ، وهذه نقطة الضعف فى القرآن . لقد كان الفشل الذريع ينتظر محمدا لو كان غرضه فعلا هو التشريع لقومه ، وكان لابد من توفُّر ظروف غير طبيعية ليتخذ القرآن هذا المسار الغريب . وليس النبى هو المسؤول عن ذلك بل الأقوام الذين اتجه إليهم بدعوته والذين لا بد أنهم قد بلغوا من الانحطاط الحدّ الذى استطاع معه مثل هذا التشريع الناقص والغامض والمضطرب أحيانا أن يكفيهم ويوافق مطالبهم أيضا .

إن الإنسان ليفزع حينما يصادف فى القرآن مثل هذه التوجيهات : ﴿حُرِّمَتْ عليكم أُمهاتُكُمْ وبناتكم وأخواتكم وعماتُكم وخالاتُكم وبناتُ الأخِ وبناتُ الأختِ ، وأمهاتُكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرَّضاعة ، وأمهاتُ نسائكم وربائبُكم اللاتى فى حجورِكم من نسائكم اللاتي دخلتم بهنّ ... وحلائلُ أبنائكم الذين من أصلابكم ،

وأن تجمعوا بين الأختين ... * والمُحْصَنَاتُ من النساء إلا ما ملكَتْ أيمانُكُمْ ﴾ .

حقا أن هذه الأعراف المنحطة التى تهبط بالإنسان إلى دَرْك البهائم لم تكن وقفا على العرب ، فإن سفر « اللأويين » قد اضطُرّ لاتخاذ الإجراءات ذاتها مع العبرانيين ، بيد أن « اللاويين » يسبق القرآن بأكثر من ألفى عام . لكن كان على محمد أن يكافح، مثلما كافح موسى ، نفس المخازى الاجتماعية ، إذ لم تحرز الجزيرة العربية تقدما منذ أنبياء بنى إسرائيل . وإن مما يشرف محمدا أنه هو الذى قضى على عادة العرب الشنيعة فى وأد البنات الصغيرات . لقد ردَّ العرب إلى أسفل سافلين فباتوا إلى الوحوش أقرب منهم إلى الأناسىّ ، وإن الإنسانية لتدين لذلك الذى جاهد لانتشالهم من الانحطاط والفحش .

وإنى لأقرُّ بأن لغة محمد فى هذه المسائل تفتقر أحيانا إلى رقة الأسلوب وتحفظ التعبير . حقًا أن كشف مثل هذه الجرائم وفضحها لابد أن يُفْقِد الكلام بعض اللياقة ، إلا أنه ربما كان أسهل على النبى أن يعدِّى عن بعض التفصيلات المنفِّرة التى يمكن الاستغناء عنها . إن الطريقة التى يتحدث غالبا بها عن النساء مهينة(٢٠) ، ومن شأنها أن تنفِّرنا لو أنها كانت أقل سذاجة ، بيد أن هذا هو الأسلوب المعتاد لهؤلاء الأقوام . وليس نصيب أفاضلهم من التحفظ بأفضل من ذلك . وإن المسلم ليستطيع أيضا ، ردا على اتهامات النَّصارى ، أن يريهم من الكتاب المقدس فقرات ليست بأعف من القرآن . إلا أن النبى ، الذى كان مضطلعا بإصلاحات جدّ صعبة ، كان يمكنه أن يضرب المثل فى هذا المجال ، فإن تجنب خشونة الشكل لهو أيضا تشنيع ضد خشونة الرذيلة المزمع تصحيحها . وكل ما يمكن الاعتذار به عن محمد هو أن الأمة التى كان يخاطبها لم تكن أمة النصارى ، فإن اللغة البشرية لم تَعرِف إلا فى غَرْبِنا فقط كيف تحتفظ بجميع قوتها دون أن تفقد شيئا من حيائها. لقد كان زوج خديجة قادرا على التزام هذه الخطة التى استعصت على من كان زوجا لاثنتى عشرة أو خمس عشرة امرأة أعمارهن ما بين عشرة أعوام إلى خمسين .

ويعتقد مسيو موير أن محمدا قد حطَّ من شأن المرأة التى كانت أصلاً فى حالٍ جدّ محزنة ، بينما يرى مسيو كوسين دى برسفال ، على العكس من ذلك ، أنه قد رفع

شأنها . وإنى حين أتذكر بيعة العقبة أوافق مسيو كوسين دى برسفال على رأيه ، ولكننى عندما أرى فى القرآن تأثيرات الأعراف القديمة أعتقد للتوّ أن هذه الأعراف الفاسدة المتوحشة قد أبقت لنساء العرب المنكودات من الكرامة والحقوق أقل مما منحهن محمد .

إن المرأة ليست شيئا مذكورا فى الشريعة الإسلامية ، إلا أن ما يَشْدَهُنا فى شقائها إنما هو انحطاط وضعها عن وضع المرأة الإغريقية والرومانية، وبخاصة المرأة النصرانية ، حتى لكأنها فى حكم المعدومة(٢١) . إن النص الذى سلف الاستشهاد به ، ومثله كثير ، ليدل على أنها مدينة دينا باهظا لمن خلّصها من زواج المحارم ومما لا ينبغى ذكره من هذه الشناعات التى يبعث مجرد التفكير فيها رعدة الاشمئزاز والفزع . وإذا كان لديها الكثير مما من حقها أن تلوم محمدا عليه ، فإنها مدينة له على الأقل بكونها ظلت أمًّا لأبنائها وابنةً لأبويها . أجل ، إن القرآن يكنّ قليلا جدا من الاحترام للمرأة، إلا أن هذا القدر من الاحترام أكبر منه فيما سبق . إن تعدد الزوجات ليسىء إلى هذه المجتمعات البائسة فى آسيا جمعاء ويخرّبها ، ولقد كان باستطاعة القرآن أن يلغيه بدلا من أن يثبته ، إلا إنه ليستقلّ أيضا هنا بفضل تضييق نطاقه ، وإنْ لم يجرؤ على هدمه . ولقد كان أفضل للإسلام ، حينما اتصل باليهودية والنصرانية ، أن يقوم باستثناء آخر فى سائر آسيا . لقد استطاع أن يقضى إلى الأبد على سكر الخمر ، وكان يستطيع أن يكافح سُكْر الحواس أفضل مما فعل ، وهو أفظع خطرا(٢٢) .

ونقدٌ آخر الردُّ عليه أسهل من ذلك هو الجبرية التى كثيرا ما يُتَّهَم بها القرآن ، إذ رغم انتشار هذا الخطإ فليس فى حياة النبى ولا فى كتابه ما يسوِّغه . لقد رأينا فيما وصفنا من أخلاق محمد كيف كان نشطا لا يكل، وكيف لم تفتر ثقته بنفسه يوما مع أن ثقته بالله لم تَقِلّ عن ذلك صدقا ولا حرارة ، إلا أنها وقفت عند الحدود المعقولة، فلم تبلغ قط هذه السلبية التى تفرضها الجبرية . إن القرآن يوصى أتباعه بالخضوع المطلق لإرادة الله ، وهذا الخضوع الذى يوصى به أيضا أعظم العقول استنارة وواقعية هو الذى خلع على المسلمين اسمهم الذى يفتخرون به . إن هذا الخضوع لا يتحول لا فى مبادئ النبى ولا فى تصرفاته إلى تعطيل للملكات النفسية العليا . فالجبرية كما نتصورها ليست كسلا تاما فى الجسم والعقل نابعا من الانحلال . إنها العجز عن

التصرف أكثر منها مذهبا . وهـى فى نظر الإسلام ليست شيئا آخر سوى شعور الإنسان العميق بضعفه أمام الله القدير الرحيم وبضرورة خضوعه له ، ولا تعنى قط التنازل الأثيم عن أجمل ما منحناه ، ألا وهو إرادتنا الحرّة . وفى القرآن من المعايب ما يجعله فى غنى عن أن ننسب إليه هـذا العيب الذى هو منه براء . ونحن نوافق مسيو ڤيل ومسيو شبرنجر على ما يذهبان إليه من أن الإسلام ، على رغم الخطإ الشائع، ليس دينا جبريا .

إننى لا أنكر أن الجبرية يمكن أن تكون منتشرة بين الأمم الإسلامية ، لكن كتابهم ليس هو المسؤول عنها إلا إذا ساغ لنا أن نلوى اتجاهه العام بسبب بعض النصوص الغامضة . وشلل الإرادة هذا له أسباب أخرى كثيرة . كذلك فإننا نشك فى أن الجبرية يمكـن أن تصـل إلى هذا الحد المدّعَى حتى داخل هذه النفوس المحطمة . ثم إن الجبرية المطلقة ، فى نطاق الحقائق اليومية، مثلها مثل الارتياب المطلق ، مستحيلة . إن بإمكان بعض الصوفية أن يمتدحوا بها ، بيد أن الإنسان لا يمكنه التزامها بجدية ولو لساعات معدودة متصلة .

وعيب أخير ليس أقل خطورة ينبغى الإشارة إليه ، أقصد الإشارة إلى خلو القرآن التام من المباحث الغيبية . غير أن هذا النقص لا يُعْزَى إلى محمد شخصيا بقدر ما يرجع إلى روح الجنس العربى بل إلى روح الجنس السامىّ أجمع . ومن المؤكد أن الكتب الدينية ليست أبحاثا فلسفية ، وليس من الإنصاف أن نطالبها بأكثر مما تدعيه أو ينبغى أن تقدمه، إلا أن تجاهل الأبحاث الغيبية يَحْرِم العقول الكبيرة بعض الضوء الذى ينير لها ما يواجه البشر حين يتفكرون فى الله وفى أمر الروح من مسائل شائكة (٢٣) . وهذا الضوء على رغم رَوَاغيّته قد تطور فيما بعد إلى أن شكّل علم اللاهوت . وإن النصرانية لتقدم لنا هنا مثالا رائعا ، إذ استطاعت ، بمعاونة المباحث الغيبية الإغريقية ، أن تستخلص تدريجيا مما فى كتبها المقدسة من أفكارٍ بناءً لاهوتيا لا يضارَع ، أما الإسلام فإنه لم يكن بهذه الخصوبة . وإذا كان لهذا الجدب أسباب أخرى كثيرة ، فربما كان السبب الرئيسى هو العُقْم شبْه التامّ للقرآن نفسه الذى لم يقدم للأجيال اللاحقة ما كان يمكنها أن تخصِّبه به، فقد كان الوحى بالنسبة لمحمد ، ولهذه الأقوام بعامة ، من الالتهاب بحيث لا يدع شيئا يتنفس ، كما أن العفوية الجارفة المتصلة قد خنقت كل تفكير (٢٤) . وإذا كان النبى لم يفعل شيئا إلا أنْ يتابع الاتجاه العام من حوله فقد استطاع

المتأملُ المعتزلُ فى غار حراء فيما يتعلق بهذه المسائل ألاَّ يهبط تماما إلى ما هبط إليه مواطنوه الأفظاظ . وأيا ما يكن الأمر فإن العربية من الجدب فى هذه الناحية بحيث إن اتصالها فى القرن الهجرى الثانى أو الثالث بالعقلية اليونانية المنشّطة لم يستطع أن ينفخ فيها إلا روحاً شديدة الشحوب فلم تثمر الفلسفة الإسلامية إلا ثمارا أجنبية خالية من الأصالة والنضوج .

تعليقات المترجم

(١) لا ليس الأمر كذلك ، بل للسنة النبوية أيضا أهميتها ، ولولا هى لما أمكن فهم القرآن كما ينبغى ، ولَبَقِىَ كثير من التشريعات مجملا ، ولصعب بل استحال على المسلمين معرفة الطريقة التى ينبغى ممارسة بعض الشعائر الدينية على أساسها . ومع ذلك فصحيح أن القرآن بوجه عام هو المصدر الأول، والسنة خادمته .

(٢) يريد المؤلف أن يقول إن الأمم الأوربية أرقى من العرب ، الذين ظهر بينهم النبى عليه السلام ، وإن النصرانية هى بدورها أرقى من الإسلام . هذا، ولا ندرى أية مثالب يشير إليها هذا الكاتب ! أهى تخليص القرآن العقيدةَ الإلهية مما شوهها به اليهود والنصارى ؟ أم هى الصورة النقية التى رسمها للأنبياء السابقين بعدما لطّخ الكتاب المقدس سمعتهم فلم يذكر بعضهم فى عداد الأنبياء ، ونسب إلى بعضهم الزنا ، وصور بعضهم وهو يتصرف كتصرفات الأوباش ؟ أم هى تحريمه الخمر ؟ أم هى تشريعاته التى قصد بها إلى تحطيم نظام الرق ؟ أم ماذا ؟ لعل الكاتب يشير إلى تعدد الزوجات مثلا ، إلا أن الأمر هنا ليس أمر تشدق بالكلام المعسول الجميل الذى يخفى وراءه نفاقا هائلا وعجزا فاضحا ، بل هو أمر الطبيعة البشرية وما يلائمها فى ظل ظروف معينة ، وما لا يصلح لها فى ظروف أخرى (انظر التعليق ١٢ على الفصل التالى) . أم لعله يشير إلى ما يزعمه المستشرقون من انتشار الإسلام بالسيف ؟ ولكننى أظن أن هذه المسألة قد أصبحت من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى فضل إيضاح من جانبى ، فالإسلام هو الذى اعتُدِىَ عليه . وإذا كان قد هبَّ فى نهاية المطاف حين استنفد كل الوسائل السلمية فى محاولة إيقاف هذ العدوان الباطش الغشوم الكافر ، وحين نبتت أظفاره وأسنانه فردَّ على العدوان بما يردعه ويفزعه ، فما وجه الخطإ هنا ؟ الغريب أن يردد المستشرقون هذه الترهات فى الوقت الذى بلغ فيه العدوان الأوربى على بلاد المسلمين ذروة بشاعته ، فاعْجَبْ للقاتل يتهم ضحيته ، وهو يجهز عليها ، بالقسوة وحب السيطرة !

(٣) لكى يعرف القارئ مبلغ هذا الادعاء من الصحة أو التهافت أحب أن ألفت انتباهه إلى أن هذا المؤلف قد اعتمد فى تأليف كتابه الذى اقتطفنا منه هذا البحث على ترجمةٍ أو أكثر للقرآن . وقد عرف القارئ قيمة مثل هذه الترجمات من خلال قراءة

الباب الأول من كتابنا هذا ، فهل يجوز لإنسان يعتمد على مثل هذه الترجمات التى يشيع فيها الخلل علوا وسفلا ويمينا وشمالا أنِ يصدر حكما على بناء السور القرآنية ؟

(٤) لم يحدث أدنى تنقيح للقرآن الكريم فى أى وقت من الأوقات ، بل لم يدخر المسلمين ذرة من جهد من أجل الحفاظ عليه كما نزل على الرسول وكما سجّل فى عهده عليه السلام أولا بأول فور نزوله : فأما فى عهد أبى بكر فبدلا من أن يظل القرآن مكتوبا على الرقاع والعسب والعظام وما إلى ذلك فقد جمِع بين دفّتىْ كتاب بعد تحرّى الدقة المطلقة فى ذلك ، وأما فى عهد عثمان فبعد اختلاف بعض المسلمين فى الأمصار الجديدة التى فتحوها فى قراءة هذه الآية أو تلك أُحْضِر مصحف أبى بكر ونُسِخَتْ منه عدة نسخ أُرْسِلَتْ للأمصار لتكون مرجعا فى فضٍّ أى خَلاف .

(٥) الكاتب معذور لأنه يتحدث عن ترجمة القرآن التى رجع إليها لا عن القرآن ذاته . ومع ذلك فقد كان عليه أن يتريث ويتأكد من أن الترجمة التى بين يديه هى ترجمة دقيقة وأمينة ، ولكنه لم يفعل ، وهو ما يخالف الأمانة العلمية والمسؤولية الأخلاقية . أما الادعاء العريض بأن العقلية الحديثة لا يمكن أن تتنازل فترضى بما سماه « فوضى » فإن وقائع التاريخ تقوّضه ، فنحن جميعا نعرف أن أفذاذا من صنوف المثقفين فى العالم الغربى حين يتصلون بالقرآن اتصالا مباشرا يؤمنون به ويصبحون جنودا باسلين فى ظل رايته .

(٦) أود أن يرجع القارئ إلى التعليق ٢٠ على الفصل التالى ليرى الفرق بين موقف هذا المستشرق وموقف مونتيه من هذه القضية ، وكذلك ردّنا على هذا الأخير .

(٧) لقد سبق العلماء المسلمون إلى ذلك ، ولا أظن المستشرقين كانوا ليفكروا فى هذه المسألة لو لم يرَوْا علماءنا قد طرحوها وناقشوها وقدموا أكثر من ترتيب تاريخى للقرآن (انظر مثلا الترتيبات المختلفة التى أوردها صاحب كتاب « المبانى » المجهول فى « مقدمتان فى علوم القرآن » / نشر آرثر جفرى / مكتبة الخانجى / ١٩٥٤م / ص ٨ _ ١٥) .

(٨) لا ندرى ماذا يقصد الكاتب بكلامه هذا ، ولا على أى أساس يقوله .

(٩) إن المسألة أقرب من هذا ، وهى أن الأنبياء جميعا يبلّغون عن الله، والمستشرق نفسه يبدو أنه يعترف أحيانا بتلقى محمد الوحى عن ربه ، فلم الانتكاس هنا إذن ؟

(١٠) وهذه انتكاسة أخرى ، فهل عقيدة الألوهية ، وإسلام الوجه لله، ووصفه سبحانه بما يليق بذاته القدسية من صفات التعظيم والإجلال توجد فى الكتاب المقدس على نحو أجمل وأكمل مما هو فى القرآن ؟ (انظر التعليقين ٤ ، ٨ على الفصل التالى) .

(١١) ولا فى غير هذا الجو الحارق . وأوربًا نفسها ، وهى التى يغلب عليها البرد والثلوج ، مملوءة بالحدائق التى ربما لا يرتادها إلا الأفراد القلائل بين الحين والحين ، أفليس ذلك دليلا على أن الغرام برؤية الخضرة والماء وسماع شَدْو الطيور وخرير الجداول مركوز فى فطرة الإنسان أينما كان ؟ إن الخضرة والماء هما أهم وأَبيَن مظاهر الحياة التى نتعلق بها جميعا ونبغى كلنا الخلود فيها . إن المستشرق يوحِى من طَرْفٍ خفىّ أن الإسلام دينٌ عربى لا يلائم إلا النفسية العربية ، وأن جنّته قد رسِمتْ لإلهاب خيال العربى البدوى ، فإذا صح هذا فكيف دخلت كلٌّ هذه الأجناس المختلفة فيه إذن ؟

(١٢) يخطئ المؤلف هنا خطأ ليس بالهين ، إذ يتغافل عن أن القرآن ، برغم ما أورده من أوصاف للجنة ، يذكر أن الكون سيتخذ بعد القيامة شكلا جديدا [إبراهيم ٤٨] . بل إن بعض ما يصفه من متع الجنة ومسراتها ليبين بأجلى بيان أن قوانين العالم سوف تتبدل ، وإلا فأين تلك الفواكه التى لا هى مقطوعة ولا ممنوعة [الواقعة ٣٢ - ٣٣] ؟ ، وأين تلك الأخوة التى لا يعكر صفوها أبدا حقد ولا غلّ ؟ [الأعراف ٤٣] ؟ كما تصف بعض الأحاديث مثل هذه المتع بأنها « ما لا عين رأتْ ولا أذن سَمِعَتْ ولا خطر على قلبِ بشر » .

(١٣) الحمد لله أنه لم تكن له مثل هذه الحنْكة ، وإلا لما دخل فى الإسلام إلا أفراد آحاد ثم انطوى بانطواء حياتهم . لقد انتهى سقراط إلا فى كتب المتخصصين فى الفلسفة ، لكن اسم « محمد » ما زال يجلجل فى أرجاء العالم من بلاد اليابان إلى بلاد العم سام خمس مرات على الأقل كل يوم ، وهو ما يقضّ مضاجع الظلمة المستعمرين .

(١٤) تأمل هذه المغالطة ! إن أوربا يوم كانت تعتنق النصرانية كانت متخلفة وتعيش عيشة الهمج لا تعرف لرقة التحضر معنًى ولا تتذوق لها طعماً ، فلما تقدمت ، بفعل عوامل أخرى غير النصرانية ، نبذتها وراءها ظِهْرِيًا . أما العرب فقد أعزّهم الإسلام من بعد ذلة ، وأخذ بيدهم من تخلف البداوة إلى مدارج الحضارة ، فلما تخلَّوْا عنه عادوا كما كانوا تخلفا وضعفا ، وهذا ما يعرفه من درس تاريخ الديانتين .

(١٥) أين الدليل ؟

(١٦) لا بل كان أحسن منهم حظا ، وإلا فمن ذلك النبى الذى استطاع فى حياته أن ينجز ما حققه الرسول الكريم أو أن يثبِّت فى قلوب أتباعه الاحترام والإخلاص له وللدين الجديد كما فعل نبينا عليه صلوات الله وسلامه أو أن يهزم جحافل الشرك هذه الهزيمة القاتلة كما هزمها محمد عليه الصلاة والسلام ؟

(١٧) من أين استمد ذلك المستشرق هذا الكلام ؟ إن القرآن ليؤكد أنه هو العِيارُ على الكتب السماوية السابقة لأنها ، وإن أتت من ذات المصدر الإلهى ، فقد عبثت بها يد الزمن فى الوقت الذى بقى هو كما نَزَل لم يزد ولم ينقص حرفا .

(١٨) يمكن القارئ أن يرجع إلى الفصل الذى تناولنا فيه ترجمة مونتيه ليرى رأينا فى توجيه هذه الآية .

(١٩) ألا يوجد فيه قوانين للزواج والطلاق ، ولا للميراث ولا للتقاضى ، ولا للحرب والسلم ، ولا لمعاقبة الزناة واللصوص وقطاع الطريق؟ إن ذلك لزعم جرىء !

(٢٠) كنا نحب لو أن الكاتب قد ذكر آيات بعينها تتحدث عن النساء بطريقة مهينة بدلا من هذا التعميم الخطر .

(٢١) كان ينبغى على ذلك المستشرق ، بدلا من الشقشقة التى لا تجدى فتيلا فى تغيير الحقائق الصلبة ، أن يورد من القرآن ما يزعم أنه يسىء إلى المرأة ، ويورد من الكتاب المقدس وآراء آباء الكنيسة فى المرأة ما يملأ هو الصفحات ادعاء بأنه يرفعها إلى أعلى عليين ، ويقارن بين هذا وذاك ، ولكنه لم يفعل. ولكى ندرك مدى جرأته أذكِّر بما مرّ من اتهامه للرسول عليه الصلاة والسلام بأنه أخطأ فهم الثالوث النصرانى ، إذ ظن أن النصارى يعبدون ثلاثة آلهة . إننا سنكون سعداء لو أن النصارى أعلنوا بصريح العبارة

أنهم لا يعبدون عيسى عليه السلام ولا الروح القدس .

(٢٢) الكلام النظرى شىء ، والواقع شىء آخر . إن الشعر العربى الجاهلى مكتظٌ بالافتخار بشرب الخمر وفقدان العقل والمال والحياء بسببها. ولقد عشنا فى أوربا سنين فلم نجد من الجو أى دافع على شرب الخمر . كل الحكاية أن المستشرق لا يريد أن يعترف للنبى بهذا الفضل الذى لم يستطع مصلح آخر فى العالم أن يحرزه .

(٢٣) هل من حَقِّ مَنْ يقول هذا أن يدَّعى أنه قادر على دراسة الإسلام والحكم عليه وعلى نبيه العظيم ؟ هل الإسلام يخلو حقا من الكلام فى المسائل الغيبية ؟

(٢٤) غير عجيب ممَّن يدعى أن القرآن يحقر المرأة وأن محمدا إذا كان قد نجح فى فطم أتباعه عن الخمر فإنه لم ينجح فى فطمهم عن شهوات الجنس أن يزعم أن القرآن هو مجرد عاطفة ملتهبة تخنق كل تفكير . آلقرآن الذى أنكر أن يتساوى الذين يعلمون مع الذين لا يعلمون ، والذى أمر النبىَّ عليه السلام أن يكـون دعـاؤه : ﴿ رَبِّ ، زِدْنى عِلْمًا ﴾ ، والذى كان دائما ما يفحـم الخصـوم بقولــه : ﴿ هَلْ عِنْدَكم مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوه لنا ؟ ﴾ ، والذى يقول عن الظن إنه ﴿ لا يُغْنِى عَنِ الحقِّ شيئًا ﴾ ؟

الفصل الثانى

(مصادر القرآن(*))

ترجع المعارف الدينية القرآنية إلى ثلاثة مصادر : مصدر يهودى ونصرانى[١] أفاد منه محمد عن طريق الروايات الشفوية ، إذ من المؤكد تماما أنه لم تكن بين يديه كتب اليهود والنصارى . ثم هناك المصدر الجاهلىّ الذى يرجع إليه ما أُبْقِىَ عليه النبى من الشعائر الدينية . وهناك أخيرا العنصر الجديد الذى أتى به محمد ، وهو الإسلام .

والدين اليهودى ، فيما يبدو ، هو المصدر الرئيسى للعقيدة القرآنية. وهذا صحيح إلى الحد الذى نرى فيه كتَاب النبى ، بالنسبة لما فيه من عناصر مشتركة بين النصرانية واليهودية ، يخضع للتأثير اليهودى أكثر مما يخضع للتأثير النصرانى بحيث تكون الغلبة للصبغة اليهودية . ولا جَرَمَ ، فاليهود والعرب كلاهما من أصل سامى مما يرجح كفة التأثير العرقى . لقد تكونت فى النصرانية منذ دعوة عيسى ، وبالذات مع بعثة بولس الرسول ، المجموعة العرقية النصرانية وتطورت وانتهت بالسيادة على النصرانية . ومن ثم فقولنا : «الجنس النصرانى» معناه الوثنيون المتنصِّرون ، أى أتباع الإنجيل الذين ليسوا بساميين . وما اقتبسه محمد من اليهود إنما أخذه عن طريق المرويات اليهودية الشفوية ومن الهاجاداه ، أى الروايات الدينية ذات الأصل التلمودى أو الحاخامى[٢] . وهذه الاقتباسات كثيرة جدا ، وسوف يحكم القارئ عليها من خلال الهوامش التى ألحقناها بالنص المقدس[٣] . كذلك لا بد من الإشارة إلى أن وحدانية العهد القديم وحدانية مطلقة ، بل أكاد أقول : متوحشة كوحدانية القرآن[٤] . نص قرآنى واحد ربما كان مأخوذا على نحو مباشر من الكتاب المقدس ، إذ يقول محمد فى الآية ١٠٥ من السورة ٥١ : ﴿ولقد كَتَبْنا (أى الله) فى الزَّبُورِ من بَعْدِ الذِّكْرِ أنَّ الأرضَ يَرِثُها عبادىَ الصَّالحون﴾ ، وهذه الآية موجودة فى المزمور ٣٧/ البيت ٢٩/ المصراع الأولَ : «الصِّديقون يَرِثُون الأرض» . إلا أن هذا لا يعنى أن محمدا قد قرأ هذا المزمور ، إذ إن الرواية الشفوية استطاعت فى هذه الحالة ، كما فى غيرها، الاحتفاظ بنص المزمور .

---

(١) هذا الفصل هو ما جاء فى الصفحات من ٢٩ فصاعدا من المقدمة التى مهَّد بها إدوار مونتيه لترجمته التى درسناها فى الفصل الثانى من الباب الأول من هذا الكتاب .

كما تجدر الإشارة إلى أن النص القرآني لا ينقل الكلام حرفيا ، بل بالعكس يكتفى بأداء المعنى . أما بالنسبة للأصل اليهودى للصيغة الإسلامية المشهورة والنموذجية جدا : « لا إله إلا الله » فإنها تخضع للنقاش . لقد أريد ربطها بالصيغة المشابهة والمختلفة مع ذلك ، الموجودة في المزمور ١٨/ البيت ٣٢ (المكررة في صموئيل الثانى/٢٢/ ٣٢) : « لأنه مَنْ هو إله غير يهوه؟ » . الشيء الوحيد الذى يمكن تأكيده هو أن لدينا فى الإسلام والعهد القديم صيغتين متقاربتين ومتجاورتين عن وحدانية الله ، إلا أنه لا دليل على أن ذاك قد اعتمد على هذا أو أخذ عنه. وإلى العهد القديم لا غيره تُرَدّ الشهادة التى يعتَقَد بوجودها فى شعر أمية بن أبى الصلت المعاصر لمحمد (ت ٦٣٠م) . لقد كان أمية يرتدى المسوح ، ولم يكن يشرب الخمر أو يعبد الأوثان . وكان قد قرأ « الكتب » ، ويبدو أنه كان يعرف المعتقدات اليهودية والنصرانية . ولكنه ، برغم ذلك ، ظل كافرا حتى وفاته فى السنة الثامنة للهجرة . وأشعاره تتناول موضوعات مقتبسة من اليهودية والنصرانية ، وهذه الأشعار قد احتفظ لنا بها مؤلف كتاب « بدء الخلق والتاريخ » مطهر بن طاهر المقدسى ، الذى عاش فى القرن العاشر الميلادى . ففى هذه الأشعار مقطوعات تذكّرنا ، بطريقة تكاد تكون حرفية، بالنصوص القرآنية المماثلة عن النبى صالح وناقته ، وقصة لوط ، والطوفان ، واليوم الآخر، والجنة والنار. إن التشابه لمن القوة بحيث تصبح هذه المقطوعات محل ريبة شديدة ، ويضحِى مصدرها القرآنى فوق كلّ جدال .

أما بالنسبة للعهد الجديد بوصفه مصدرا للقرآن فإن معرفة محمد به قد تمّتْ عن طريق الرواية الشفوية بخاصة . وكثير من النصوص القرآنية التى تتعرض للقصص الإنجيلى تتصل بالأناجيل المعتمَدة ، لكن محمدا كثيراً ما كان يستمد أيضا من الأناجيل غير المعتمدة ما يرويه من أحداث وقصص.

والنص القرآنى الوحيد الذى يورد شهادة عيسى لمحمد ليس موجودا لا فى العهد القديم ولا فى الروايات غير المعتمدة للعهد الجديد ، وهذا النص موجود فى الآية ٦ من السورة ٦١ حيث يقال إن عيسى قد ذكر أن الله سوف يرسل بعده نبيا اسمه أحمد (محمد) . وهو ليس إلا رواية إسلامية صرفا لا صلة بينها وبين إنجيل يوحنا (١٥/ ٢٦ - ٢٧) ، الذى يقول عيسى فيه إن الله سيرسل الفارقليط ، أى الروح القدس(٥) .

فهذا الأساس اليهودى والنصرانى يشكل المصدر الأول للقرآن .

أما المصدر الثانى فهو الأساس الجاهلى ، وإليه يرجع الاعتقاد فى الجن (الصالحين منهم والأشرار) وتقديس الكعبة ، والقصص المتعلقة بعاد وثمود ... إلخ . لقد احتفظ محمد من الوثنية العربية القديمة بالحج إلى مكة(٦) بكل ما كان يتصل به من شعائر ، وذلك بعد أن خلع عليه طابعًا روحيا ، أى صبغة توحيدية . كذلك يمكننا أن نرد إلى الوثنية العربية عقيدة القدر ، التى تَرِد فى عدد من النصوص القرآنية .

وأخيرا يأتى المصدر الإسلامى الصرف ، وهو الأفكار الجديدة التى أضافتها عبقرية محمد الدينية (٧) مما نعرضه فيما يأتى .

المضمون القرآنى

لن نناقش فى هذه الفصل المضمون القرآنى بكل تفاصيله لأن مثل هذا الأمر بما فيه من العقائد والشعائر والتشريعات أكبر تماما من أن يناسب هذا المدخل ، ولذلك فلن نشير إلا إلى أهم وأبرز ما فى المضمون القرآنى من نقاط .

إن محمدا ، الذى كان عبقرية دينية وإصلاحية بكل ما لهذه الكلمة من معنى ، لم يكن لاهوتيا ، مَثَلُه فى هذا مَثَلُ كثير غيره من المصلحين الدينيين . وعبثا يحاول الباحثون أن يجدوا فى القرآن لاهوتا إسلاميا . إلا أن محمدا ، شأنه شأن كبار المصلحين الدينيين ، كان منظِّما ، إذ لا يستطيع أحدٌ التطلع إلى القيام بدور المصلح الدينى ما لم يتمتع بعبقرية تنظيمية ، وإن الحياة الدينية لشعبٍ ما لا تتغير إلا بشرط إقامة صرحٍ اعتقادى جديد . ولأن محمدا كان يتمتع إلى حدّ بعيد بعبقرية التنظيم الاجتماعى والدينى فقد استطاع ، فى ذات الوقت الذى كان يقوم فيه بإصلاحه الدينى ، أن يضع الأساس التشريعى .

والواقع أن للقرآن صبغة تشريعية بارزة ، فهذا الكتاب الشهير يفتقر إلى الطابع الصوفى(٨) . إن فيه الصبغة التشريعية الموجودة فى العهد القديم ، بل إلى مدى أبعد ، وذلك لما يظهر فى قوانينه قبل أن تأخذ شكلها النهائى من نزعة تحيُّنية . ولا بد من القول بأن محمدا إذا كان قد سنّ ، باسم الوحى الذى كان ينزل عليه ، التشريعات

الدينية والأخلاقية فليس فى هذا الكتاب ما يدل قط على ادعائه أنه قديس ، فهو فى الآيتين ١ ـ٢ من السورة ٤٨ يقول : ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا * ليغفر لك الله ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر ويتمَّ نعمته عليك ويَهْدِيَك صراط مستقيما ﴾ ، وإن رجلا يقول هذا ليس بالذى يدَّعى أنه بلا خطيئة[٩]. لقد كان محمد يعد نفسه وارثا لمن سبقه من الآباء والأنبياء من آدم ونوح وإبراهيم خليل الله إلى عيسى الذى أتى قبله مباشرة . وقد أثنى على عيسى بن مريم رسول الله وكلمته الذى لم يصلَب إلا ظاهريا ، إلا أنه برغم قبوله المرويات النصرانية فى خطوطها العامة قد ثار ثورة عارمة السخط على عقيدة التثليث (المكونة ، على حسب فهمه ، من الله وعيسى ومريم) [١٠]، وعلى تأليه عيسى وأمه . ويلخِّص محمد تعاليمه فى النصين التاليين : ﴿ آمن الرسولُ بما أُنزل إليه من ربه والمؤمنون : كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ﴾ [سورة٢/ آية ٢٨٥] و ﴿يا أيها الذين آمنوا ، آمِنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزَّل على رسوله والكتاب الذى أنزلَ من قبل . ومن يكفُر بالله وملائكته وكتبه ورُسُله واليوم الآخرِ فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً﴾ [سورة٤/ آية ١٣٦] . ويتلخص المعتقد القرآنى فى التأكيدات التالية ، وغنىٌّ عن القول أن كثيرا منها مستمدَّ دون شكِّ ممن تقدمه من اليهود والنصارى :

١ ـ وحدانية الله . وهذه العقيدة تكتسب فى القرآن قوة وجلالا لا يضارَعان .

٢ ـ نبوة محمد ، أى أنه رسول الله كلَّفه ربه بدعوة الناس إلى الوحدانية ، التى هى جوهر الدين ذاته .

٣ ـ الإيمان بالملائكة والشياطين .

٤ ـ الإيمان بالحياة الأخرى ، أى البعث والحساب والجنة والنار .

وهذا الدين لم يَدْعُ ، من ناحية كونه ديانة « توحيدية » ، إلى شىء غير موجود فى الديانات التوحيدية الأخرى ، لكن الذى دعا محمد العرب إليه بوصفه شيئا جديداً مدهش الأصالة بالنسبة للعبقرية العربية قد سماه النبى الجديد « الإسلام » ، أىْ دين الخضوع للمشيئة الإلهية . وفكرة الاستسلام هذه مشتركة بينه وبين النصرانية ، إلا أنها تبرز فى القرآن بروزا لا تعرفه هذه الديانة .

وقد استَبْقَت الأخلاقُ القرآنية من التقاليد العربية القديمة الرقَّ وتعدُّدَ

الزوجات [١١] ، وإن قيدت هذا وخففت ذاك . كما هذب محمد الطلاق، وحسّن أحوال المرأة وأوضاع الرقيق . ومن الأحاديث التى تُنسَب للنبى فى هذا الشأن هذه الكلمة الرائعة : « ما خلق الله شيئا أحب إليه من عتق الرقبة، وما أبغض شيئا بغضه للطلاق » . كما قضى الإسلام على القرابين البشرية، ووأد البنات ، وشرب الخمر وكل ما أسكَر ، ولَعب الميسر الذى كان عادة متأصلة لدى العرب . ولقد أحدثت هذه الإصلاحات درجات عالية من الرقىّ بحيث يمكن أنْ نعد محمدا واحدا من أكبر المحسنين إلى البشرية ، بل إن تحريمه المطلق لوأد البنات لكافٍ وحده لتخليد اسمه فى تاريخ عصره.

وهناك فى التوجيه القرآنى مسألتان ذواتا أهمية خاصة ، وكلتاهما تستحق أن تُفرَد بالإشارة لأهميتها من الناحية الدينية ، وأيضا لكى نثبت أن العقيدة الإسلامية فى القرآن لم تأخذ قطّ شكلها النهائى [١٢] : المسألة الأولى هى مسألة الجبر والحرية الإنسانية . فالجبر قد أكده القرآن فى مواضع عدة ، وبخاصة فى النص الشهير التالى : ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ [سورة ٣٧/ آية ٩٤]، بمعنى أن الخير والشر هما قضاء وقدر كما يقول علماء الكلام المسلمون . ولكن إذا كنا نستطيع أن نستشهد ، على عقيدة الجبر ، بكثير جدا من النصوص القرآنية فإن القرآن فى هذه المسألة غير حاسم تماما ، إذ إن كثيرا من نصوصه تؤكد أيضا عنصر الحرية الأخلاقية . ولن أستشهد هنا إلا بنصين اثنين شديدَى الوضوح : النص الأول هو : ﴿إنّا عَرَضْنا الأمانةَ على السماوات والأرض والجبال فأَبَينَ أن يَحملْنها وأشفَقْن منها وحَمَلَها الإنسانُ. إنّه كان ظلوماً جهولا ﴾ [سورة ٣٣/ آية ٧٢] . فالإنسان إذنْ قد تحمل الأمانة بملء حريته ، وإذا كان قد أصبح ظلوما فلأنه نقض كلامه أيضا بإرادته . أما النص الآخر فيقول : ﴿ وإذْ أخذ ربُّك من بنى آدم من ظُهورهم ذُرّيّتَهم وأشهَدَهم على أنفُسهم : ألَسْتُ بربكم ؟ قالوا : بلَى شَهِدْنا ، أن تقولوا يوم القيامة : إنّا كُنّا عن هذا غافلين ﴾ [سورة ٧/ آية ١٧١] ، ومعناه أن الله قد استدعى إليه فى وقت ما كل الأجيال المستقبلة التى ستخرج من صلب آدم ليجعلهم يأخذون على أنفسهم بإرادتهم ميثاقا على الطاعة ، وأنه مذكّرهم فى اليوم الآخر بهذا الميثاق الذى نقضوه ، ومستشهد عليهم بما قالوه هم أنفسهم . فهذا النص يصبح بغير معنى إذا لم يكن يشير إلى الحرية الأخلاقية .

أما المسألة الثانية فهى مسألة الحياة الآخرة . ذلك أن الحساب الإلهى يقسم الناس حسبما جاء فى القرآن إلى ثلاث طوائف : فأما الأولون ، وهم الذين لم يعتنقوا الإسلام، فهؤلاء مصيرهم الى النار [سورة ٢/ آية ٣٧ ، وسورة ١١/ آية ١٠٨ ... إلخ] . وأما الآخرون ، وهم الذين آمنوا بوحدانية الله ولكنّ معاصيهم حالت بينهم وبين الجنة ، فهؤلاء عليهم أن يتطهروا أولا من خطاياهم فى جهنم ، التى هى بالنسبة لهم مطهر حقيقى [سورة ٦/ آية ١٢٨ ، وسورة ١١/ آية ١٠٩ ...إلخ] . ثم الصفوة القليلة العدد ، وهؤلاء يدخلون الجنة مباشرة .

إن عقيدة الحشر تحظى بأعظم أهمية فى القرآن ، فكثيرة جدا هى النصوص المتعلقة بيوم الحساب والنار والجنة ، وإن الدور الذى تقوم به العقائد الأخروية فى هذا الكتاب المقدس لتجعلنا ننظر إليه بوصفه كتابة رمزية . إن القرآن يصور الجنة والنار تصويرا ماديا غليظا ، سواء فى ذلك الجحيم والماء الحميم الذى يتجرعه الأشقياء من جهة ، أو أنهار الجنة وأشجارها من جهة أخرى ، وكذلك السعادة الخالدة للمجدودين . ومن المفيد أن نستشهد ببعض النصوص الكلاسيكية في هذا الموضوع ، وهذه هى النصوص الخاصة بالنار : ﴿ وأصحابُ الشّمال، ما أصحابُ الشّمال ؟ * فى سَمومٍ وحميم * وظِلٍّ مِنْ يَحْمُوم * لا باردٍ ولا كريم ﴾ [سورة ٥٦/ آية ٤٠ ـ ٤٣] ، ﴿ تَصلَى ناراً حاميةً * تُسقَى مِنْ عينٍ آنية * ليس لهم طعام إلا مِن ضَرِيع ﴾ [سورة ٨٨/ الآيات ٤ ـ ٦] ، ﴿ ثُمّ إنكم أيها الضالّون المكذّبون * لآكلون مِن شجرٍ من زقّومٍ * فمالئون منها البُطونَ * فشاربون عليه من الحميم * فشاربون شُرْبَ الهِيم ﴾ [سورة ٥٦ / الآيات ٥٢ ـ ٥٤)، ﴿ سأُصْلِيه سَقَرَ * وما أدراك ما سَقَرُ؟ * لا تُبقِي ولا تَذَرُ * لواحةٌ للبَشَر ﴾ [سورة ٧٣/ الآيات ٢٦ ـ ٢٨] ، ﴿ لا يذوقون فيها برداً ولا شرابا * إلا حميما وغسّاقا ﴾ [سورة ٧٨/ الآيات ٢٤ ـ ٢٥].

أما النصوص الخاصة بالجنة فتقول : ﴿ مَثَلُ الجنّة التى وُعِدَ المتّقون فيها أنهارٌ من ماءٍ غير آسِن ، وأنهار من لبنٍ لم يتغير طعمه ، وأنهارٌ من خمرٍ لذّةٍ للشاربين ، وأنهار من عسلٍ مصفّى ، ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربّهم ﴾ [سورة٤٧/ آية ١٥] ، ﴿لا يرَوْنَ فيها شمساً ولازمْهريرا﴾ [سورة ٧٦/ آية١٣] ، ﴿ فأصحابُ الميمنَة ما أصحاب

الْمَيْمَنَةِ ؟ * ... * فى جنّات النعيم * ثُلّةٌ من الأولين * وقليلٌ من الآخِرين * على سُرُرٍ مَوْضونةٍ* متكئين عليها متقابلين * يطوفُ عليهم وِلدانٌ مخلّدون * بأكوابٍ وأباريقَ وكأسٍ من مَعِين * لا يُصَدَّعون عنها ولا يُنزِفون * وفاكهةٍ مما يتخيرون * ولحمِ طَيْرٍ مما يشتهون * ... * فى سِدْرٍ مخضود * وطَلْحٍ منضود * وظِلٍّ ممدود * وماءٍ مسكوب * وفاكهةٍ كثيرة ﴾ [سورة ٥٦/ الآيات ٨ ، ١٢ ـ ٢١ ، ٢٧ ـ ٣١] ، ﴿متكئين على فُرُشٍ بطائنُها من إستبرقٍ ، وَجَنَى الجنتين دان * فبأىِّ آلاء ربكما تكذبان ؟* فيهنَّ قاصراتُ الطَّرْف لم يَطْمِثْهنَّ إنسٌ قبلَهم ولاجانٌّ ﴾ [سورة ٥٥/ الآيات ٥٤ ـ ٥٦]، ﴿ إنا أنشأناهنَّ إنشاءً * فجعلناهن أبكارا * عُرُبًا أترابا * لأصحابِ اليمين ﴾ [سورة ٥٦/ الآيات ٣٤ ـ ٣٧] .

أكان محمد ، وهو يصور الجنة والنار هذا التصوير البارز الذى يستولى على الخيال ، يعتقد فى حسّية هذه الأوصاف ؟ أهذه اللغة المجازية التى يبدو أنها تعبر عن مثل هذه الأفكار الغليظة الشهوانية يمكن ألا تكون ، على العكس ، سوى ترجمةٍ لمفهوم أنقى وأسمى صيغت فى أسلوب شعبى يناسب عقول الدهماء ؟ (١٣) إن من المستحيل الإجابة على هذا السؤال . كل ما يمكن قوله هو أن هذه النصوص التى استشهدنا بها والتى يدور حول معناها كثير من المناقشات بين المفسرين المسلمين تؤخذ على حرفيتها لدى أعداد كثيرة من المحمديين بل بين الغالبية العظمى منهم .

ويبقى عنصر أخير من الإسلام القرآنى ينبغى ذكره ، وهو العبادات والشعائر التى قررها محمد ، وهذه الشعائر أو الواجبات العبادية عددها خمس :

١ـ الطهارة ، وصورتها العملية هى الاغتسال بالماء أو استعمال الرمل عند فقدانه ، وهى مفروضة فى عدد كبير من الحالات [سورة ٤/ آية ٤٦ ، وسورة ٥ / آية ٩ ... إلخ] .

٢ـ الصلاة ، التى يجب أداؤها مرات متعددة فى اليوم بل فى الليل أيضا فى أوقات محددة ، وعلى نحو مخصوص [سورة ١١/ آية ١١٦ ، وسورة ١٧/ الآيات ٨٠ ـ ٨١، وسورة ٥٠/ الآيتان ٣٨ ـ ٣٩ ... إلخ]. ولكن ما من نص فى القرآن يحدد الصلوات الخمس التى عينتها السنّة فيما بعد .

٣ - الزكاة ، التى تتخذ شكل ضريبة دينية تُعْطَى ﴿ للوالدّين والأقربِين واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ [سورة ٢/ آية ٢١١] أو حقٌ إلزامى شرعى [سورة ٩/ آية ٦٠ ، وسورة ٥٨/ آية ١٤] أو برٌ يُدّخر عند الله [سورة ٣/ آية ٨٦ ، وسورة ٣٠/ آية ٣٨ ، وسورة ٥٧/ الآيات ٧ - ١٠ ، وسورة ٦٣ / آية ١٠ ، وسورة ٦٤ / الآيتان ١٦ - ١٧] .

٤ - صيام رمضان [سورة ٢ / الآيتان ١٨٠ - ١٨١] .

٥ - الحج إلى مكة [سورة ٢/ الآيتان ١٩٢ - ١٩٣] .

أما بالنسبة للجهاد المقدس ، أو الحرب ضد الكفار ، فالإشارة إليه كثيرة فى القرآن [سورة ٢ / الآيات ١٨٦ - ١٨٧ ، ٢١٢ - ٢١٥ ، وسورة ٩/ آية ٣٦ ... إلخ].

تكون القرآن

محمد والقرآن : كان محمد ، حسب المرويات الإسلامية ، يكتب نصوص الوحى التى يتلقاها على أول شئ يصادفه : سعفة نخل ، أو قطعة من الجلد ، أوكتف شاه أو لوح ... إلخ ، سواء أكان حقا يُوحَى إليه (وكثير من صفحات القرآن يدل فعلا على وجود الوحى) أم كان يكتب النصوص التشريعية ، وهى كثيرة فى النص المقدس، عن رويّة وتفكير . وكثيرا ما كان كلامه ، بوصفه نبيا للعرب ، يقتصر تسجيله على ذاكرة الحاضرين معه . وقد خلّف عند وفاته مجموعة من النصوص المكتوبة على شكل مهوّش ، وكنزا من الأقوال المحفوظة التى لم تكن أفضل حالا (١٤) . فمن المؤكد إذن أنه كان يوجد فى أوائل الإسلام بعد وفاة النبى ، وربما أيضا أثناء حياته فى آخر سِنِى دعوته ، ما يمكننا تسميته « معرفة شعبية بالقرآن » .

جَمْع القرآن : من المؤكد أن نصوص القرآن المتفرقة قد جُمِعَتْ فى وقتٍ جدٌ مبكرٌ بعد وفاة محمد . ويبدو من المحتمل جدا أنه كان هناك بُعَيْد وفاته (أى فى وقتٍ مبكر جدا قبل مصحف عثمان ، الذى يمكن القول بأنه هو النسخة الرسمية لهذا الكتاب المقدس) مصاحفُ متنوعة حاول أصحابها أن يجمعوا القرآن ، إذ استطاع أشخاص مثل على ، صهر النبى ، وغيره من الصحابة المقربين إلى محمد أن يكتبوا مثل هذه

المصاحف أو يتملكوها . وقد بقيت آثار من هذه المصاحف القرآنية الأولى . وحسب الروايات الإسلامية فإنه فى السنة الحادية عشرة أو الثانية عشرة للهجرة (٦٣٢ / ٦٣٣م) وفى معركة اليمامة سَقَطَ كثير من المسلمين الذين كانوا يوعون فى صدورهم نصوصا من هذا الكتاب المقدس ، فدفع الخوف أبا بكر الخليفة الأول ، بتحريض من عمر ، إلى أن يكلف زيدا كاتب محمد بجمع ما كان يشكل فى ذلك الوقت (٦٣٣م) النص القرآنى . الجمع الأول إذن ، حسب هذه الروايات ، هو من عمل زيد . وفى العشرين عاما التى انقضت بين وفاة محمد وكتابة مصحف عثمان (٦٥١م) تتابعَ ظهور أربعة مصاحف اشتهر كل منها باسم الشخص الذى اقترن به ، وهذه المصاحف هى مصحف أُبَىّ بن كعب ، ومصحف عبد الله بن مسعود ، ومصحف أبى موسى الأشعرى ، ومصحف المِقْداد بن الأسود . ولاريب أنه كانت هناك مصاحف أخرى اختفت آثارها .

مصحف عثمان : لقد كان عثمان الخليفةُ الثالث هو الذى أمر بكتابة النسخة النهائية والرسمية للمصحف ، تلك النسخة التى تضم نص هذا الكتاب المقدس كما نزل(١٥) . وقد أثارت المصاحف القرآنية التى كانت موجودة إبانئذ الشكوك فى عقول المسلمين من جراء عدم تطابقها مما كان من شأنه أن يزعزع إيمانهم .

وقد وُلِدَتْ بعد ذلك ببضع سنوات أول الدراسات النحوية للغة القرآنية ، وكان أبو الأسود ، الذى تقول الروايات عنه إنه تعلم مبادئ اللغة العربية على الخليفة علىّ المنسوب إليه تقسيم الكلام إلى فعل واسم وحرف ، هو أول من فكر فى أن يكتب نحوا للغة القرآن بعد أن سمع فى أحد المساجد من يقرأ آيات من القرآن قراءة خاطئة . لقد سمع أبو الأسود هذا القارئ يقرأ الآية الثالثة من السورة التاسعة وهى : ﴿ إن الله برىء من المشركين ورسولُه ﴾ ومعناها أن الله ورسولُه بريئان من المشركين ، لكن القارئ الجاهل نطقها : « ورسولِه » بدلا من « ورسولُه » ، فصاح أبو الأسود عند سماعه هذا اللحن قائلاً إنه لم يكن يظن أن مثل ذلك يمكن أن يقع . فأخطاءٌ مثل هذه ، وكذلك اختلافات المصاحف فيما بينها ، سواء كان ذلك خطأ أم سهواً من القُرّاء والنُّسّاخ ، هى التى دفعت إلى كتابة مصحف عثمان . لقد أصبحت المصاحف المختلفة الموجودة فى ذلك الحين مثار مناقشات بين أتباع النبى ، وبدا أن ثمة خطراً يهدد الإسلام الوليد ،

فكان لابد لسلطةٍ مطلقةٍ أن تحافظ على الأمن فى هذه الأرض المقدسة ، وكان الخليفة لاغيره هو الذى يمكنه هذا .

وتقول الروايات الإسلامية إن الخليفة قد عيَّن لجنة لحل هذه المشكلة تكونت من زيد وثلاثة قرشيين بارزين هم عبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن ابن الحارث . وإلى هؤلاء الأشخاص يرجع الفضل فى كتابة المصحف الذى أصبح هو العمدة منذ ذلك الحين ، أما المصاحف السابقة فقد تم التخلص منها . وترجع تاريخ هذه الأحداث إلى السنة الثلاثين للهجرة (٦٥٠م) أو على الأقل إلى ما قبل وفاة عثمان (٣٥هـ/ ٦٥٥ م) . ويمكننا بسهولة أن نتخيل ما قامت به تلك اللجنة ، ولسنا بحاجة إلى القول إن عملها كان يفتقر إلى الحسّ النقدى افتقاراً تاما ، بل يبدو أنه كان يتلخص فى كتابة نسخة من المصاحف الموجودة فى ذلك الحين ، وربما لم يعد هذا العمل جَمْعَ كل النصوص المنسوبة إلى النبى لا الانتقاء من هذه الوثائق الثمينة . وإن ما نعرفه عن مجموعات الأحاديث التى كُتِبَتْ فى وقت لاحق يميل بنا إلى الاعتقاد بأن تسجيل أحاديث محمد المكتوبة قد تم على النحو ذاته [١٦] . وباختصار فإن المصحف الذى جمعه عثمان ليس نسخة أصلية أو جديدة للنص القرآنى بل مجرد نسخة أخيرة لهذا الكتاب المقدس لايميزها عن غيرها من النسخ السابقة إلا صبغتها الرسمية حيث إنها كتبت بأمر من الخليفة .

أما بالنسبة لترتيب السور فى المصحف العثمانى فقد قام على أساس طول السُّوَر لا غير مبتدئا بالسور الأطول ومنتهيا بالأقصر [١٧] . ولايشذ عن ذلك إلا السورة الأولى التى لا تعدو فى الواقع أن تكون صلاة . أما السُّوَر ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ التى تأتى فى ختام المصحف فإن أولاها ، التى تتحدث عن وحدانية الله ، هى إعلان للعقيدة الإسلامية ، كما تعدّ الأُخْرَيَان صياغة نهائية للعمل بأجمعه . وهما مكتوبتان بنفس الأسلوب ، وكلتاهما تتخذ طابع الدعاء .

الترتيب التاريخى للسُّوَر

فى مصحف عثمان تختلط السور المكية (وعددها تسعون) والسور المدنية (وعددها أربع وعشرون) ، إذ لا يقوم هذا المصحف على أى ترتيب تاريخى. وهناك روايات جدُّ قليلة عن السُّوَر المدنية (بعضها من النوع التاريخى، والآخر من النوع التفسيرى) تعزو هذه السورة أو تلك إلى هـذا الحدث أو ذاك ، مثل السورة الثامنة التى تتصل بغزوة بدر [آية ٦] ، إلا أن هذه الروايات عموما لا تصدق إلا على آيات فى أوائل السورة . وهى من ناحية أخرى لها فى الأغلب طابع تفسيرى ، ومن هنا تقل قيمتها . ومن بين القوائم الأولى التى ينْسَب إليها أهمية تسجيل الترتيب التاريخى للسُّوَر تحتل قائمة كتاب «الفهرست» مركزا خاصا بوصفها أهم هذه الوثائق . ونحن للأسف لا نعرف إلا القليل جدا عن مؤلف هذا الكتاب أبى الفرج محمد ابن إسحاق بن أبى يعقوب النديم الوراق (ببغداد) ، لكن كتابه المسمَّى بـ«الفهرست» هو أهم المصادر التى بين أيدينا لأقدم تاريخ للأدب العربى . وهذا الثبت الضخم قد تم تأليفه فى عام ٣٧٧ هـ (٩٨٨م) ، وقد مات مؤلفه بعد ذلك بثمانى سنوات فى ٣٨٥ هـ (٩٩٥م) .

وبناءً على ما جاء فى « الفهرست » هناك خمس وثمانون سورة مكية، وثمان وعشرون مدنية ، فيكون المجموع مائة وثلاث عشرة سورة ، فمن المحتمل ، بناءً على هذا العدد ، أن السورة الأولى التى هى عبارة عن صلاة لا تُعَدّ سورة . وقد يصدق هذا أيضا على السورة الأخيرة (رقم ١١٤) . وتقوم رواية « الفهرست » الخاصة بالترتيب التاريخى للسور ، مثل جميع الروايات المشابهة التى بين أيدينا ، على سلسلة من الرواة المشهورين أو المبجّلين . وهى ، على التحقيق ، تتعلق بخبر رواه الواقدى (٧٤٧م - ٨٢٣م) عن معمر بن رشيد عن الزهرى عن محمد بن النعمان بن بشير. ولأن من المستحيل التوصل إلى رأى بشأن مثل هذه الروايات المتتابعة (وهو ما يصدق على جميع الروايات المتعلقة بترتبيب السور تاريخيا) فإننا لا يمكننا من الناحية العلمية الوصول إلى أية نتائج محققة لهذه التأكيدات الروائية . وهناك طريقة أضمن من هذه الروايات المهتزة والمتناقضة يمكننا بها أن نتثبت الى حد ما من الترتيب التاريخى للسور ، ألا وهى الاعتماد على لغة القرآن وأسلوبه ، وهو ما استعنّا به أكثر من مرة [١٨] . وقد اقترح نولدكه تصنيفا تاريخيا للسور سوف نعرضه مع التحفظ الشديد بالنسبة لما فيه من

تأكيدات لأننا فى الواقع لانعتقد فى إمكان القيام بترتيب تاريخى دقيق للسور، بل لا يمكن فى رأينا الحديث ، بالنسبة لترتيب السور، إلا عن ترتيب نسبى ، أى سلسلة مما تشكّله السور من مجموعات مختلفة ، إلا أن لنولدكه الفضل الأكبر فى إرساء المبادئ السليمة لتصنيف القطع القرآنية .

السُّوَرُ المكية

لقد كان الهدف الذى وضعه محمد نصب عينيه ، كما تعكسه السُّوَر المكية ، هو قبل كل شيء إدخال العرب الوثنيين فى حظيرة الإيمان بإلهٍ واحدٍ وما يتصل بذلك من عقائد كالبعث والحساب . وفى هذا الجزء من القرآن لايتجه محمد بالكلام إلا إلى الوثنيين ، الذين يهاجم وثنيتهم ويهددهم بالعذاب الأبدى . وهو لا يتحدث إلا نادرا عن اليهود ، الذين كانوا مع ذلك أقرب إليه كثيرا ، أما النصارى فلا يكادون يُذْكَرون . وفى هذه القطع يعبّر محمد عن أفكاره بأسلوب حماسى، ويتألق خياله بأغنى التصاوير ، وبخاصة عندما يصف نعيم الجنة وعذاب الجحيم .

ويفرق نولدكه بين ثلاث مجموعات مختلفه من السور المكية أَقْدَمُها مكتوب بأسلوب عاطفى ملتهب ، وأحدثها يقترب فى تأليفه من السور المدنية . ولاجرم فى هذا، فإن السور المدنية ، كما سنرى فيما بعد ، تقترن بنضج الفكر وبما طرأ على الإسلام من تطور ، وهو ما يختلف بوضوح عن التصورات الأولى المندفعة المتحمسة لبدايات الإصلاح الإسلامى .

المرحلة الأولى من السور المكية : وهذه السور عموما متوسطة الطول ، فمن ثمانٍ وأربعين هناك ثلاث وعشرون آياتٌ كلٌّ منها أقل من عشرين آية، وأربع عشرة آياتٌ كلٌّ منها أقل من خمسين ، وهى أوائل ما نزل على محمد من الوحى . وهذه المرحلة هى مرحلة التحمس العاطفىّ واللغة الشاعرية الموقّعة ذات الصور الفخمة البارعة . وفى هذه السور نسمع الله يتحدث كما هو الحال لدى أنبياء العهد القديم ، ويُكثِر محمد من استخدام صيغ القَسَم المختلفة للبرهنة على صدق دعوته .

المرحلة الثانية للسور المكية : وفى هذه السُّوَر التى تشكّل معبرا بين المرحلتين المكية الأولى والثالثة لا نعود نشاهد الحماسة التى فى سور المرحلة الأولى ، إذ ننتقل من

الانفعال القديم إلى الهدوء الذى كان لا بد أن يتلوه، وتطول الآيات ، وتقل الشاعرية ، وتختفى الصيغ اللغوية القديمة، ولايكون القَسَم إلا بالقرآن والكتاب .

المرحلة الثالثة للسور المكية : وفيها يستخدم محمد أسلوبا أكثر نثرية . وإذا كانت الفواصل لا تزال موجودة فليس معنى ذلك أننا أمام نثر مُوَقَّع ، أما الأسلوب ففيه إهمال وتكرار كثير (١٩) . وتشير السورة الثالثة والتسعون ، وهى آخر ما نزل فى هذه المرحلة ، إلى هذه التكرارات : ﴿ الله نَزّل أحسنَ الحديثِ كتاباً متشابهًا مَثَانِىَ ﴾ [آية ٢٤] . بل إن قراءة النص لَتُصْبِحُ أحيانا مرهقة (٢٠) . صَحيح أنه لا تزال هناك لمحات من عبقرية المصلح ، لكنها قليلة . ونحن هنا على عتبة المرحلة المدنية .

السُوَر المدنية

وفى هذه السور يتحدث محمد بوصفه رئيسا دينيا وسياسيا ، وفيها أيضاً ينبغى أن نبحث عن أصول الخلافة ، إذ تتناول المسائل المدنية والعبادِيّة . ولقد كانت الظروف مواتية لمحمد فاستطاع أن يصدر القوانين الأساسية لما يمكن تسميته بالدستور الجديد للجزيرة العربية (٢١) ، وهذه القوانين تذكّرنا بالحكومة الإلهية اليهودية . أما الأسلوب فهو نفس الأسلوب فى سُوَر المرحلة المكية الثالثة . وإذا كانت الفاصلة لا تزال موجودة فذلك راجع إلى العادة ، أما الآيات فهى طويلة بل طويلة جدا فى بعض الأحيان . ويستعمل محمد ألفاظا جديدة للأفكار الجديدة التى كان يقذف بها والتى كان يعبِّر عنها أيضا بأسلوب جديد . فهذه هى الملامح الرئيسية التى يمكن استخراجها من مجموعات السور الأربع التى صنفها نولدكه . وإذا كان واضحًا لنا أن نولدكه قد وضع مسألة الترتيب التاريخى للسور ، وهى مسألة صعبة ، فى موضعها الحقيقى ، فليس أقل وضوحا فيما نعتقد أن كثيرا من الملامح المميزة قد أُبْرِزَتْ أكثر مما ينبغى ، وأن الفوارق بين المجموعات المختلفة (ما خلا السور المدنية لأنها قائمة برأسها) هى بالتالى مبالَغ فيها، وأن شيئا من التعسف يسيطر فى النهاية على هذا التصنيف التحكمى . إن ما يقوم عليه هذا الاعتراض هو أن كثيراً من السور (كالسور ٥ ، ١٩ ، ٧٣ ... إلخ) مكوّن من أجزاء مختلفة تنتمى إلى أكثر من مرحلة ، وليس هذا بالذى يسهّل حل المشكلة المتعلقة بتاريخ السور . فهذه السُوَر التى تفتقر إلى الوحدة والتى تتركب كل منها من

أجزاء متنوعة توضح لنا ، أكثر من أى شىء آخر، سرّ ما نجده فى الأفكار من تناقضات، وفى بعض النصوص من اضطراب ، وأيضا ما فى الأسلوب من تفكك [٢٢] مرت الإشارة إليه .

لغة القرآن ونصّه وصياغته الأدبية

لغة القرآن هى العربية القديمة ، بل يمكننا القول إلى حدّ ما ، إذ ينبغى ألا نُغْفِل القصائد الجاهلية الخالدة ، إن القرآن قد ساهم مساهمة كبيرة فى تثبيت اللغة المكتوبة . والشىء ذاته صحيح لدرجة مشابهة بالنسبة إلى تثبيت بعض اللغات الأخرى فى علاقتها بدين آخر هو النصرانية : فبالنسبة للألمانية نجد ترجمة لوثر للكتاب المقدس ، وبالنسبة للفرنسية نجد «القانون النصرانى» لكالفن . وفى مؤتمر الاستشراق العالمى فى الجزائر سنة ١٩٠٥م يدلل ك . فولرز فى بحثه الفائق الأهمية الذى طوره فيما بعد وجعله كتابا عن « اللغة الشعبية المكتوبة فى الجزيزة العربية قديما » ، والذى استشهدنا به من قبل ، على الفكرة التالية التى تبدو المفارقة فيها فى الظاهر أكثر مما هى فى الواقع ، وهى أن القراءات المتعددة للقرآن الكريم تثبت أنه لم يكن قط مكتوباً على النحو الذى نقرؤه اليوم ، ولكنه فى أقدم نسخة له كان مكتوبا بلهجة مشابهة للهجات الحالية . ومعنى هذا أن القرآن هو الذى ثبّت اللغة التى كان يتحدث بها محمد وقومه فى مكة كلغة مكتوبة، وهو أيضا ما نعتقده . أما بالنسبة للنص القرآنى فلو قارناً الموجود من المخطوطات القرآنية لرأينا فى الواقع ، كما رأى فولزر من قبل ، قراءات متعددة لكنْ ذات طابع نحوى . أما القراءات التى يمكن أن تؤثر فى معنى النص ذاته فلا يوجد منها إلا عدد قليل جدا .

أما عن الصيغة الأدبية للقرآن فإنها جدُّ رائعةٍ وجدُّ متنوعةٍ فى آن . فهناك قطع ذات فصاحة عالية ، وكثير منها ذو صياغة شعرية آسرة ينطلق فيها خيال النبى العبقرى على حريته . وهذه الأقوال تستولى على النفس بما فيها من حق وعمق ، فإن الوحدانية التى يقوم القرآن عليها ، والتى يؤكدها من أول صفحة فيه إلى آخره ، قد عبّر عنها تعبيرا قويا ورائعا . وربما كان القرآن هو أكثر الكتب وحدانية بحيث لايمكن أن نقارن به من الكتابات الدينية إلا « التثنية » و « إشعياء الثانى » [الأصحاحات ٤٠ ـ ٥٠] من

العهد القديم . لكن الأسلوب القرآنى ، الذى يختلف باختلاف مراحل الدعوة ، كثيرا ما يصيبه الخلل ، ويرجع هذا بخاصة إلى أنه مؤلف من قطع قد نزلت فى أوقات مختلفة ثم ألصقها جامعوه بعضها ببعض ، كما يرجع أيضا إلى الشكل الحوارى الذى صيغت فيه بعض الفقرات . إن المحاورات التى تدور بين بعض المبشرين والمتحولين إلى النصرانية والتى نلقاها فى نشرات الجمعيات التبشيرية النصرية لتتطابق حقا ، وإلى درجة بعيدة ، مع هذه القطع الحوارية فى القرآن وتبين لنا منشأها .

وبالنسبة للصيغة الأدبية نجد فى القرآن نثرا شعريا مُقَفًّى ، ونثرا عاديا (السور المدنية) . نقول : « نثر شعرى » ، أما الشعر بمعنى الكلمة فغير موجود . وحسب الروايات الإسلامية فإن محمدا لم ينظِم طوال حياته إلا هذا البيت الوحيد : « أنا النبىّ لا كذب : أنا ابن عبد المطلب » . وهو فى القرآن يدين الشعر(٢٣) وينفى عن نفسه أنه شاعر ، وهو ما كان البعض يتهمونه به انتقاصا لدعوته ، إذ كان خصوم الإسلام يقولون: إن هو إلا شاعر . فللرد على هؤلاء الكفار كتب محمد الآيات التالية : ﴿ وما علَّمناهُ الشِّعْرَ وما ينبغى له . إنْ هو إلاَّ ذِكْرٌ وقرآنٌ مُبين ﴾ [سورة ٣٦ / آية ٦٩] ، ﴿إنَّه لَقَوْلُ رسولٍ كريمٍ * وما هو بِقَوْلِ شاعرَ . قليلاً ما تؤمنون ﴾ [سورة ٦٩/ الآيتان ٤٠ - ٤١] . والمعتقد أن النص القرآنى يحتوى على بعض الأبيات الشعرية ، إذ استطاع محمد أن ينطق بالشعر فى آية أو أكثر على غير إرادة منه كما وقع ويقع لأفضل الناثرين أن يكتب بيتا إسكندريا على سهو منه . إن النصوص القرآنية التى لها سيماء الشعر قد كُتِبَتْ على هيئة نثر مُوَقَّع مُقَفًّى مما يسميه العرب سجعا ، وهذا المصطلح مأخوذ من لفظة تعنى «هديل الحمام» ، ويُقْصَد بها النثر الموقع المقفى الذى كان ، فيما يبدو ، بداية التطور النثرى للشعر العربى . وفى النثر الشعرى الموجود فى القرآن نجد أن الجمل قصيرة وتنتهى بقوافٍ حرّة . وأكثر الفواصل ترددًا فى القرآن هى: « إين » و « أون » ثم « إيم » و « آد » و « آر » ... إلخ ، وأقل من ذلك الفاصلة « آ » . كما تكون الفاصلة أيضا من مقاطع مغلقة ، أى منتهية بساكن غير متحرك مسبوق بحركة ، ويندر وجود الفاصلة « أ » . وهناك سور ثلاث ذات قرار هى السُّوَر ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ . وأحيانا ما نجد لعبا بالسجع كما فى المثالين التاليين : ﴿وما تكُونُ فى شأنٍ وما تتلو منه من قرآنٍ ولا

تَعْمَلُون من عَمَلٍ إلاَّ كُنَّا عليكم شُهُوداً إذ تُفِيضُون فيه . وما يَعْزُب عن ربِّك من مِثْقَال ذَرَّة فى الأرض ولا فى السماء ، ولا أَصغرُ من ذلك ولا أكبرُ إلاَّ فى كتابٍ مُبين ﴾ [سورة ١٠/ آية ٦٢] ، ﴿ رَبِّ ، إِنى دعوتُ قَوْمى ليلاً ونهـارا * فلم يَزِدْهم دعائى إلا فِرارا ﴾ [سورة٧١/ آية ٥]. وقد كان الشعراء العبريـون ، كالنبى ميخا مثلا ، يتلذذون بهذا التلاعب الموسيقى .

إن السور الموحاة دفعةً واحدةً نادرةٌ مثلما يمكن أن يكون الحال مع السورة ١٢ ، بل إن بعض السور القصيرة التى تبدو للوهلة الأولى وكأنها نزلت كاملة من أول مرة مكوَّن من قطع مختلفة . وأوضح مثل على ذلك نجده فى السورة ٩٦ ، إذ الآيات ١- ٥ أقدم من الآيات الأخرى .

وتبقى مسألة السور ذات المقاطع ، وهى مسألة يكثر حولها الجدل . ويرى د . هـ . مولر أنه يوجد كثير من هذه السور ، وهى السُّوَر ٧ ، ١١، ١٥ ، ١٩ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٦ ، ٤٤ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٦٩ ، ٧٥ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٩٠ ، ٩٢ ، أما نولدكه فيرى أنه لايوجد سوى اثنتين فقط هما السورتان ٥٦ ، ٢٦ .

أما أن هناك سورا مقسمة إلى مقاطع فهذا موضع شك كبير حتى لو اقتصرنا على السورتين اللتين أشار إليهما نولدكه ، إذ ما هو المقطع؟ إنه يعنى تقسيما منتظما ، أى مجموعة من الأبيات فى نسق محدَّد ينتج عن اتحادها وتكرّرها وقع تستحبّه الأذن . فهل يوجد شىء من هذا فى السورتين ٥٦ ، ٢٦ ؟ فلْنحلّلهما أولا :

السورة رقم ٥٦ :

القسم الأول :

المدخل (الآيات ١ ـ ٩) : طوائف البشر الثلاث .

السابقون (الآيات ١٠ ـ ٢٣) ١٤ آية .

أصحاب اليمين (الآيات ٢٤ ـ ٣٩) ١٦ آية .

أصحاب الشمال (الآيات ٤٠ ـ ٥٦) ١٧ آية .

القسم الثانى :

المدخل (آية ٥٧) : المسائل الثلاث .

الإمناء (الآيات ٥٨ - ٦٢) ٥ أيات .

الحرث (الآيات ٦٣ - ٦٦) ٤ أيات .

الماء (الآيات ٦٧ - ٦٩) والنار (الآيات ٧٠ - ٧٢) ٣ آيات .

وتبقى خارج هذه التقسيم الآيات ٧٣ - ٩٦ ، فأين المقاطع فى هذه السورة ؟ وم تتكون ؟

السورة رقم ٢٦ : وإليك تحليل هذه السورة حسب ما يرى نولدكه ، الذى يعطى أياتها المائة والتسعين الأولى عنوان « أنبياء الماضى » :

المدخل (الآيات ١ - ٦) .

١- موسى (الآيات ٩ - ٦٦) ٥٨ آية .

٢- إبراهيم (الآيات ٦٩ - ١٠٢) ٣٤ آية .

٣- نوح (الآيات ١٠٥ - ١٢٠) ١٦ آية .

٤- هود وعاد (الآيات ١٢٣ - ١٣٨) ١٦ آية .

٥- صالح وثمود (الآيات ١٤١ - ١٥٧) ١٧ آية .

٦- لوط (الآيات ١٦٠ - ١٦٣) ١٤ آية .

٧- شعيب وأهل مدين (الآيات ١٧٦ - ١٨٩) ١٤ آية .

وكل من هذه المقاطع المدّعاة ذات الأطوال المتفاوتة تنتهى بالصيغة التالية (الآيات ٧ ، ٦٧ ، ١٠٣ ، ١٢١ ، ١٣٩ ، ١٥٨ ، ١٧٤ ، ١٩٠) : ﴿ إنَّ فى ذلك لآيةً ، وما كان أكثرُهم مؤمنين ﴾ . وتبقى الآيات ١٩١ - ٢٢٨ التى تعالج موضوعات متنوعة، وتشذّ بوضوح عن النظام المقطعى الذى قلنا إنه محل شك جملة وتفصيلا .

إن المقطع ، كما حددناه قبلا ، غير موجود لا فى السورة ٥٦ ولا فى السورة ٢٦ . أما أن فى هاتين السورتين تصنيفاً للأفكار معينا أو حتى نوعا من التماثل الشكلى بين

بعض أقسامها فهذا مما لا شك فيه ، ولكن هذا شيء ، والنظام المقطعى بمعنى الكلمة شيء آخر . كذلك يبدو لنا أن من التعسف التأكيد بأن فى هذه السورة مقاطع حقيقية. وأيا ما يكن القول فى كثير مما تناولناه من مسائل متعلقة بالقرآن ، فإن كل من لهم معرفة بالقرآن مجمعون على الإشادة بجمال هذا الكتاب الدينى وروعة صياغته التى يستحيل إبرازها عند ترجمته إلى اللغات الأوربية .

تعليقات المترجم

١ ـ وجهة النظر الإسلامية فى نقاط الاتفاق بين القرآن وما سبقه من كتب سماوية هى ، باختصار ، أنها جميعا ترجع إلى مصدر واحد هو الله سبحانه ، وحين يكون هناك خلاف فمن الممكن أن يكون مرجعه إلى ما لحق بعض التشريعات من تطور نتيجة لتطور البشرية ، أما إذا كان الخلاف فى مجال العقيدة فإن ما وقع فى الكتب السابقة من تحريفات هو المسؤول عن ذلك .

٢ ـ هذا المستشرق وغيره أعجز من أن يدلّونا على هذه المصادر الشفوية التى استمد منها النبى القرآن . ترى لو أن الأمر قد تم على هذا النحو الذى زعموا أكان اليهود الذين أخذ عنهم النبى قرآنه يسكتون ولا يشنّعون عليه ، وهم الذين حاربوه بكل الوسائل الدنيئة وافتروا عليه وعلى دينه الأراجيف ؟ إن من السهل أن يطلق أى إنسان الاتهامات إطلاقا، لكن العبرة بإيراد الدليل.

٣ ـ أرجو أن يراجع القارئ الكريم الفصل الذى عقدناه لدراسة ترجمة هذا المستشرق للقرآن الكريم ليرى بنفسه كذب هذه الافتراءات التى ساقها فى هوامش ترجمته .

٤ ـ فليرجع القارئ الكريم إلى العهد القديم ليرى كذب هذا المستشرق، فإن اليهود لم يتورعوا عن أن ينسبوا إلى الله ما لا يليق ، وجعلوا البشر ينتصرون عليه ، وجعلوا له أبناء (انظر تكوين / ٦ / ١ ـ ٤ ، و٣٢/ ٢١ ـ ٣١) . فأين هذا من الوحدانية المطلقة التى تليق بجلاله سبحانه كما وردت فى القرآن الكريم ؟

٥ ـ ليس الأمر ، فيما يتعلق بهذه اللفظة ، بتلك البساطة التى يحاول المؤلف أن يحرّف بها الحقيقة ، فإن الباحثين مختلفون حول نطق هذه الكلمة ومعناها . ولايجد الباحثون المسلمون ، بل وبعض المستشرقين أيضا ، أية صعوبة فى ردّ هذه الكلمة إلى أصلها الذى يشير ، كما يوضّحون ، إلى النبى محمد عليه الصلاة والسلام . علاوة على أن هناك إشارات أخرى فى الكتاب المقدس إلى النبى وأمته ، وهى إشارات لاتستقيم إلا على هذا التفسير . انظر مثلا « هداية الحيارى » لابن القيم / تحقيق الدكتور أحمد حجازى السقا / المكتبة القيمة / ط ٢ / ١٣٩٩هـ/ ص ١٠٩ ـ

١٣٥ ، وانظر كذلك تعليق عبد الله يوسف على (فى ترجمته للقرآن الكريم) على الآية ٦ من سورة « الصف » والآية ٨١ من سورة « آل عمران » .

٦ ـ لقد صفّى الإسلام شعائر الحج من التصورات والممارسات الوثنية التى لصقت بها على مدى الحقب المتطاولة منذ أن شرع الحج على عهد ابراهيم عليه السلام . ليس الحج إذن ، كما يريد هذا المستشرق وأمثاله أن يوهموا قراءهم ، شعيرة وثنية ، بل هو من صلب ديانة التوحيد التى أتى بها أبو الانبياء عليه السلام .

٧ ـ على رغم إيماننا الراسخ الجازم بعبقرية النبى عليه السلام وبأنه المثال الأعلى للبشرية جمعاء ، فإنه لم يدّع لحظةً أنه أتى بالقرآن من عنده . وقد أفاض المفكرون والكُتّاب المسلمون فى إثبات أن القرآن لايمكن أن يكون من صنع بشر ، ولى فى هذا الصدد كتابان بعنوان « المصدر القرآنى ـ دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحـى المحمدى » و « القرآن والحديث ـ مقارنة أسلوبية » درست فيهما هذه القضية بالتفصيل .

٨ ـ هل يريد هذا المستشرق أن يقول إن القرآن يخلو من الجوّ الروحانى ولا يهتم إلا بمعاملات الناس ومنازعاتهم وحقوقهم وواجباتهم الاجتماعية ؟ إن كان هذا فهو دليل واضح على مدى الالتواء والكذب الذى يُقبل به هو وزملاؤه من المستشرقين على دراسة كتابنا المقدس . ولا أظننى بحاجة إلى أن أورد من القرآن النصوص التى تدل على عكس ما يزعم ، وهى جد كثيرة . فقط ألفت نظر القارئ إلى الأدعية والابتهالات التى يلقاها فى كل مكان فى القرآن والتى تشعّ بالنور الروحانى ، وتعمر نفس المسلم بالسكينة والطمأنينة فيسبح فى آفاق الجلال والحنوّ الإلهى ، وكثيرا ما تجعله يذرف الدمع الشافى .

٩ـ ليس فى القرآن ما يشير إلى أن النبى عليه السلام قد ارتكب خطيئة ما ، وإن كان فى القران بعض المعاتبات على قرارٍ اقترحه بعض الصحابة فوافق عليه ، وكان القرآن يرى خلاف ذلك ، أو على ضيقه عليه السلام بوجود مسلم أعمى جاء يسأله عن أشياء فى الدين فى وقتٍ كان يفضّل أن لو فرغ فيه لدعوة عدد من الكفار كانوا موجودين معه فى ذلك الحين إلى الدين الجديد ... فأين هذا مما يسميه هذا المستشرق

بناء على الآية الثانية من سورة « الفتح » خطيئة ؟ إن الآية تتحدث عن « ذنب » ، ومن الذنوب ما يكون تافها لا قيمة له على الإطلاق ، وإن بدا ذا شأن حين يقع من نبى .

١٠ ـ لم يوضّح القرآن عناصر الثالوث النصرانى ، وإن كانت الآية ١٢٧ من سورة « النساء » تلمح إلى أن الأقنوم الثالث هو الروح القدس . ومع ذلك فإن القرآن يشير إلى أن طوائف من النصارى قد عبدت مريم عليها السلام [المائدة ١١٦] .

١١ ـ بالنسبة للرق فقد سدّ القرآن منابعه ، وفتح كل باب ممكن للقضاء عليه ، ومن ذلك مثلا أن من يُقْسِم بالله على شىء ثم لا يستطيع أن يبرّ بيمينه فعليه أن يعتق رقبة ... إلخ [المائدة ٨٩]. إلى هذا الحد ينتهز الإسلام كل فرصة مهما تكن عابرة لتحطيم هذا النظام الذى لم يرثه عن الجاهلية العربية كما يدعى هذا المستشرق كذبا ، فإن الرق كان موجودا فى العالم أجمع ، بل ظل يمارسه العالم الغربى الذى ينتمى إليه هذا المستشرق إلى وقت قريب ، وكيف ؟ فى أبشع صُوَره وأبعدها عن الرحمة ولعل القراء لم ينسوا بعد قصة « الجذور : Roots » . أما بالنسبة لتعدد الزوجات فهو فى الواقع العملى علاج لمشكلة وجود فائض فى عدد النساء كما يحدث إبان الحروب وفى أعقابها مثلا ، ومنها غزوات النبى . ولا أظن أى منصف إلا موافقا على أنه أفضل مليون مليون مرة من الزنا والبنوّة الحرام والانحلال الخلقى الذى لايعرف الغرب غيره فى أمثال هذه الظروف .

١٢ـ هذا ضلال ، والرأى فى مسألة القضاء والقدر أن لها وجهين متقابلين ، فإن الله هو خالق الإنسان والأشياء والقوانين التى تحكم الحياة والكون كله ، وكذلك الإرادة الانسانية . فإذا نظرنا إلى هذه المسألة من أفقها الإلهى فكل شىء قد خلقه الله على مقتضى إرادته ، أما إذا نزلنا من هذا الأفق العالى المطلق ونظرنا إليها من زاوية أضيق فإننا لا نستطيع أن ننكر ما تتمتع به الإرادة الإنسانية فى مواجهة الأشياء والقوانين من حرية نسبية . فى ضوء هذا نستطيع أن نفهم ما قاله القرآن فى هذا الصدد ، أما اتهام العقيدة القرآنية فى هذه النقطة بأنها لم تأخذ شكلها النهائى فهو عجز عن الفهم .

١٣ ـ يُبدِئ أعداء الإسلام ويُعيدون فى هذا الاتهام السّمج الذى تناولناه مرتين فى هذا الكتاب مرة فى عرضنا لترجمة ساڤارى للقرآن ، ومرة أخرى فى مناقشتنا لترجمة

الشيخ أبو بكر حمزة . كل ما أحب أن أكرره هنا هو أن متع الجنة ليست كلها حسية، وإن لم يكن فى هذا ما يعاب ، ولكنها تتراوح بين لذة الجسد وسعادة الروح . وأرجو أن يرجع القارئ لما قلناه فى الموضعين المشار إليهما ليجد رأينا مفصلا هناك .

١٤ـ الثابت تاريخيا أن النبى قد أمر بتسجيل كل ما نزل من الوحى القرآنى بحيث إنه عندما انتقل إلى جوار ربه عليه صلواته وسلامه كان القرآن جميعه مكتوبا ، وكانت أعداد كبيرة من الصحابة يحفظونه عن ظهر قلب مرتبةً آياته على حسب ما بين لهم النبى عليه السلام . ومن ذلك الأصل المكتوب أمر أبو بكر بكتابة نسخةٍ مجموعةٍ بين دفَّتَىْ كتاب بعدما شهد على كل آية فيه اثنان من الصحابة الذين كانوا يحفظونه . فأين التهوُّش هنا؟ إن لكل عصر وسائله فى التسجيل والتدوين والضبط ، والعبرة بالإخلاص وبذل الجهد وتحرى الدقة . وفى البلاد المتخلفة أحدث الآلات وأعقدها ، ومع ذلك فكثيرا ما يعجزون عن تحديد أماكن مواسير المجارى مثلا وهى تحت أرجلهم !

١٥ـ فى هذه المقارنة تجنٍّ وافتراء : فقد كان الوحى يسجَّل أولا بأول، وكان عدد كبير من الصحابة يحفظه عن ظهر قلب ، أما بالنسبة للإنجيل فإن أحدا لم يفكر فى حفظه عن ظهر قلب كما هو الحال مع القرآن ، ولا سجّله أحد كتابةً فى حياة المسيح عليه السلام . وإنما تشبه الأناجيل السيرة النبوية فى أنها كُتِبَتْ بعد وفاة عيسى عليه السلام بعشرات السنين وفى أنها تحكى قصة حياته . وقد رُوِيَتْ قصة حياة المسيح عليه السلام من زوايا مختلفة على حسب اهتمام كل كاتب وما وصل إليه من معلومات خاطئة أو صحيحة ، ومن هنا كان تعدّد الأناجيل واختلافها .

١٦ـ الكاتب هنا لايراعى للأمانة العلمية حرمة . انظر التعليق السابق .

١٧ـ لوكان طول السور أساساً مطّردا كما يزعم هذا الكاتب لما جاءت سورة «الأنعام» مثلا بعد «المائدة» برغم أنها أطول منها ، ولا قبل «الأعراف» التى هى بدورها أطول منها ، ولما جاءت «التوبة» بعد «الأنفال» مع أنها تزيد على ضعفها طولا، وهو ما يصدق على «الحِجْر» و «النحل» التى تليها أيضًا . ونفس هذه الملاحظة صحيحة بالنسبة لكثير من قصار السور : فـ «العصر» أقصر من «الهُمَزة» التى تتلوها ، و «قريش» أقصر من «الماعون» ، و «الإخلاص» أقصر من

«المعوذتين» ... وهكذا ، وهكذا . وبرغم ذلك فليست المسألة على ذلك الجانب من الأهمية التى يوحى بها كلام هذا المستشرق .

١٨ـ هذه مصادرة على المطلوب ، إذ كيف يستطيع أحد أن يدّعى أن الخصائص الفلانية للأسلوب القرآنى تنتمى إلى هذه الفترة أو تلك من تاريخ الدعوة النبوية إلا إذا عرف أسباب نزول النصوص القرآنية وتاريخها ، وهو ما يشكك فى إمكان الوصول إليه هذا المستشرق . وفضلا عن ذلك فمَنْ يصدِّق أن هذا المستشرق وأمثاله قادرون على مثل هذا التصنيف الأسلوبى ، وقد رأينا مبلغ عجزهم عن مجرد فهم النص القرآنى فى مواضعَ جِدِّ كثيرة ، ومدى تهافت ذوقهم الأدبى ؟

١٩ـ هذا المستشرق الذى رأينا عجزه عن فهم النص القرآنى فى حالات كثيرة جدا جدا ، والذى لا يتورع عن الادعاء بأن الشعر الشرقى مملوء بتشبيه العيون الحوراء الجميلة بالبَيْض (!!!) ، لايتحرج ذرةً من التحرُّج عن اتهام أسلوب القرآن بأن فيه إهمالا . أما مسألة التكرار فلْنعَدّ عنها ، ولا داعى لتصديع المخ بمحاولة إثبات البدهيات، وإلا فهل تستغنى الحياة والتعليم عن التكرار ؟

٢٠ـ طبعا مرهقة لمن لايتقن اللغة التى نزل بها هذا النص ولا يحسن تذوقها ، ومع ذلك يجد فى نفسه الجرأة للتصدى لا لترجمته فحسب بل أيضا لتقويمه وتخطئته !

٢١ـ لم ينزل القرآن للعرب وحدهم ، وإن اعتمد عليهم بالطبع ، لنزوله بلغتهم وعلى نبى من بين أظْهرهم ، فى نشر دعوته فى الخافقين . وها هم أولاء الأوربيون الآن من العامة والصفوة يتسربون إلى حظيرة الإسلام بعد أن عجزت دياناتهم الموروثة وفلسفات فلاسفتهم أن تريح أرواحهم الحائرة. ولا يُسْتَبْعَد أن يكون الأوربيون والأمريكان هم حملة الدعوة الإسلامية فى المستقبل بعد أن طال غطيط المسلمين الحاليين فى نومهم واستمراؤهم التَّرامِى على أقدام الغرب وعدم استيقاظهم برغم تتالى النذر والأخطار . ولو صح هذا الظن فسيضطلع الأوربيون بالدور الذى اضطلع به العرب والبربر أولا ، ثم الفرس ثانيا ، فالمغول والترك ثالثا ، والأفارقة رابعا فى نشر الإسلام وحمايته والذب عنه ، وهو ما يشير بجلاء من خلال الوقائع التاريخية أيضا ، وليس من

خلال النصوص القرآنية والأحاديث النبوية وحدها، إلى عالمية الإسلام . كذلك لو صح هذا الظن فسوف يكون اللقاء السعيد بين قوة الغرب الاقتصادية والعلمية والعسكرية وبين مبادئ الإسلام السامية التى نرجو أن تقلّم عيوب النفسية الغربية وتساعدها على التخلص مما تتصف به ، فى علاقتها بالأمم الأخرى ، من قسوة وغطرسة وتكفكف من غُلَوائها فى التشبث بالمتع الدنيوية وحدها بدافع الكفر بالله والحياة الأخرى وما فيها من ثواب جزيل .

٢٢- قد تبدو بعض السور القرآنية للمتعجل غير المتعمق وكأنها مكونة من موضوعات غير مترابطة ، أما بالنسبة للقارئ المتأنى الذى لا يأخذ الأمور بظواهرها فإن كل سورة تبدو ذات بناء محكم . وللبقاعى والمودودى وسيد قطب فى تفاسيرهم محاولات طيبة فى تتبع ما تتمتع به السور القرآنية من وحدة فى الموضوع والجو النفسى، وللدكتور دراز أيضاً فى كتابه « النبأ العظيم » محاولة فى هذا السبيل ، وإنْ قَصَرَها على سورة « البقرة » . وقد رأى القارئ الكريم اجتهادات المؤلف فى هذا الصدد فى أثناء مناقشته للترجمات القرآنية فى الباب الأول من هذا الكتاب . أما التناقض المزعوم فللرازى فى « مسائل الرازى وأجوبتها » والباقلانى فى « الانتصار لنقل القرآن » والزركشى فى « البرهان فى علوم القرآن » اجتهادات فى الرد عليه. ولكاتب هذه السطور أيضًا ، فى عرضه للترجمات القرآنية فى الباب الأول من هذا الكتاب ، اجتهادات فى هذا المجال بعضها يتعلق بالأفكار ، وبعضها بالأسلوب .

٢٣- ليس فى القرآن أية إدانة للشعر من حيث هو جنس أدبى ، لكنه يحمل على الشعراء الذين يجنّدون مواهبهم فى الدعوة إلى الباطل والتنفير من الفضائل ، وفى ثلم الأعراض وتحقير الآخرين والتحريش بين الناس . وليس هناك من يعترض مخلصا على ذلك . وعلى ضوء هذا أرجو القارئ الكريم مراجعة آيات سورة « الشعراء » التى كثيرا ما يُستشهد بها فى غير موضعها .

الفصل الثالث

(القـرآن (*))

نزل القرآن قطعا متفرقة ، ولا تعطينا الحالة التى وَصَلَنا عليها إلا فكرة باهتة عن الطريقة التى تم بها تأليفه (١) ، فإن السُّوَر قد رُتِّبَتْ ، منذ المراجعة النهائية على عهـد الخليفة أبى بكـرٍ ، على حسب الطول ما خلا السورة الأولى ، وهى طريقة مصطنَعة تماما (٢) .

ويقول القرآن إن محمدا كان يتلقى الوحـى مـن الروح القدس ، الذى كان يعدّه مَلَكاوالذى سمّاه فى وقت لاحق فى السور التى نزلت فى المدينـة باسـم Gabriel كبير الملائكـة الذى كـان ينطقه «جبريـل : Djabril» (٣) . وفى أثناء الذهول (٤) المصاحب للوحى كان يعتقد أنه يرى وجه رئيس الملائكة هذا ، وعندما كان يُسأل عن شكله كان يذكر اسم شابٍّ من قبيلة كلب يدعى دحية بن خليفة . لقد كان الوحى ينزل عليه دائما قطعا صغيرة : آياتٍ متفرقة أو مجموعات من الآيات ، وحينما كان يُقلِع عنه كان يدعو واحدا من كُتَّابه ، ولا سيما عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، فيملِى عليه ما نزل ويأمر فتوضَع الورقة فى هذا الموضع أوذاك من المصحف (٥) . ولفظة « سورة » لفظة عبرية معناها صفٌّ حجارة فى جدار، ومن ثَمّ سَطْر من الكتابة . ومعنى « قرآن » : « قراءة » ، أما « فرقان » ، وهو اسم له آخر ، فتعنى فى العربية « التمييز » ، وفى الأرامية ، التى منها أُخذت، تعنى « الإعتاق ، والتخليص ، والافتداء » .

ويختلف أسلوب القرآن حسب أدوار حياة الرسول التى كان يتنزل فيها الوحى ، وسِمتَه الرئيسية أنه جميعه نثرٌ مقفًى ، وذلك جدٌّ واضح فى سُوَره الأولى حيث الآيات شديدة القصر ، على خلافه فى السور الطويلة التى نزلت فى المدينة حيث لا تميّزه إلاّ «وقفة» الآية التى تتوافق مع الوقفات الأخرى . وإلى جانب ذلك لاينبغى أن نَغْفُل عن أن ترتيب السور الحالى مصطنَع تماما ، إذ من المعروف كيف تمّ تأليفه . لقد اعتمد

(*) من كتاب " La Littérature Arabe " لـ Clémemt Huart (ط. Librairie Armand Colin , Paris , 1939) من ص ٣٣ فصاعداً .

المسلمون فى مبدإ الأمر على الذاكرة لحفظ نصوص الوحى التى شهدوا نزولها ، ثم كان من يستطيع الكتابة ينسخها ، مستخدما حروفا أثرية [٦] ، على العسب والجلود المدبوغة أو على العظام الجافة . وحينما تُوُفِّىَ الرسول ووجد المسلمون أن يوم القيامة يزداد ابتعادا (إذ كانت عقيدة المسلمين الأوائل ، مثل نظرائهم من النصارى ، هى أن الحياة الدنيا قد تمّت وأن يوم البعث قد اقترب [٧]) ، وكذلك حينما كثرت الحروب الأهلية والحملات المرسلة إلى الحدود ، واختطف الموت عددا من الذين كانوا يحفظون القرآن كله أو بعضه عن ظهر قلب ، خافوا أن يضيع كلام الله ضياعا نهائيا فجمعوا كل هذه الشذرات المتفرقة ، وكلّف الخليفة الأول أبو بكرٍ زيْدَ بن ثابت حوارىَّ الرسول بأن يجمع كل ما يستطيع جمعه [٨] من النص المقدس وأن يجعله فى مجلد واحد ، فرُتِّبَت السور حينئذ ، بغض النظر عن ترتيبها التاريخى ، حسب أطوالها : الطُّولَى أولاً تسبقها « الفاتحة » ، وهى سورة صغيرة من سبع آيات هى فاتحة الكتاب ، ثم الأقصر فالأقصر من السور ، وهذه هى أقدم السور لأنها نزلت فى مكة ، بينما السور التى يبتدئ بها الكتاب تنتمى فى معظمها إلى الفترة التى كان فيها محمد ، بعد أن أصبح قائد جيش ودولة ، يسيطر فى المدينة على القوات التى كان عليها أن تبسط سلطانه سريعا على العاصمة الدينية للإسلام . ويمكن اعتبار جمع زيد هذا نهائيا لأنه بعد عشرين عاما تمت مراجعته ثانية مراجعةً مسّت بعض التفاصيل اللغوية والنحوية [٩] لا الترتيب العام للنص .

وليس أسلوب القرآن واحدا ، ولايمكن أن يكون . إن التعبير عن الفكرة سامىٌّ صِرْف ، وهو وثيق الصلة بهذه السلسلة التاريخية الطويلة من الوثائق النابعة من أصل عبَرى منذ آيات التوراة الموغلة فى القدم حتى الإنجيل مارّة بالوحى النبوى الذى كان بيت المقدس مركزا له . فالعبارات مقطّعة إلى آيات شديدة القصر فى البداية ثم جدّ طويلة بعد ذلك ، وطابع النثر المسجوع يتضح فى الفواصل التى تنتهى بها كل آيَة . وتنقسم السور إلى قسمين رئيسيين اعتمادا على ما إذا كان نزولها فى مكة أو فى المدينة ، فالأُولى تنتمى إلى ما قبل الهجرة ، والثانية إلى ما بعدها .

وكان النَّفَس فى البداية قصيرا ، فالوحى عنيف ، والقَسَم بالغ التأثير . والله هو المتكلم ، أما الإنسان فغير ظاهر وكان الذى يبدو من محمد هو شخصية الرسول ، إذ

لم يكن قد أصبح بَعْدُ رجلَ دولة أو مشرِّعا يبنى مجتمعا جديدا ، ولم يكن هدفه أن يقدم لقومه مجموعة قوانين بل أن يعرض عليهم عقيدة التوحيد . ولا يصادفنا هنا كلام عن الشعائر أو ذكر للتشريعات الاجتماعية . لقد كان محمد يدعو سامعيه إلى الإيمان بناءً على ما يشاهدونه من آيات الكون ، ويلفتهم إلى عجائب الطبيعة من نجوم وشمس وقمر : ﴿ إن فى ذلك لآياتٍ لقوم يفقهون ﴾ أو يقصّ عليهم المصائب التى حلت على الأمم الخالية لتكذيبها المرسلين . وهذه الأساطير خليط من حكايات تلمودية وروايات قديمة تتعلق بأقوام عاد وثمود البائدة . وسياق العبارات فى أقدم السور المكية موزون ، إلا أن الوزن غير منتظم ، ولا تقابلنا الصيغ النثرية إلا نادرا ، وعلى نطاق ضيق . ويتكدس التعبير عن الفكرة بعضه على بعض ، وهو فى معظم الوقت جدّ غامض ومبتسر ، إلا أن الخطاب مترفع ومتقن . ويشعر القارئ أن الرسول يحاول بكل طاقته أن يقنع الكفار بحقيقة رسالته . ويلوح عنف الأسلوب حتى من خلال النقاب الشاحب الذى يغشاه عند ترجمته إلى لغاتنا التحليلية [١٠] . إنه ، حسب الملاحظة الدقيقة لستانلى لين پول ، أسلوب شاعرٍ وخطيبٍ فى آن . وهو يعتمد فى دعوته إلى عمل الخير والخوف من الله على التذكير بيوم الحساب ، كما يبثّ الأملَ فى نفوس المؤمنين من خلال عرض طيبات الفردوس براقةً أمام أعينهم : ﴿ إذا السَّماءُ انفطرت * وإذا الكواكبُ انتثرتْ * وإذا البحارُ فُجِّرت * وإذا القبورُ بعثرت * علمتْ نفس ما قدّمتْ وأخرت * يا أيها الإنسانُ ، ما غرّك بربّك الكريم * الذى خلقك فسوّاك فعدلك؟ * فى أىّ صورةٍ ما شاء ركّبك * كلاَّ ، بل تكذّبون بالدّين * وإن عليكم لحافظين * كرامًا كاتبين * يعلمون ما تفعلون * إن الأبرارَ لفي نعيم * وإن الفجّار لفى جحيم ﴾ . وهو يلعن أعداءه لعنا فظيعاً، إلا أنه لاينبغى أن ننسى أن المتحدث ، على مدى القرآن كله ، إنما هو الله، وأن النبى ليس إلا واسطة للوحى . والواقع أن مشاعر العربى البدوى المتوحشة تبدو بوضوح[١١] دونما مواربة لإخفاء بربريتها [١٢] ، ودعاؤه على عمه أبى لهب مشهور : ﴿ تبّتْ يدا أبى لهبٍ وتبَّ ﴾ . وفى قسمٍ آخر من السور المكية يوشك القسم بـ﴿ الشمس وضحاها * والقمرِ إذا تلاها * والسماء وما بناها ﴾ [١٣] أن يختفى مع استبدال صيغة « والقرآنِ » به . ويبدأ الخطاب بإعلان أنه ﴿ تنزيل من الله ﴾ . وكيلا يكون ثمة ريب فى مصدر الكلام الذى ينطق به الرسول فإنه يبدأ كلامه بفعل الأمر

« قُل »(١٤) ، والحجة الرئيسية على صدق رسالته هى قصص الأنبياء العبرانين الأقدمين المستقاة من الهاجاداه اليهودية والمتلقاة شفويا من اليهود الذين كان يخالطهم . لاغرو إذن أن تكون هذه القصص ، التى استُقِيَتْ بطريق غير مباشر ، مغلوطةً وخرافية(١٥) .

ومرحلة ثالثة هى مرحلة الجدل ، وتتميز بأسلوبها النثرى . والخاصة الوحيدة الطارئة هى الرد الذى كان يجيب به النبى هؤلاء الأشرار الفاسقين الذين يبلغ من تبجحهم أن يسألوه معجزة تصديقا لرسالته ، وكان رده أن المعجزات متوفرة فى كل مكان : علام تطلبون معجزة ، والطبيعة كلها معجزات ؟ ما أنا إلا نذير

وأخيرا ينبغى أن نفرد بالإشارة الآيات التى تسمِّى الله بـ « الرحمن » ، وهو ذاته اسم إله النصارى فى النقوش الحميرية .

ويضم الجزء الثانى أربعا وعشرين سورة أُلِّفَتْ أثناء أعوام المدينة العشرة بعد الهجرة ، وفيها تهدأ الحماسة ، ويتحول الداعية إلى مشرِّع ورجل دولة. إن عمله الآن هو التعليم والشرح لا الإخضاع والإقناع ، إذ كانت قد تمت صياغة عقلية أتباعه ، كما أن تزايد عدد حوارييه قد بيَّن لأعدائه الجاحدين أن لديه قوة نامية سيكون عليهم أن يحسبوا حسابها ، وتختفى من الأسلوب شاعريته فلا يعود إلا نثرا مطولاً قائما على التكرار المقصود به إدخال بعض الأفكار البسيطة فى أعْصَى العقول . أما العبارات التى كانت تبتدئ فى مكة بـ « يا أيها الناس » فقد أصبحت تُستَفتَح بـ « يا أيها الذين آمنوا »، وعند مخاطبة الأعداء بـ « يا أيها اليهود » أو «يا أيها المنافقون»(١٦) ، كما أصبح الأسلوب بعامة بطيئاً مسهبا ، والآيات شديدة الطول ، والسُّوَر مؤلفة من شظايا أحاديث وعبارات متفككة . ومع ذلك تقابلنا أحيانا فقرات ذات جمال وسموٌ فى الفكرة والتعبير بديعين حقا . وتكاد مبادئ التشريع الدينى والمدنى والجزائى للمجتمع الجديد أن تنحصر فى ثلاث من أطول السور هى الثانية والرابعة والخامسة (١٧) ، وهنَّ وحدهن يشكِّلن ما يقرب من عُشر القرآن جميعه .

ومما لاريب فيه أن النص القرآنى لم يُجْمَع على عهد الرسول (١٨) ، إلا أن أربعةً من الصحابة هم أبى بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد الأنصارى كان عندهم نسخ منه شبه كاملة . وقد أدت الحرب ضد مسيلمة الكذاب إلى وفاة عدد ممن

كانوا يحفظون القرآن فى صدورهم، فأمر أبو بكر ، تحت إلحاح عمر الذى كان يشهد اختفاء هؤلاء الشهود المهمين من أمام ناظريه ، بتجميع ما يمكن جمعه [١٩] من النصوص المكتوبة ، وناط هذه المهمة بزيدٍ أحد كتبة الرسول . ولم يكن عمر [٢٠] ، الذى كانت له السلطة العليا فى هذا الجمع ، يقبل إلا النصوص المكتوبة التى يظاهرها شاهدان يؤكدان صحتها . أى أن من الممكن أن يكون كثير من نصوص الوحى التى ربما كانت صحيحة قد رُفض [٢١] ، وهو ما جعل الشيعة [٢٢] بعد ذلك يدّعون أن المصحف السُّنّىّ ناقص ، وأن أهل السّنة قد أسقطوا كل ما له صلة بالمهمة الربانية لعلى وآل بيته . ولم يكن فى هذا الجمع شىء رسمى ، ودليل ذلك أنه قد أصبح بعد موت عمر مِلْكا [٢٣] لابنته حفصة .

وأثناء حروب أرمينيا وأذربيجان اختلف الجند القادمون من العراق وأولئك القادمون من سورية حول الطريقة الصحيحة لقراءة القرآن ، ورفع قائدهم حذيفةُ الأمر إلى الخليفة عثمان ، الذى كلف زيد بن ثابت وبعض القرشيين الآخرين بتحرير نسخة نهائية . وقد جمعت هذه اللجنة كل المصاحف الموجودة جاعلة مصحف أبى بكر المودَع عند حفصة هو الأساس. وعند الفراغ من العمل أمر عثمان بالقضاء على المصاحف الأخرى ما خلا مصحف أبى بكر ، الذى لم يتوانَ مروانُ حاكمُ المدينة عن القضاء عليه أيضا . وهكذا فالنسخ الموجودة فى العالم الإسلامى الآن هى بلا استثناءٍ صور من مصحف عثمان [٢٤] .

تعليقات المترجم

١ـ لا أدرى كيف يَسُوغ لهذا المستشرق أن يزعم مثل هذا الزعم الذى تكذّبه الوقائع التاريخية التى حملتها لنا الروايات الموثقة ، إذ المعروف أن الرسول ﷺ، عقب كل وحى ، كان يأمر كتبة الوحى بأن يضعوه فى هذا المكان أو ذاك من السورة الفلانية أو غيرها .

٢ـ يُولِى المستشرقون ترتيبَ السور تاريخيا اهتماما جدّ مبالَغ فيه ، وسواء كان ترتيب السور توقيفيا كما يعتقد بعض العلماء المسلمين ، أم لا كما يعتقد بعض منهم آخرون، فإن أساس « الطول والقصر » الذى يزعم المستشرقون أن السُّوَر قد رُتِّبَتْ عليه غير متحقق دائما (انظر التعليق ٢ على الفصل الثانى من هذا الباب) .

٣ ـ حتى اسم « جبريل » لايستطيع هذ المستشرق أن ينطقه نطقا صحيحا . وقد سبق سَوْقُ أمثلة كثيرة على هذا العجز عند المستشرقين ، الذين يبلغ من جمود وجههم، برغم هذا العجز الفاضح المخزى ، أن يهاجموا القرآن بجهلٍ ويتّهموا حتى لغته وأسلوبه بالضعف والهلهلة وعدم الجرى على القواعد النحوية .

٤ـ إذا كان القرآن ، وهو ما هو سموٌ مبادئ وفحولةَ صياغة ، قد كان يتلقاه النبى وهو ذاهل ، أفليس ينبغى أن يكون هذا دليلا قويا عند ذلك المستشرق ، لوكان يجرى فى تفكيره واستدلاله على أساس من المنطق السليم ، على أن القرآن لم يكن من تأليف الرسول ؟ إذ لا يعقل أن يَقْدِر الإنسان الذى يستغرقه الذهول أن يؤلف أى شىء ، فضلا عن أن يكون هذا الشىء هو القرآن الكريم . ذلك ، ولا نريد أن نعلّق على مسألة « الذهول » هذه ، وقد رَوَتْ لنا الأحاديث الكريمة عملية نزول الوحى والأشكالَ المختلفة التى كانت تتخذها ، ويمكن الرجوع إليها فى كتب الأحاديث النبوية .

٥ ـ الله أكبر ، الذى جعل الحقّ أبلج وأنطق به هذا المراوغ على رغم أنفه ، فها هو ذا ، ولم تمر إلا أسطر قلائل ، يسهو فيشهد بما أنكره حين زعم أن الحالة التى وصلنا عليها القرآن لا تعطينا إلا فكرة باهتة عن الطريقة التى تم بها تأليفه (انظر التعليق ١ على الفصل الذى بين أيدينا) .

٦ ـ الكاتب هنا يعود إلى المراوغة ثانيا ، فبعد أن سها فشهد بالحق الذى وردت به الروايات الموثّقة إذا به كرة أخرى يلف ويدور فيزعم أن المسلمين، فى أول الأمر ، اعتمدوا على الذاكرة فى حفظ القرآن ، ثم كان من يعرف الكتابة ينسخ ما ينزل من الوحى مستخدما «حروفا أثرية» . وهو بهذه العبارة الأخيرة يريد أن يشكك فى إمكان الطريقة الإملائية على عهد الرسول أن تؤدّى الوحى كما نزل . ومقطع الحق ، كما سبق أن قلنا فى التعليق ١٥ فى الفصل الثانى من هذا الباب ، أن العبرة بالجدّ فى الاضطلاع بالواجب وأدائه بإخلاص . فإذا أضفنا إلى هذا جميعه أن المسلمين كانوا يؤمنون إيمانا جازما لا يعتريه الشك من بين يديه ولا من خلفه بأن كل حرف من القرآن مقدس تمام التقديس ، فَهِمْنا كيف استطاعوا أن يحافظوا عليه كما هو . وها نحن أولاء فى القرن العشرين ، وبعد هذا التقدم الرهيب فى عملية الكتابة والطبع والنشر ، تمتلئ كتبنا بالأخطاء المطبعية ، ويعجز كثير من مثقفينا ، حتى المتخصصين منهم فى الأدب العربى ولغته ، عن نطق لغتهم القومية نطقا سليما . فليست العبرة إذن أن تكون الحروف التى كُتِبَ بها القرآن حروفا أثرية على حد تعبير هذا المستشرق الخبيث أو حروفا عصرية (انظر أيضا التعليق ٨ على الفصل الثانى) .

٧ـ إن الحوادث والأقوال التى عقبت وفاة الرسول ، وكلها مسجّل تسجيلا مفصلا، لم يَرِدْ فيها قطّ ما يدل على أن المسلمين كانوا يعتقدون مثل هذا الاعتقاد . وكيف كان يمكن أن يعتقدوه والقرآن مثلا يبشرهم بأن دينهم سينتصر على الدين كله، والرسول قد تنبأ لهم بملك كسرى ، ووصّاهم بقبط مصر خيرا ، وهو ما يفيد أنهم سيفتحون البلاد ويسود دينهم العالم ، بل وتنبّأ بوقوع فتن كقطع الليل المظلم وأنهم سيأتى عليهم زمان تتداعى فيه الأمم عليهم لا من قلة ولكن لأنهم غثاء كغثاء السيل ، وهذا كله يحتاج إلى الأزمنة المتطاولة ؟ لعل المستشرق يشير إلى قوله تعالى : ﴿اقتربتِ السّاعةُ وانشقّ القمرُ﴾ ، فإذا كان هذا الظن صحيحا فإن المسلمين الأوائل والأواخرَ أيضا أوسع منه أفقا لأنهم لم يفهموا الآية إلا على أن النبوة قد خُتِم بابها ، وأنه لن يأتى رسول بعد النبيِ محمد عليه السلام إلى يوم القيامة ، وهو ما يوضحه الرسول فى حديث له بقوله : « بعِثْتُ أنا والساعة كهاتين » مشيرا بسبابته ووسطاه . ثم إن لفظة

« القيامة » في بعض الآيات تبدو وكأن المقصود بها انقلابُ الأوضاع السائدة في الجاهلية وانكسارُ الكفر والطغيان الذى كان شديد الثقة بنفسه وعنيف العنجهية على غير أساس ، فكانت غزوة بدر هى أول ما بدا من أحداث «القيامة» بهذا المعنى .

٨ ـ انظر إلى هذ الوخزة المسمومة ، فالمسألة (كما يريد لنا هذا المستشرق أن نفهم) هى أنه كان على اللجنة التى شُكِّلَتْ لا أن تجمع القرآن بل أن تجمع فقط ما تستطيع جمعه . أى أن المصحف الذى بين أيدينا الآن لايضم كل ما نزل من وحى بل كل ما استطاع زيد ورفاقه ، رضى الله عنهم جميعا ، أن يضعوا أيديهم عليه فحسب ، وهو ما تناقضه تماما الرواياتُ الواردة فى هذه الموضوع . ومن الواضح أن هذا المستشرق لا يحترم الأمانة العلمية التى تحتم عليه الالتزام بالروايات الصحيحة بل يخترع من عنده الأخبار ويلفّق التهم (انظر التعليقين ٧، ١٢ على الفصل التالى) .

٩ـ المقصود بهذه العبارة الغامضة (التى أرجح أن هذا المستشرق قد قصد ما فيها من غموض قصدا لإثارة أكبر قدر من الشكوك فى النص القرآنى) هو ، فيما أتصور ، أن الجمع الثانى قد أُرِيدَ به وضع حد للخلافات الناجمة عن السماح للمسلمين فى بداية عهدهم بالوحى ، وكانت لهجاتهم مختلفة ، أن يقرأوه بـ « أحرف سبعة » .

١٠ـ لا ندرى ما المقصود بـ « لغاتنا التحليلية » هذه . إن الأسلوب فى أية لغة يختلف باختلاف الأديب الذى يؤلف ، والغرض الذى يؤلف من أجله ، والموقف الذى يؤلف فيه ، والناس الذين يؤلف لهم . فهل يمكن أن تكون لغة ما تحليليةً أو تركيبية (أيًا ما يكن معنى هذين المصطلحين) فى كل الظروف ؟ أليس يلمح القارئ العنجهية الأوربية من خلال عبارة هذا المستشرق الذى يحاول أن يوهمنا أن اللغات الأوربية تعكس وضوح العقل ودقة الفكرة ، بينما اللغة العربية تتسم بالغموض فى تعبيرها عن العواطف الجائشة والأحاسيس المختلطة ؟ وهو كلام فارغ لايستند إلى أساس ، فاللغة العربية أقدم من اللغات الأوربية ، وقد مرت بأدوار من التطور بلغت من خلالها إلى مستوى لم تبلغه هذه اللغات ، وقد شهد بذلك عدد من المستشرقين أنفسهم .

١١ـ يلاحظ القارئ أن هؤلاء المستشرقين حين يلتزمون الحقائق التاريخية يسوقون

الشواهد على ما يقولون ، أما حين يَكْذِبون ويلفّقون ويعمّمون ويشككون فإنهم يلقون بالحكم إلقاءً من غير دليل ولا شاهد يعضده . وهو ما يفعله هذا المستشرق هنا ، فقد ساق قبل أسطرٍ ، لتوضيح كلامه عن دعوة الإسلام إلى عمل الخير ، الآيات التى تحض على ذلك ، أما زعمه الآن بأن مشاعر العربى البدوى المتوحشة تبدو فى القرآن بوضوح، فهو يلقيه ويمرّ « مرور اللئام » من غير أوْهَى دليل.

١٢ــ العبرة ليست بتلفيق الاتهامات الكاذبة ، وإلا فإننى أستطيع بطريقة هذا المستشرق أن أشككه هو نفسه فى نسبه مثلا ، وعليه هو مؤنة التفنيد . كنا نودّ لو أن الكاتب ، بدل هذه الأحكام المضحكة ، قد ساق لنا ولو شاهداً واحدا عليها . ولا أظن القارئ يصدق أن سورة « اللهب » هى هذا الشاهد المطلوب ، وإلا فهل حين يردّ القرآن على من توعّد الرسول بالهلاك وآذاه بأنه هو الهالك لا الرسول ، وهو ما تحقق فعلا ، تكون هذه منه بربرية ؟

١٣ــ هكذا فى الأصل من غير أن يفصل شىء بين هاتين الآيتين الأخيرتين اللتين لاتتواليان فى المصحف بل يفصل بينهما آيتان أخريان .

١٤ــ ليس الأمر مجرد إيراد « قل » فى أول الوحي ، فنسبة النصوص التى تبدأ بهذا الفعل إلى النصوص الأخرى التى لا تبدأ به هى نسبةٌ جدُّ ضئيلة . إنما الأمر أمر الروح الإلهى السارى فى القرآن جميعه من مبتدئه إلى منتهاه ، والذى أحس به وأطنب القول فيه الكاتب الإنجليزى الأشهر توماس كارلايل رغم أنه لم يرجع إلى القرآن فى نصه العربى بل فى ترجمة له ، وفصّلتُ أنا أيضًا القول فيه فى فصل كاملٍ من كتابى «مصدر القرآن ـ دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحى المحمدى» . وهو كذلك أمر الدلائل العقلية التى يحشدها القرآن حشدا لإقناع الناس بصدق الدعوة المحمدية المكرّمة ، ثم هو أيضا أمر الأمانة والصدق والاستقامة وغيرها من الصفات النبيلة التى اشتهر بها سيد البشر .

١٥ــ كيف يَسُوغُ لهذا المستشرق أن يُخْضِع القرآن المجيد للكتاب المقدس المملوء بالخرافات والأضاليل التى لا تدخل رأس أية عجوز بدوية جاهلة ؟ وهذه الخرافات لم

يسلم منها حتى الأنبياء ، الذين يصورهم العهد القديم دُعّارا فُسّاقا سِكّيرين لا يستحون، كاذبين غشاشين ، وزناة ظالمين ، ولا الله سبحانه نفسه الذى يظهر فى الصفحات الأولى من هذا الكتاب وهو يلعب « الاستغماءة » مع آدم ، إذ يختبىء هذا خلف بعض الأشجار فى الجنة فينادى الله عليه : أين أنت ياآدم ؟ والذى يدخل فى مصارعة مع يعقوب عليه السلام نيخرج منهاهووما ، أستغفر الله ! أما العهد الجديد فإن الاختلاف بين رواياته الأربع المعتمدة وكذلك مخالفتها للحقائق التاريخية الموثوقة أشهر من أن يحتاج إلى أى تعليق .

١٦ـ هل لمثل هذه النداءات وجود فى القرآن الكريم ؟

١٧ـ وأين ذهبت « الأنعام والأنفال والتوبة والإسراء ومحمد والحجرات والفتح ... إلخ » ؟

١٨ـ رجعت ريمة لعادتها القديمة ، فها هو ذا مستشرقنا المداور بعد أن أنطقه الله رغم أنفه بالحق المبين (انظر التعليق ٥ على الفصل الحاليّ وكذلك عبارات هذا المستشرق محور التعليق المذكور) يعود فينكر ذلك . إنه لمثل هؤلاء خُلِقَتْ جهنم جزاء كذبهم وعنادهم ومحاربتهم فى سبيل الشيطان .

١٩ـ انظر التعليق ٨ على هذا الفصل .

٢٠ـ انظر الخلط حتى فى أشد الحقائق التاريخية وضوحا . أكان عمر أحد أعضاء اللجنة التى اضطلعت بجمع القرآن ؟ أليست هذه مهزلة ؟

٢١- لعن الله الكِبْر والعناد ، فإنهما أُسّ كلِ بلاء ! إن هذا المستشرق، الذى لا يستبعد أن تكون بعض نصوص الوحى قد رِفضَت ، هو نفسه الذى ادعى من قبل أن عمل هذه اللجنة كان جمع كل ما يستطيعـون جمعه من هذه النصوص ذاتها . أليس هذا هو التناقض بعينه ؟ ولكن ما الذى يهمـه ما دام قصده هنا وهناك هـو تجاهل الحقائق التاريخيـة وإثارة البلبلة والاضطراب ؟

٢٢ـ بل فريق منهم فقط ، وهذا الفريق القليل ليس عيارا على سائر المسلمين شيعتهم وسنتهم وخوارجهم ومعتزلتهم ومتصوفتهم . ولمؤلف هذا الكتاب الذى بين

يدى القارئ دراسة بعنوان « سورة النورين التى يزعم فريق من الشيعة أنها من القرآن الكريم - دراسة تحليلية » أثبت من خلالها أن هذه السورة وتلك المسمّاة بـ « سورة الولاية » لا تنتميان بأى حال إلى القرآن الكريم . وبهذا أُغْلِق هذا الملفّ نهائيا .

٢٣- ملكاً لها أم وديعةً عندها بوصفها إحدى أمهات للمؤمنين ؟

٢٤- لا أظن القارئ الكريم إلا متيقظا لهذه الوخزة المسمومة . على كل حال يستطيع إذا أراد أن يرجع إلى التعليق ٩ على هذا الفصل .

الفصل الرابع

(القـــرآن (*))

ليس هذا هو المجال لدراسة كتاب المسلمين المقدس من ناحية محتواه الدينى ، ومن الضرورى عوضا عن ذلك أن نستخلص السبب الذى جعل من هذه الرسالة واحداً من أقوى الآثار تمثيلا لفكر العرب وأساليب تعبيرهم الفنى فى القرن السابع [1]. ولكى نفهم هذا الحدث الفريد الذى يمثله القرآن عند ظهوره داخل الحركة الثقافية والأدبية لهذا الجزء من العالم ، فمن المهم أن نتذكر تأكيده بأنه رسالة من عند الله نَزَلَ بها مَلَكٌ على النبى محمد ، وأحيانا ما تُدْعَى هذه الرسالة الإلهية « وحيا » أو « كتابا » ، وأحيانا « ذِكْراً » أو « قرآنا » . وقد يبدو غريبا ألا نرى فى كتاب دينِى سوى عمل أدبى ، إلا أن القرآن نفسه يشجعنا على ذلك ، ففيه نقرأ : ﴿ وإن كُنْتُمْ فى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلنا على عَبْدِنا ، فأْتُوا بِسُورةٍ من مِثْلِه وادْعُوا شُهَداءَكم من دُونِ الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ، فاتقوا النَّارَ ... ﴾ « البقرة ٢١ ـ ٢٢ » .

وانطلاقا من هذا النص ومن نصَّين غيره جعل علماء الكلام المسلمون مما يمكننا تسميته بـ « إعجاز القرآن » عقيدةً قائمة على أن معجزة النبى الحقيقية والوحيدة أيضا هى حَمْلُه إلى البشر رسالةً ذات جمال أدبى لايضارَع .

مَنْ إذن هذا الرجل الذى نِيطَ به عبء حمل النور إلى عرب الحجاز فى بداية القرن السابع ؟ إن صورة محمد فى القرآن ليست أبدا صورةَ مَنْ أفرده الله بمواهب تخرجه من نطاق البشر . وهو فى نظر المشركين من قومه خاضع لما يخضعون له من ضرورات الحياة . ثم إنه قد ردّد مفاخراً أنه ليس إلا مخلوقا فانيا : ﴿ قل : إنما أنا بَشَرٌ مثلكم ﴾ [الكهف ١١٠] وأنه ليس فى وسعه أبدا الإتيان بمعجزة ، لكنه إنما اختير هاديا ونذيرا للكافرين . وهكذا فقد كان نجاح مهمته كله تابعا لقدرة رسالته على

(*) مـن كـتـاب " Histoire de la littérature Arabe" لـ Régis Blachère (ط. Librairie d' Amérique et d' Orient , Paris , 1964) / ج٢ / من ص ١٩ فصاعدا .

الإحيـاء وأسلوبها المعجز .

ومحمد مع ذلك لم يكن خطيبا ولا شاعرا . إن السيرة النبوية لم تحتفظ بأحاديثه الشخصية سالمة ، ولنا كل الحق فى أن نرتاب فى قدرته على استخدام السجع . كذلك فإنه لم يكن يستطيع نظم الشعر ، وعندما كان مشركو مكة يدّعون أنه شاعر أو يشيرون إلى أن رَئِيًّا من الجن يأتيه بالوحى كان الله ينضح عنه هذا الاتهام : ﴿ وما علّمناه الشِّعْرَ وما ينبغى له . إن هو إلاذِكْر وقرآن مبين * لِيُنْذِرَ مَنْ كان حيًّا ، ويَحِقَّ القولُ على الكافرين ﴾ [يس ٦٩ ـ ٧٠] . وهكذا أيضا يقف هذا الوحى الباهر الجمال والقادر على كسب القلوب بخاصته الأدبية وحدها مبتوت الصلـة بالفصاحة والشعر .

وينبغى علينا أن نضيف كذلك أنه لا تربطه صلة بالإمكانات البشرية . إن هوّة تفصل بين الجوهر الإلهى لهذه الرسالة وبين ضعف المخلوق الذى كُلِّف بها وحدود طاقته . ويجد الإنسان نفسه هنا أمام أمر يجعل الفهم عملية معقدة . إن أية مقارنة فى الواقع بين نفسية محمد وبين نفسية الشاعر منتفية : فالشاعر ، مهما تكن تركيبته الفنية والظروف التى تصادف الإلهام عنده ، يظل مسيطرا على أداته ومدركا لما يجرى فـى داخله ، وإن كان ذلك بدرجة متغيرة ، أما محمد فهو ، على العكس ، مثال « للملهَم » ، إذ الكلام الذى يتلقاه آتٍ من الخارج ، وحين يتلقاه تعتريه حالات من الذهول وَرَدَ ذِكْرُ بعضها فى القرآن ذاته . ومن هنا تنشأ مشكلة الصلة التى تربط بين تيار الوحى المؤَدِّى لحالة الذهول هذه وبين الأعراض المتنوعة ، السمعية منها والبصرية ، المصاحبة لنزوله على محمد . ومن هنا أيضا نرانا نتساءل ، دون الوصول إلى جواب حاسم ، عن الظروف التى يتم فيها تحول هذه الأعراض إلى شكل منطقى مصوغ فى لغة بشرية هى لغة معاصرى هذا « الملهَم » . إن مجموع نصوص القرآن ، وهو ما لا ينبغى أن نغفل عنه ، هى تعاليم بالمعنى العادى جدا للكلمـة . وهى ، على هذا الأساس ، تخاطب المستمعين الذين كان محمد يهدف إلى إثارة مشاعرهم أو إقناعهم أو إدهاشهم . وهذه التعاليم التى قد تدور حول حالات عامة أو خاصة ، والتى قد تكون أسبابها بعيدة أو مباشرة ، قد اختلفت شكلا ومضمونا على مدى دعوة الرسول . ولم

يضايق هذا الطابَعُ العارض للرسالة القرآنية فى شىء أيا من المسلمين لا فى عهد محمد ولا فى أى عصر آخر . بل إنهم على العكس قد رأَوْا فى هذا الأمر دليلا جديدا على الحكمة العليا التى استطاعت أن تطوّع تعاليم « رب العالمين » للمطالب البشرية .

ويحاول المفسر من جهة أخرى ، مع رغبته فى العثور فى جميع أنحاء القرآن على أية إشارات من شأنها أن تؤكد ما ورد فى سيرة محمد كما كُتِبَتْ بعد قرن تقريبا ، أن يعيد ترتيب النصوص التى تبرز فيها هذه الإشارات على أساس تاريخى مزعزع وتحكُّمىّ فى الغالب . ولا ينبغى مع ذلك أن يدفعنا فشلُ هذه المحاولات إلى الكفّ عن أن نحاول ربْط نصوص الوحى ثانية بالمراحل المختلفة لرسالة محمد [٢] . ومع التنبه لوجوه النقص والتقصير فى سيرة رسول الإسلام فإننا نستطيع أن نطمئن من الناحية التاريخية إلى أن محمدا قد شعر بأنه مكلَّف بالمهمة النبوية حوالى سنة ٦١٢م على أبْكَر تقدير، وكان قد بلغ سن النضج آنذاك . وقد مرّ الطور الأولُ من دعوته فى مكة ، وكان هدفه جمع مشركى هذه المدينة على لون من الوحدانية يُدْعَى «الحنيفية» . وتبعث بعض آيات القرآن على الظن بأن النبى الجديد قد قَبِل فى البداية التصالحَ مع الديانة المحلية ، ولكنه سرعان ما رأى وجوب تغيير سياسته أمام عداء خصومه المتزايد [٣] . وبعد عدة أعوام حين لم تثمر جهوده قام بمحاوله مع أهل الطائف فلم يصادف حظا أفضل ، ثم اتصل ببعض سكان واحة يثرب فى شمال مكة ، ولما وجد لديهم قبولاً عزم هو وأتباعه الذين لم يزيدوا عن مائة على مغادرة مسقط رأسه إلى يثرب ، التى سُمِّيَتْ منذئذ بـ « المدينة » . وتعدّ هذه الهجرة بداية تحول كامل فى مهـمة محمد ودعوته ، كما تتجرد حياته منذ ذلك الحين من الهالات الأسطورية تماما ، ويصبح متاحا للمؤرخ ما يحتاج إليه من تواريخ ووقائع محددة ومعالم سيرة ليست بالممتدة كثيرا . ويصير محمد ، بعد أن كان نبيا يصرخ فى البرّيّة ، حاكما إلهيا يتلقى أوامره من السماء ويَحْكُم باسم الله . وتزداد الجماعة المكية القديمة عددا منذ عام ٦٢٢م بإسلام كثير من المدنيين الذين كان ينضم إليهم ، كلما حقق الإسلام انتصارا ، جماعات من الأعراب الذين ظل إسلامهم دائما موضع شك : ﴿ قالتِ الأعرابُ : آمنّا . قل: لم تؤمنوا ، ولكن قولوا : أسْلَمْنا ، ولمّا يَدْخُلِ الإيمانُ فى قلوبِكم . وإن تُطيعوا اللهَ ورسولَه لايَلِتْكُم من أعمالكم

شيئا . إن اللهَ غفور رحيم ﴾ [الحجرات ١٤]. وعلى مدى السنوات العشر التى قضاها النبى فى المدينة تصبح شخصيته محور اهتمام متزايد من جانب المسلمين فيتنبهون لأقواله وتعاليمه وكل صغيرة وكبيرة من أفعاله ، ويعونها فى ذاكرتهم ، ويضعونها نصب أعينهم للاحتذاء بها ، ومن ثم نشأت البذرة الأولى للحديث (٤). وتُضْحِي المدينة فى الوقت ذاته مركزا سياسيا، ويجد زعيمها نَفْسَه ، كما سنرى ، مضطرا للنزول على مقتضيات الواقع فيكلّف بعض الشعراء بأعمال الدعاية ، ويستقبل وفود القبائل ، ويعقد مع رؤسائهم صلاتٍ سِفَارِيّة (٥) . وبعد محاولة شبه واضحة لاستعادة مكة يستولى عليها فى ٦٣٠ م واضعا بهذا يده على الحجاز ، وباسطًا سلطانه فى الوقت نفسه على جزء كبير من الجزيرة العربية . وبعد حجة أخيرة يعود إلى المدينة، ثم يموت سنة ٦٣٢م .

والملاحظ أن الصلات الكثيرة التى تربط بين تطور هذه الرسالة والتعاليم التى يضمها القرآن لا تتضح أبدا من القراءة الأولى التى تخلّف ، على العكس من ذلك ، انطباعا بأن القرآن ، على حالته الراهنة ، لا يلتزم بالسرد التاريخى للأحداث . ولايعود هذا فقط لمضمون هذه التعاليم التى لا تهتم بالتواريخ أو التفاصيل الدقيقة أو الرواية الوافية (٦) بل أيضا ، وبالذات ، إلى المنهج الذى اتُّبِع فى كتابة المصحف والإهمال التام لتصنيف نصوص الوحى الذى تلقاه نبى الإسلام تصنيفا تاريخيا .

كتابة المصحف الرسمى : الواقع أن النص القرآنى الذى يشكل المصحفَ الرسميَّ هو، بحالته الراهنة ، نتيجة جهود بدأت منذ حياة محمد ، وتابَعها بعد وفاته حكّام وعلماء ومفسرون على مدى قرنين . ومن ناحية أخرى فإن الظروف التى أحاطت بإعداد هذا المصحف لغريبة جدا ، فرغم أن الرسالة التى أتى بها نبى الإسلام قد قُدِّمَتْ فى الواقع بوصفها وحيا ذا مصدر إلهيّ، فإنها لم تحظ جميعها بالتسجيل أثناء حياة محمد قط (٧) . وكل الوقائع تجوِّز افتراضَ أن معظم نصوص الوحى كانت عند وفاته محفوظة فى الصدور، أما المكتوب فلم يكن أكثر من بعض نسخ جزئية راجعة إلى حماسة فريق من المؤمنين . وهذه النسخ المكتوبة على أساس نظام فى الكتابة جِدّ بدائى لم يكن

مستطاعا قراءتها قراءة صحيحة إلا إذا كان القارئ يعى النص المكتوب فى ذاكرته[٨]. وبمبادرة من الخليفة أبى بكر قام أحد الناسخين ، وهو زيد ابن ثابت الذى كان فى خدمة محمد ، بجمع القرآن مما كان موجودا فى نسخ جزئية مختلفة ، مضيفاً إليها كثيرا من متفرقات الوحى التى كانت محفوظة فقط فى الصدور . ولم يكن لهذا المصحف مع ذلك صفة رسمية، بيد أنه انتقل بعد موت أبى بكر إلى خليفته عمر ، ثم إلى ابنة هذا حفصة. ولم يستطع قطّ هذا المصحف، عندما تمّ ، أن يزيح المصاحف الأخرى التى كانت فى حوزة أصحاب السيد الذى مضى أو المبرّزين فى حاشيته مثل على وأبىّ وابن مسعود وغيرهم ، وهو ما يوضحه ما اضطُرّ إليه عثمان، خليفة عمر (من ٢٣هـ / ٦٤٣م إلى ٣٠هـ/ ٦٥٠م)، من اتخاذ قرار بجمع القرآن فى مصحف رسمى . وقد قام هذا الجمع الأخير ، بناء على الرواية الشائعة ، على أساس مصحف أبى بكر الذى كان مودعا عند حفصة . والذى دفع عثمانَ إلى هذا القرار ما وقع فى الكوفة بين الجنود الذاهبين إلى القتال من اختلاف فى قراءة القرآن.

ويُستَخلَص من الروايات المتضاربة التفاصيل أن الخليفة قد شكّل لجنةً ضمت زيد ابن ثابت صاحب الجمع الأول ، كما أمر أن تكون النسخةُ المودعة عند حفصة هى الأساس ، إلا أنه أشار بالاعتماد أيضا على الشهادات الشفوية أو المكتوبة التى من شأنها أن تؤدى إلى كتابة أكمل مصحف ممكن [٩] . وهناك كثير من الأفكار التى تطرأ على الذهن بعضها خاص بالاختلافات التى توردها الروايات المتعلقة بتشكيل هذه اللجنة ، وبعضها خاص بالنيات المعلنة أو الخفية وراء اختيار أعضائها .

ماذا كانت نيات أولئك القوم ؟ لاشك أن نياتهم ابتداءً وكذلك نيات الخليفة كانت ممتازة ، فإن كتابة مصحف رسمى من شأنه القضاء على اختلافات الأمة فى قراءة القرآن من جرّاء وجود كثير من المصاحف التى ليس لأى منها طابع رسمىّ . وإذا كان عثمان ، كما تصوره الرواية ، قد اعتمد على مصحف أبى بكر فلم يكن ذلك مصادفة بل حسبة سياسية ، إذ لا بدّ أنه وأعضاءَ اللجنة قد شعروا بأنه ما من مصحف غير مصحف أبى بكر الذى نال رضا عمر يمكنه أن يزيح المصاحف الأخرى التى

ليست لها هذه الأهمية (١٠) . وقد يضاف إلى هذا الاعتبـار اعتبارٌ ثانٍ ذو نتائج أخطر ، ففى خلافة عثمان أخذت معارضة على وأنصاره تتبلور ، وكان لهذه المجموعة أيضا مصحفها الذى كتبه علىٌّ لنفسه . ولكى يتخلص عثمان واللجنة التى عيّنها من هذا المصحف فإنهم أرادو أن يظهروا بمظهر الورثة الحقيقيين ، وذلك باعتمادهـم فى كتابـة مصحفهم على مصحف أبى بكر .

وبمرور الوقت نُسب لعثمانَ الفضلُ فى جمع غالبية أفراد الأمة الإسلامية علىٰ النص الذى ربما كانَ فى مصلحة حزبه ، لكنه أضحى بمساعدة الظروف المصحفَ الرسمى للمسلمين(١١) .

إذا قبلنا هذا جـاز إبداء أشد التحفظات تطرفا على الطريقة التى اتبعتها هذه اللجنة لا لأنها كان ينقصها الحماسة أو الحذر أو الإحساس العميق بالمسؤولية ، فإن الروايات تذكر لنا أن أعضاءها كانوا يُبْدُون كثيرا من التكتم والحرص قبل أن يُصْلحوا أو يضيفوا شيئا فى النص الذى أمر أبو بكر بكتابته، بل لأنه كانت هناك صعوبات لَم يَكْفِ معها الضمير والنية الطيبة ، ولم يستطيعا كذلك أن يقلّلا الضرر الناجم عن غياب المنهج النقدى الذى لم يخطر ببال أحدٍ حينذاك (١٢) . وبمكنة اللغوى الحديث (١٣) أن يُبْصر فى النص الحالىّ هنا وهنا من الاضطراب والتذبذب ما يدل فى ذات الوقت على نزاهة هذه اللجنة وعلى عجزها عن حلّ عددٍ من المشكلات ، وهذه هى الحالات الواضحة . كذلك يمكن الافتراض أننا فى كثير من الحالات لم نعد قادرين على تتبع أوجه النقص المشابهة . ألا يجوز لنا إذن أن نتساءل عن دور المصادفة والمبادرة الفردية ونفوذ بعض الشخصيات فى حسم الصعوبات المستعصية ؟

وبالفراغ من هذا المصحف لم تبْقَ إلا مسألة فرضه على الأمة كمصحف رسمىّ، وقد اتخذ الخليفة بهذا الصَّدَد إجراءين : الأول أَمْرُه بالقضاء على مختلف الموادّ ككسَر الفَخّار وأكتاف الحيوانات وقِطَع الجلد التى كُتِبَ عليها شذرات من الوحى أثناء حياة محمد . وهذا الإجراء الفائق الجسارة يشير إلى أي مدى أَوْغَلَ عثمان فى محاولة فرض مصحفه الذى يُعَدُّ ، على قدر ما كان يسمح نظامُ الكتابة ، نصاً نهائيا . أما الثانى

فإن الخليفة قد أمر بكتابة أربع نسخ أو سبع من المخطوط الذى فرغت منه اللجنة وإرسالها إلى الأمصار الكبرى في الإمبراطورية ، وهى مكة والبصرة والكوفة ودمشق . وثمة إجراء ثالث كان يجب أن يتخذ ، وهو إلغاء المصاحف التى جمعت مع مصحف أبى بكر ، لكن الروايات تتضارب حول هذه النقطة تضاربا لا يصعب فهم أسبابه : فمن جهة أودع مصحف أبى بكر ثانيةً عند صاحبته حفصة ، ومن جهة منع مصحف ابن مسعود على مضض شديد من جانبه ، بيد أنه ليس لدينا دليل على أن مثل هذا الإجراء قد طبّق على مصحف أبَىّ . وربما آثر حزب الخليفة ، بما عرف عنه من حسّ سياسى ، الإغضاءَ لكيلا يثير عليه المعارضة الفعلية أو الكامنة . ولا بد أنه اعتمد على أن مرور الوقت فى صالحه ، بيد أننا نخطىء إذا اعتقدنا أن مصحف عثمان قد فرض نفسه على مجموع الأمة دونما أية مقاومة .

ولا ريب فى أن الكتّاب المسلمين قد شوهوا الحقيقة حين جعلوا دور عثمان حاسما فى إعداد المصحف الرسمى ، إذ ظل النص القرآنى حتى بعد هذا الخليفة غير وافٍ بجميع المتطلبات ، وتم خلال الست عشرة سنة التالية كثير من التحسينات ، وبخاصة حين طوّر النُسّاخُ العربُ نظامَ الكتابة المعروف وقتئذ (١٤) . وهنا لا يسعنا أن ننسى ما بادر به الحَجّاج والى العراق من إجراءات . أيا ما يكن الأمر فإن عثمان مع ذلك هو صاحب الفضل الكبير فى المساهمة فى تجنب الأخطار الناجمة عن تعدد المصاحف . وكذلك إليه ، وإليه وحده ، تدين الأمة الإسلامية بتثبيت نموذج كتابها المقدس للأجيال القادمة .

الحالة الراهنة للقرآن وما يتصل بها من مشاكل : ينقسم القرآن ، كما هو فى المصحف العثمانى ، إلى مائة وأربعة عشر قسماً كلٌ منها يسمى « سورة » ، وهذا التقسيم يرجع إلى عهد محمد . وكل قسم من هذه الأقسام هو فى الحقيقة تركيبةٌ مصطنعة مكونة من عدة نصوص ، وهذا التركيب فى معظم الحالات يبدو أنه أيضا من عمل محمد. وفى غالب الأحيان نرى أن السورة الواحدة تضم نصوصا من مراحل مختلفة، إذ المشاهَد أن نبى الإسلام كان يضم نصا متأخرا إلى آخر مبكر لا لشىء إلا

لأن الثانى يكمّل الأول أو يعدّله أو يُشْبهه مضمونا . ومثال سورة «البقرة» (حيث أضيفت الآية ٢٣٧ إلى الاثنتى عشرة آية السابقة لأنها كلها تعالج الطلاق) يُغْنى عن كثيرٍ مثله . ويتكون كل من هذه النصوص فى داخل السور من وحدات موزونة موقَّعة كما فى السجع ، ويحس الإنسان غالبا كما لو أنها أبيات منفصلة ، إلا أن أصالة هذا الإحساس غير مؤكدة لأننا أحيانا ما نجد فى بعض المخطوطات القديمة وحدات موزونة ذات إيقاع ، كلٌ ثلاثٍ أوخمسٍ أو عشرٍ معا . والمائة والأربعة عشر قسما الواردة فى مصحف عثمان مرتبة ، بوجه عام ، ترتيبا طوليا تنازليا ما خلا السورة الأولى « الفاتحة » التى ، رغم عدم تجاوزها تسع آيات ، تمثل ما يشبه «قانون الإيمان» . وهذا الترتيب العجيب الذى ربما كان راجعا لتأثيرٍ أرامى موجودٌ فى مصاحف أخرى غير معتمدة كمصحف ابن مسعود . وقد رأينا كيف أن الترتيب التاريخى للقرآن قد عبث به محمد نفسه جزئيا فى داخل السور [١٥] ، ثم كان من جراء الترتيب المتبع فى مصحف عثمان أن ازداد اضطرابا . ويمثل القرآن بوضعه الحالى رسالة محمد مقلوبة ، فالسور التى يبتدئ بها لكونها هى الأطول مكوّنة فى الأغلب من آيات نزلت فى المدينة (٦٢٢ ـ ٦٣٢م) ، وعلى العكس ترجع سور المؤخّرة فى الأغلب (وهى السور الأقصر) إلى بداية الدعوة ، أى بعد حوالى سنة ٦١٢م .

وقد تنبه العلماء والفقهاء المسلمون إلى الصعوبات الناجمة عن هذا الوضع ، إذْ همْ ، انطلاقا من الإشارات الحقيقية أو المتوهَّمة المتعلقة بأحداث الدعوة المحمدية ، قد ربطوا بين الآيات وما تشير إليه . فإذا وضعنا فى تقديرنا ما يحيط بهذه النصوص من إبهام وما يغلّف بعض الفترات فى حياة النبى من غموض ، وإذا أضفنا إليها قصور المنهج المتّبع ، فسوف نشعر بما فى جهود المفسرين من تقصير عن متطلبات التاريخ . وقد اضطلع المستشرقون فى منتصف القرن التاسع عشر بهذه المشكلة على أسس جديدة، وتوصلوا بفضل نولدكه وشفالى لا إلى إعادة ترتيب « النصوص » القرآنية تاريخيا ، فهذا مستحيل ، بل على الأقل إلى إعادة ترتيب « السور » ترتيبا يقوم فى عمومه على ما لحق دعوة مؤسس الإسلام من تطور . ولايمكن أىّ باحث جاد أن يفكر فى دراسة أصول الإسلام مع إغفال النتائج التى توصلت إليها هذه المجهودات

الجادة . كذلك لايمكن أيةَ دارسة أدبية للقرآن أن تكون مُرْضِية إلا إذا توخّت أن تتتبّع فى المصحف الحالىّ المراحل المختلفة لدعوة محمد .

سور المرحلة المكية الأولى: فلنمض مع المصحف العثمانى ابتداءً من سورة « النجم » ، ولسوف نجد عندئذ مجموعة من السور التى تَقْصُر تدريجيا كما هو متوقع . ويمكننا ، بناءً على قول نولدكه وشفالّى ، أن نستبقى منها سبعا وأربعين سورة تشكل مجاميع مصطنَعَة غالبا كما سلف القول ، وتسودها « الطريقه » الأولى للدعوة القرآنية . وثمة مجموعة ربما كانت أقدم ما نزل من الوحى ، وهى تضم ثمانية نصوص تتضمن دعوة إلى التوبة والتطهر ، ثم تليها مجموعة أغنى مضمونًا قوامها ثلاث وعشرون سورة . وفيها نلحظ ، بخاصة ، الحجةَ التى استعملها أتيناجون قبل ثلاثة قرون فى العالم النصرانى ، وهى أن الحياة الجنينية تدل على وجود بعث بعد الموت ، إذ ليس مستحيلا على الله أن يحيى ثانية من سبق له أن خلقهم . ثم إننا نفاجأ فى هذه المجموعة بأن محمدا لـمّا يكن قد دعا إلى وحدانية الله ، إذ كان يأمل دائما أن يستطيع تحقيق تركيبة تضم إلى عبادة رب الأرباب الخالق أربابا ثانويين .

وإذا بحثنا عن الموضوع الغالب على هذه المجموعة فسنجد أنه تصوير يوم القيامة الذى يجمع فى هذه السورة بين التعدد والإفاضة . ومن المرهق أن ندرس على حدةٍ كُلاً من العناصر المختلفة التى تتكون منها الواقعة الأخيرة وبعث الموتى ومصيرهم إلى الجنة أو النار . وهذه العناصر فى الواقع مترابطة ومتكررة ومتداخلة : ﴿ إن يومَ الفصلِ كان ميقاتا * يوم يُنْفَخُ فى الصُّورِ فتأتون أفواجا * وفُتِحَت السَّماءُ فكانت أبوابا * وسُيِّرتَ الجبال فكانت سرَابا* إن جهنّم كانت مرْصادا * للطَّاغين مآبا * لابثين فيها أحقابا * لايذوقون فيها بَرْداً ولا شرَابا * إلا حَميماً وغَسّاقا * جزاءً وِفاقا * إنهم كانوا لايرجون حسَابا * وكذّبوا بآياتنا كذّابا * وكلَّ شىء أحصيناه كتابا * فذوقوا فلن نزيدَكم إلاَ عذَابا * إن للمتقين مَفَازا * حدائقَ وأعْنابا * وكواعِبَ أترابا * وكأسًا دهاقا * لا يسمعون فيها لَغْواً ولا كِذّابا * جزاءً من ربِّك عطاءً حسابا * ربِّ السَّمواتِ والأرضِ وما بينهما الرحمنِ لا يملكون منه خطابا * يَوْمَ يقوم الروح

والملائكةُ صَفّاً لا يتكلمون إلا مَنْ أذن له الرحمنُ وقال صوابا * ذلك اليومُ الحقُّ ، فمن شاء اتّخذ إلى ربّه مآبا ﴾ [سورةَ النبأ ١٧ ـ ٣٩] .

والأغلب فى هذه النصوص أن يُراوِح بين عرض لذائذ الفردوس ووصف آلام الجحيم : ﴿ هل أتاك حديثُ الغاشية ؟ * وجوه يومئذ خاشعة * عاملةٌ ناصبةٌ * تَصْلَى ناراً حامية * تُسقَى من عينٍ آنية * ليس لهم طعام إلا مِنْ ضَرِيع * لا يُسْمِنُ ولا يُغنى من جوع * وجوهٌ يومئذ ناعمة * لسَعْيِها راضية * في جنّةٍ عاليةٍ * لا تَسْمَعُ فيها لاغيةً * فيها عينٌ جارية * فيها سُرُرٌ مرفوعة * وأكواب موضوعة * ونمارقُ مصفوفة * وزرابىُّ مبثوثة ﴾ [الغاشية ١ ـ ١٦]. وتتحرك الشخصياتُ ذاتها من حورياتٍ نُجْلِ العيون وسُعَداءَ يتلذذون بالتمدد على أرائك مفروشةٍ بالبُسُط ، وغلمان يطوفون بأكواب، وملعونين يعذَّبون بالنار ولهيب العطش فى مناظر هى هيَ دائما: جنات تشقُّها الجداول ، وظلال أشجار محملة بالثمار فى متناول اليد ، وهوًى تتأجج بنار تسعّرها الشياطين . والشواهد قائمة على أن هذه التفاصيل التى قلما تتنوع ، وإن كان تأثيرها عنيفا على المكيين الذين كانوا يعيشون على تلك الأرض التى تسفعها الشمس سفعا ، إنما فُهِمَتْ بمعناها المادى فقط . ثم حدث بعد ذلك أن بعض العلماء قد ضايقهم هذا الوصف المادى المحض للذّاتِ العالم الآخر وآلامه فحاولوا أن يجدوا فى النص القرآنى أنغامًا أخرى . وهكذا فإن صورة العالم الآخر فى هذه السورة لها الطابع الاستحضارى الذى يميز العقلية العربية ، إذ بدل أن يُضعف تكرارُ تفصيلةٍ بعينها تأثيرَها، فإنه يسيطر على العقل مع إثارته لمجموعة مشاهد ثانوية (١٦) تكوّن بكلِّ تأكيدٍ لوحة ، وتخلق مع ذلك جوّاً . ولنذكر كذلك ما كان لهذه الأوصاف من جاذبية على هؤلاء المستمعين الذين سرعان ما تلهبهم صُوَر اللذائذ والشهوات (١٧) . ولْنتخيل أيضا الرعب الذى كان يوقعه التهديد بـ « اليوم الرهيب » بنفوس بعض البسطاء : ﴿ إذا السماءُ انشقّت * وإذا الكواكبُ انتثرتْ * وإذا البِحارُ فُجِّرتْ * وإذا القبورُ بُعثِرَتْ ﴾ [الانفطار ١ ـ ٤] .

إن هذا الوصف وأمثاله ليَبْرُق فى العيون ويدُقّ فى الآذان على مر العصور. أما

كيف كان تأثيره علـى أصحـاب محمد المتعودين على تنبؤات « العرافين » العديمة القيمة ، فذلك يجرنا إلى إعجاز الوحى القرآنى .

وفى مجموعة ثالثة من إحدى عشرة سورة نجد ذات الموضوعات الأخروية التى أحيانا ما يُزاد عليها الردّ على المعارضين . ولا بد أن النبى قد تلقّى هذه الآيات فى الوقت الذى لم يعد فيه متأكدا من كسب خصومه إلى صفه ، إذ نبرة الحجاج صارمة تأخذ بخناق من نزلت فى حقـهم ، وليس الأمر هنا أمر مجادلات بل أمر عبارات خاطفة وردود قاطعة ودمدمات غاضبة متحدية : ﴿ كلا بل لا تُكْرِمون اليتيم * ولا تحاضُّون على طعام المسكين * وتأكلـون التُّراثَ أكْلاً لَمّاً * وتحبونَ المال حبّاً جمّاً * كلاً ... ﴾ [الفجر ١٧ ـ ٢١] .

وقد وضع نولدكه وشفالّى ، وإن لم يخل الأمر من تردد ، فى نهاية هذه الفترة خمس سور قصار هى أدعية أو رُقَى ، وأشهرها هى « الفاتحة » ، التى تقوم فى العبادات الإسلامية إلى حدّ ما مقام الصلاة الربانية عند النصارى : ﴿ بسم الله الرحمنِ الرحيم * الحمدُ لله ربِّ العالمين * الرحمنِ الرحيمِ * مالكِ يومِ الدِّين * إياك نعبدُ وإياك نستعين * اهْدِنا الصِّراطَ المستقيم * صِراطَ الذين أنعمت عليهم غيرِ المغضوبِ عليهم ولا الضّالّين ﴾.

والتشـابه الأسلوبى فى هذه السورة الأولى شـديد الوضـوح ، فهـذه الوحدات الإيقاعية الواضحة القِصر لا تزيد عموما عن عشرة مقاطع ، وهذه الجمل الصغيرة ذات إيقاع جدّ ملحـوظ ، وتنتهى بفواصل متنوعة مقسّمة ثلاثا أو أربعا أو أكثر . إن سورة « الناس » مثلاً مكونة من ثمانى وحدات إيقاعية ذات فاصلة واحدة ، ويرجع تأثيرها أولا إلى خبطة الفاصلة ، كما يرجع أيضا إلى تكرير الصيغ والتراكيب ذاتها . وكثيرة جدا بخاصةٍ هى الأقسام التى يُستَشهَـد فيـها بالكـون وبتنوعه اللانهائى عـلى قـرب يـوم الحسـاب: ﴿ والشمسِ وضُحاها * والقمـرِ إذا تلاها * والنهـارِ إذا جلاّها * والليلِ إذا يَغْشَاها * والسماءِ وما بناها * والأرضِ وما طحَاها * ونفسٍ وما سوّاها * فألْهَمَها فُجورَها وتقواها * قد أفْلحَ مَنْ زكّاها * وقد خاب مَنْ دسّاها ﴾ [سورة

الشمس] . ولا يستطيع الإنسان إلا أن يفكر فى الصيغ التى يستعملها « العرافون » فى ذلك الحين . وإنّ تفاوت الوحدة الإيقاعية مضافا إليها قصرها ليُضفى على الأسلوب حركة متقلقلة لاهثة : ﴿ إذا الشّمس كُوِّرت * وإذا النُّجوم انكدَرت * وإذا الجبالُ سُيِّرت * وإذا العِشَارُ عُطِّلت * وإذا الوحوشُ حُشِرَت * وإذا البحار سُجِّرت * وإذا النفوس زُوِّجَت * وإذا الموؤودةُ سُئِلَتْ : * بأى ذَنْبٍ قُتِلت ؟ * وإذا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وإذا السماءُ كُشِطتْ * وإذا الجحيمُ سُعِّرتْ * وإذا الجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضرت * فلا أُقْسِم بالخُنَّسِ * الجَوَارِ الكُنَّسِ * والليلِ إذا عَسْعَسَ * والصُّبح إذا تَنَفَّس * إنه لقَوْلُ رسولٍ كريـمٍ * ذى قُوَّةٍ عندَ ذى العَرْشِ مكينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أمينٍ * وما صاحبكم بمجنون ﴾ [سورة التكوير] .

والواقع أنه لولا استخدام الجمل القصيرة المسجوعة لكنا جدّ قريبين من لغةٍ عفوية مؤسسة على هذيان « الموحى إليه » (١٨) ، إلا أننا نكرر أن الوحى القرآنى عبارة عن توجيه . وفى نصوص هذه الفترة سوف يظهر هنا وههنا لمحات من الأسلوب الخطابى بجمله المدوّرة وتكريراتـه ومقـابلاته اللفظيـة : ﴿ إذا رُجَّتِ الأرضُ رجًّا * وبُسَّتِ الجبالُ بَسًّا * فكانت هَبَاءً مُنْبَثًّا * وكنتم أزواجا ثلاثة * فأصحابُ المَيْمنَةِ ما أصحابُ الميمنة ؟* وأصحاب المَشْأمة ما أصحابُ المشأمة ؟* والسابقـون السابقـون * أولئك المقـرَّبون * فى جنات النعيم * ثُلَّةٌ من الأولين * وقليلٌ من الآخِـرين * على سُرُرٍ موضونةٍ * متكئين عليها متقابلين * يطوف عليهم وِلْدانٌ مخلَّدون * بأكوابٍ وأباريق وكأسٍ من مَعِينٍ * لا يُصدَّعون عنها ولا يُنْزِفون * وفاكهةٍ مما يتخيَّرون * ولحم طيرٍ مما يشتهـون * وحُورٌ عينٌ * كأمثال اللؤلؤِ المكنون * جزاءً بما كانوا يعملـون * لايسمعـون فيها لَغْواً ولا تأثيما * إلا قيلاً : سـلامًا سلاما * وأصحابُ اليمين ما أصحابُ اليمين ؟* فى سِدْرٍ مخضودٍ * وطَلْحٍ منضود * وظلٍّ ممدودٍ * وماءٍ مسكوبٍ * وفاكهـةٍ كثيرةٍ * لا مقطوعةٍ ولا ممنوعة * وفُرُشٍ مرفوعةٍ * إنا أنشأناهن إنشاء * فـجعلناهنّ أبكارا * عُـرُبا أترابا * لأصحـابِ اليـمين * ثُلَّةٌ من الأولين * وثلةٌ من الآخِرين * وأصحابُ الشِّمال ما أصحابُ الشِّمالِ ؟ * فى سَمُومٍ وحَميمٍ * وظِلٍّ من يَحْمـوم * لاباردٍ ولا كـريم * إنهـم كـانوا قبلَ ذلك مُتْرَفين * وكـانوا يصِرُّون على

الحنث العظيم * وكانوا يقولون : أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون ؟* أوآباؤنا الأولون ؟* قل : إن الأولين والآخرين * لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم * ثم إنكم أيها الضالون المكذبون * لآكلون من شجر من زقوم * فمالئون منها البطون * فشاربون عليه من الحميم * فشاربون شرب الهيم * هذا نزلهم يوم الدين ﴾ [الواقعة ٤ ـ ٥٦] .

هذا ، ونشير أخيرا إلى ما فى اثنتين من السور من تركيب ذى قرار ، ولأن القرار لا يتكرر ظهوره على فترات متساوية فإننا لا يمكننا الحديث عن تركيبة مقطعية بل عن طريقة قصد بها الإلحاح على السامعين : ﴿ مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان * فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟* يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان * فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟* وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام * فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟* كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام * فبأى آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴾ [الرحمن ١٩ ـ ٢٨] .

ومن المؤكد أن أية ترجمة لا تستطيع أداء الجلجلة اللفظية لأوحاء هذه الفترة . إن الأمر هنا فى الواقع أمر شعر صاف حيث موسيقى الكلمات وترتيبها يتأبيان ، عند معاودة النظر ، على عمل العقل . ولقد أخطأ خصوم محمد فلم يروا فيها إلا تعاويذ وتعازيم سحرية . ورغم أن معرفتنا بتنبؤات الكهان مقصورة على الاستنتاج ، فإننا مع ذلك نعتقد أن مثل هذا الحكم يفتقر إلى سند ، إذ إن ما جاء به الرسول فى هذه السور له من النبض والإشراق والجلال فى الواقع ما لا يلحق بغباره ارتجالات الكهان (العرافين) على قدر معرفتنا بها من خلال ما وصلنا من نصوص غير موثقة .

سور المرحلة المكية الثانية : إذا فتحنا مصحف عثمان على السورة الثامنة وما يليها فإننا نستطيع أن نصنف مع نولدكه وشفالى مجموعة جد متجانسة من اثنين وعشرين نصا أطول مما تم فحصه كل منها تركيبة مكونة أحيانا من وحيين أو ثلاثة أوحاء متميزة فى الأصل ، وإن كانت جد متقاربة زمنيا ، حيث يدعى الإله بـ « الرحمن » . ويكشف مضمون هذه الأوحاء عن ازدياد الهوة كل يوم اتساعا بين مشركى مكة ونبى الإسلام ،

الذى كان قد فقد كل أمل فى كسب خصومه عن طريق حل وسط [١٩] فَثَبَتَ على دعوته التوحيدية حتى إن وحدانية الله التى لم يكن قد عُبِّر عنها إلا فى إحدى سور المرحلة السابقة فقط لَيُعْلَن عنها بإصرار هنا . كذلك يُعْلَن مرارا وتكرارا أن النبى الجديد إن هو إلا نذيرٌ بالرجعة النهائية مهمَّته أن يدعو العرب إلى عبادة الله وعمل الصالحات استعدادا لقيام الساعة ، وأنه غير مسؤول إذا أصر الكفار على عنادهم . وفضلا عن ذلك فإن أوصاف اليوم الآخر قد تقهقرت إلى المحل الثانى ، أما الموضوع الرئيسى ، وهو ما لا عهد لنا به فى السور السابقة ، فإنه يذكِّر بـ « النبى الصارخ فى البَرِّيَّة » . إن أمما أخرى فى الأعصر الخوالى قد صَمَّتْ هى أيضا عن دعوة رسل الله إليها : فعادٌ فى جنوب الجزيرة ، وثمودُ فى وادى القرى شماليَّ يثرب ، وقوم نوح ، وقوم لوط ، وفرعون قد أُهْلِكوا من جراء غطرستهم وكفرهم ، ولسوف يحل العقاب الإلهى بأهل مكة الذين لا يلقون بالاً لدعوة محمد ، أما المؤمنون فسوف ينجيهم إيمانهم .

إن عددا من هذه السُّوَر ليبدو وكأنه مواعظ مكونة من ثلاثة أجزاء : أوَّلها يقوم على الإنذار والدعوة إلى الإيمان وتهديد الكفار . وثانيها ، وهو متنوِّع الطول ، يقص العقاب الإلهى الذى حل بالأمم الكافرة . أما الثالث فهو خاتمة الموعظة ، وكثيرا ما يعود إلى موضوع الجزء الأول . ومن غير المؤكد أن يكون هذا اتجاهاً أصيلاً ، إذ كل شىء يبعث على الظن بأنه نتيجةٌ لتوضيح لاحق من محمد نفسه ، وعلى هذه الشاكلة كان أسلوب الدعوة فى نصوص الوحى .

ومن المفيد جدا من وجهة النظر الأدبية أن نفحص الطرق المستخدَمة فى النصوص القصصية الكثيرة التى تؤلف هذا الضرب من المواعظ . ولا بد فى ذلك من التحرز ، فإن إعادة تصنيف السور سيظل فى الواقع مسألة ذاتية فى جانب كبير منها ، وينبغى ألا نطمع فى أكثر من التوصل إلى حكم قابل للمراجعة [٢٠] . ويمكن أن تتم الدراسة فى نطاق موضوع معين كقصة نوح أو إبراهيم أو لوط ، بينما تهيِّئ قصة موسى فُرَصًا أكثر للمقارنة : فهى أحيانا مجرد إشارة ، وغالبا ما تكون مركَّزة لا تبغى غير

استخلاص العبرة : ﴿ ولقد فتنّا قبلَهم قومَ فِرعَوْنَ وجاءهم رسولٌ كريم : * أَنْ أدّوا إلىّ عِبَادَ اللـه ، إنّى لكم رسولٌ أمين * وأن لا تَعْلوا على اللـه ، إنّى آتيكم بسلطان مبين * وإنّى عذت بربّى وربكم أن ترجمون * وإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون * فدعا ربّه أنّ هؤلاءِ قوم مجرمون * فأسرِ بعبادى ليلاً ، إنكم متّبعون * واترك البحرَ رَهْواً ، إنهم جند مُغرقون * كم تركوا من جنات وعيونٍ * وزروعٍ ومقامٍ كريمٍ * ونَعمةٍ كانوا فيها فاكهين! * كذلك وأورثناها قوما آخرين * فما بكت عليهم السماء والأرضُ ، وماكانوا مُنظَرين * ولقد نجّينا بنى إسرائيلَ من العذابِ المهين ﴾ [الدخان ١٦ _ ٣٠] .

وفى أغلب الأحيان يتخذ السرد طابعاً تفصيليا ، ويمكن ، فضلا عن ذلك ، أن يؤدّى بروايتين متماثلتين . وهذا مثال يبين كيف يصف القرآن ، فى سورة من هذه المرحلة ، مشهد موسى وفرعون والسحرة : ﴿ فأتيا فرعَوْنَ فقولا : إنّا رسولُ ربِّ العالمين * أنْ أرسِلْ معنا بنى إسرائيل * قال : ألَمْ نربِّك فينا وليداً ، ولبثْتَ فينا من عُمُرِكَ سنينَ * وفَعلْتَ فَعلَتَكَ التى فَعلْتَ وأنت من الكافرين؟ * قال : فَعلْتُها إذاً وأنا من الضّالّين * فَفَرَرْتُ منكم لما خفتُكم، فوهب لى ربّى حُكْمًا وجعلنى من المرسلَين * وتلك نِعْمةٌ تَمُنُّها علَىّ أنْ عَبّدْتَ بنى إسرائيل ؟ * قال فرعون : وما ربُّ العالمين ؟* قال: ربُّ السماوات والأرضِ وما بينهما إن كنتم موقنين * قال لِمَنْ حَوْلَه : ألا تستمعون ؟* قال: ربُّكم وربُّ آبائكم الأوّلين * قال : إن رسولَكُم الّذى أُرْسِلَ إليكم لمجنون * قال : ربُّ المشرقِ والمغربِ وما بينهما إن كنتم تعقلون * قال : لَئِنِ اتّخَذْتَ إلَهًا غيْرِى لأجعلَنّك من المسجونين * قال : أَوَلَوْ جئتُك بشىءٍ مُبين ؟ * قال : فأْتِ به إن كُنتَ من الصّادقين * فألْقَى عصاه فإذا هى ثعبانٌ مبين * ونزع يدَه فإذا هى بيضاءُ للناظرين * قال للْمَلإ حولَه : إنّ هذا لَساحرٌ عليم * يريدُ أن يخرجَكم من أرضكم بسحْرِه، فماذا تأمرون ؟* قالوا : أرْجِهْ وأخاه، وابعثْ فى المدائن حاشرين * يأتوك بكلّ سحّارٍ عليم * فجُمِعَ السّحَرةُ لميقاتِ يومٍ معلوم * وقيل للناس : هلْ أنتم مجتمعون ؟ * لعلنا نتّبعُ السّحَرَةَ إن كانوا هم الغالبين * فلما جاء السحرةُ قالوا لِفرعَوْنَ: أإنّ لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين ؟ * قال : نعم ، وإنكم إذاً لَمِنَ المقرّبين *

قال لهم موسى : ألقوا ما أنتم ملقون * فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا : بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون * فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون * فألقى السحرة ساجدين * قالوا : آمنا برب العالمين * رب موسى وهارون * قال : آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟ إنه لكبيركم الذى علمكم السحر ، فلسوف تعلمون * لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم أجمعين * قالوا : لا ضير . إنا إلى ربنا منقلبون ﴾ [الشعراء ١٦ ـ ٥٠] . ففى النص السابق نشعر بالضيق للبطء الذى تتطور به القصة ولرتابة الحوار وجفاف التفاصيل (٢١) ، أما بالنسبة للرجل الغربى فإن حماسته تبوخ لأن هذا النص إنما هو صدى للأصحاح الخامس من سفر« الخروج»(٢٢) . لكن ينبغى ألا نستسلم لمثل هذه التأثيرات، فإن الذى نعرفه نحن قد يكون مملوءاً جدّة وحيوية للمواطن المكّىّ فى القرن السابع . كذلك ينبغى على الأخص التنبهُ إلى أن الأسلوب يرقَى بفعل استخدام النثر المسجوع الموقع ، وهكذا تتم المعجزة بفعل الطنين اللفظى(٢٣) .

وكما نرى فإن الصياغة فى سور هذه المرحلة مختلفة تماما عنها فى الأوحاء السابقة . لقد تلاشى من العبارة نَفَسُها الحارّ اللاهث ، ولم تعد ثمة أقسام ولا صيغ محفوظة تبعث على الضيق . كما أن الوحدات الإيقاعية ، بعد أن طالت قليلا ، قد منحت الفكرة سعةً فى التعبير . وفى مقابل ذلك فإن الجمل القصيرة المسجوعة لم يعُد لها ما كان لنصوص الوحى الأولى من تنوع خِصْب . ومع هذا ففى كثير من الأحيان نجد أن الله يُسَمَّى باسمين مزدوجين لهما قعقعة عالية . إن هذه الأوحاء تفقد كثيراً من الشاعرية والغنائية ، لكننا نستطيع أن نتتبع ، على نحو أفضل ، تطور الفكرة والحجاج والمجادلة .

سور المرحلة المكية الثالثة : وهناك اثنتان وعشرون سورةً استخرجها نولدكه وشفالى تمثّل ما نزل على محمد من وحى خلال الأعوام الأخيرة من إقامته بمسقط رأسه ، وغالبا ما نجدها مختلطةً بسور المرحلة السابقة أو موضوعةً قبلها بقليل فى مصحف عثمان . وهذه السور ذات طول شديد التنوع مما يفسر تفرقها فى المصحف ، كما أنها

أيضا توليفات مركّبة . ولأن غالبيتها تتخذ طابعَ مواعظَ ثلاثيةِ الأجزاء فإن بإمكاننا أن نتساءل : أهذا اتجاه أصيل ؟ إن الجواب بالنسبة لاثنتين منها بالإثبات ، أما بالنسبة للأخرى فهذه الخطة هى ، على العكس ، نتيجة لإضافة أوْحاءٍ لاحقة إلى أول السورة أو نهايتها . وربما حقّ لنا أن نظن أن هذا الشكل الثلاثى له علاقة بتسجيل النص كتابة. ومن جديد تظهر لفظة « الله » دلالة على الإله بدلاً من اسم « الرحمن » .

وهذه السور تُعَدّ امتدادا لسور المرحلة السابقة فى الشكل والمضمون معا ، ونشعر من خلال عدوانية الردود بأن عداوة المعارضة المكية قد اتخذت طابعا أعنف . أما صور اليوم الآخر فتظلّ فى تراجع ، وإذا ظهرت فإنها تكون مصغّرة ، أو تبدو على استحياء كما فى النص التالى : ﴿ وإن تَعجَبْ فَعَجَبٌ قولهم : أإذا كنا ترابًا أإنّا لفى خلْقٍ جديدٍ؟ أولئك الذين كفروا بربّهم ، وأولئك الأغلالُ فى أعناقهم ، وأولئك أصحابُ النار هم فيها خالدون ﴾ [الرعد ٥] .

وثمة استثناء وحيد فى سورة « الأعراف » حيث يتناول الوصفُ العالَمَ الآخر . وعلى العكس تكون السيادة لموضوع « النبيِ الصارخ فى البرية » ، وكثيرا ما تضاف إلى قصص نوح وإبراهيم ولوط وموسى قِصصُ هود وصالح وشعيب أنبياءِ عاد وثمود ومَدْيَن، وأحيانا يأتى السّرد ، كما فى قصة موسى من سورة «الأعراف» [١٠١ ـ ١٥٤] ، بحلقات جديدة كتلك المتعلقة بما أصاب المصريين . لكن الأمر فى أغلب الأحيان يقتصر على تناول موضوع معروف . وهكذا فإن وصف المواجهة بين موسى والسحرة هو تكرار للقصة الواردة فى سورة « طه » [٦٨ ـ ٧٤] و « الشعراء » [٤٢ ـ ٤٥] فى خطوطها العامة ، وبنفس عباراتها أحيانا ، مما يتولد عنه رتابةٌ بل ضيق من هذا التكرار الزائد (٢٤) . وهذه القصص التى نقرؤها فى مصحف عثمان بوصفها سلسلة متصلة تقريبا إنما تفصلها فى الواقع مسافات زمنية طويلة أو قصيرة . إن محمدا ، باختصار ، يَخضَع هنا للقانون الذى يسرى على كل خطيب شعبى (٢٥) ، فإنه لكى يقنع سامعيه ولكى يغلغل دروس الماضى فى عقولهم كان لا بد أن يلجأ إلى التكرار . وبنفس الطريقة التى يُتناوَل بها موضوع « نبى البرّيّة » فى هذه السورة يتأكد فى النفوس

أن مصير نبى الإسلام هو مصير هؤلاء الرسل . ومن أوضح الأمثلة فى هذا الصدد النص التالى الخاص بالنبى شعيب : ﴿ ياقومِ ، اعبـدوا اللّهَ ، ما لكم من إلهٍ غيره. قد جاءتكم بينةٌ من ربكم ، فأوْفوا الكيْلَ والميزانَ ، ولا تبْخسُوا الناسَ أشياءَهم ، ولا تُفْسِدوا فى الأرضِ بعد إصلاحِها . ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم مؤمنين * ... * ... فكيفَ آسَى علـى قومٍ كافرين ؟ ﴾ [سورة الأعراف٨٣ ـ ٩١] .

إلا أنه لا يمكن ، بناء على ذلك ، القولُ بأن هذه الادعاءات هى مجرد تكرار ، بل إنها عنصر من عناصر الدعوة أمْلَتْه طبيعة الأحداث . أما الهجوم على الكفار والحِجَاجُ ضدهم فلم يكونا فى هذه المرحلة الثالثة أقل ظهورا منهما فى السور السابقة ، ومن هنا كانت تلك الإعادات والتكرارات لنفس الفكرة ونفس الحجة ونفس التأكيد بصورة قلما تتغير .

وعلى عكس الأناجيل يحتوى القرآن على أمثال قليلة . وفى أوْحاء المراحل السابقة لا نجد منها إلا خمسة ، أما فى السور الحالية فيقابلنا منها نحو اثنى عشر ، وهى بعامةٍ قصيرةٌ وجافةٌ لدرجة الإجداب : ﴿ مَثَلُ الذين اتَّخذُوا من دون الله أولياءَ كَمَثَلِ العنكبوتِ اتَّخذَتْ بيتا . وإن أوْهَنَ البيوتِ لَبَيْتُ العنكبوتِ لوكانوا يعلمون ﴾ [العنكبوت ٤١] .

وأحيـانا تظهـر علـي هيئـة نسـق أكثر منها وصفا ، وذلك لإبراز الفكرة المجردة: ﴿ ألَمْ تر كيف ضَرَبَ اللهُ مثلاً كلمةً طيبةً كشجرةٍ طيبةٍ أصلُها ثابتٌ وفرعُها فى السمـاء * تُؤْتِى أُكُلَهـا كلَّ حينٍ بإذن ربِّهـا ؟ ويضـرب اللهُ الأمثـالَ للناس لعلهم يتذكَّرونِ * ومَثَلُ كلمةٍ خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثةٍ اجتُثَّتْ من فَوْقِ الأرض ما لها من قرارٍ * يُثَبِّتُ اللهُ الذين آمنوا بالقـول الثـابت فى الحيـاة الدنيـا وفى الآخـرة ، ويُضِلُّ الله الظالميـن ، ويفعلُ اللهُ ما يشاء ﴾ [إبراهيم ٢٤ ـ ٢٧] .

إلا أن هناك مع ذلك مثلا واحدا قد تطور إلى صورة تتسم بالدقة والشاعرية : ﴿ إنما مَثَلُ الحياة الدنيـا كمـاءٍ أنزلناه من السـماء فـاختلط به نباتُ الأرض مما يأكلُ الناسُ والأنعامُ . حتى إذا أخذتِ الأرضُ زخْرُفَها وازَّينتْ وظنَّ أهلُها أنهم قادرون عليها أتاها

أمرُنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تَغْنَ بالأمسِ . كذلك نفصِّلُ الآيات لقوم يتفكرون ﴾ [يونس ٢٤] .

وبهذا العدد الضئيل من الأمثال ومن خلال أسلوبها يتأكد الانطباع العام بأن الدعوة كانت تهدف إلى فرض الإيمان وهزيمة الخصم عن طريق الجدال وإفزاعه بالتهديد بعذاب الجحيم أكثر من تنويره وإقناعه بضلاله إقناعا هادئا (٢٦) .

لقد كان لا بد لرسالة محمد بطبيعتها أن تتضمن منذ البداية حشدا من التوجيهات موجَّها للمؤمنين ، ومع ذلك فقد كان علينا أن نصل إلى سور هذه المرحلة قبل أن نجد لا توجيهاتٍ مبهمةً أو مفصَّلة بل وصايا من نوع الوصايا الموسوية : ﴿ قل : تعالَوْا أتلُ ماحرَّم ربُّكم عليكم : ألاَّ تشركوا به شيئا، وبالوالدَيْن إحسانا ، ولا تقتلوا أولادَكم من إملاقٍ، نحن نرزُقُكم وإياهم ، ولاَتقْرَبوا الفواحشَ ما ظَهَرَ منها وما بَطَنَ ، ولا تقتلوا النَّفْسَ التى حرَّم اللهُ إلا بالحقِّ . ذلكم وصَّاكم به لعلكم تعقلون * ولا تقْرَبوا مالَ اليتيم إلا بالتى هى أحْسَنُ حتى يبْلُغَ أشُدَّه ، وأوفُوا الكيلَ والميزانَ بالقسط ، لا نُكلِّفُ نَفْساً إلا وُسْعَها ، وإذا قلتم فاعْدلوا ، ولوكان ذَا قُربَى ، وبعهد الله أَوْفُوا ! ذلكم وصَّاكم به لعلم تذكَّرون * وأنَّ هذا صِراطى مستقيماً فاتَّبعوه، ولا تتَّبعوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بكم عن سبيله . ذلكم وصَّاكم به لعلكم تتقون ﴾ [الأنعام / ١٥١ ـ ١٥٣] . كما يوجد أيضا نصٌّ من هذا النوع فى سورة قد تكون سابقة زمنيا . وهذان الوحيان الغنيان مضمونا (ويمكننا أن نخمن ما استخلصه المفسرون وعلماء الدين منهما بعد ذلك) ليسا أقل أهمية من ناحيةِالشكل أيضا ، فإنهما ينمّان فى الواقع عن وجود محيط جديد وأمة سهلة الانقيـاد لرئيس دينـى ، فضلا عن لَفْت الانتباه إلى أفق أرحب .

أما بالنسبة للأسلوب فإن سُوَر هذه المرحلة الثالثة قد أبرزت الاتجاهات التى كانت فى الأوحاء السابقة . لقد اختفت الآيات الملتهبة اللاهثة ، وانقضى زمن التهديد والتخويف باقتراب الساعة ، ولم تعد نبرة الكلام ، حتى أثناء حُموِّ الجدال ، تشى بالاندفاع بل بالفكرة الموجَّهة المملوكة الزمام ، كما يدفع النَّفَسُ الإلهى متلقِّىَ الوحى

إلى الصيغ والرواسم التى تجلب الضيق هنا أيضا ، وتظهر الفكرة منسجمةً فى قالبها ، وتطول العبارة التى تؤديها ، ولكنها تُضْحِى بلا إيقاع . وفى الوقت ذاته تصبح أهمية القافية أو السجعة مبالغا فيها ، ومع ذلك يقل عدد القوافى المتناغمة ، مع شيوع استخدام الصفات المزدوجة المستعملة فى أوحاء المرحلة الثانية ، كـ « العزيز الحكيم » أو « العزيز الغفور » ربما للتعويض عن ذلك .

وقد يجد من يقرأ القرآن مترجمًا إغراءً فى الحكم على أسلوب هذه السُّوَر بأنها تعبير نثرى لموضوعات تُنوِولَتْ قبلاً تناولاً أكثر غنائية أو أكثر شاعرية . وهذا الحكم مصيب فى عدد كبير من الحالات ، إذ إن القصص السابقة التى يكثر فيها الإيحاء والإبهام من جرّاء الحذف قد أخلَت الطريق للَوْنٍ من القصص متّصل الأحداث . وهذا يظهر من المقارنة بين النصين التاليين اللذين ينتمى أوّلهما إلى بداية المرحلة المكية الثانية، وثانيها إلى المرحلة الثالثة :

﴿ هل أتاك حديثُ ضَيْفِ إبراهيم المُكْرَمين * إذ دخلوا عليه ، فقالوا : سلاما . قال : سلامٌ ، قومٌ منكَرون ؟* فراغ إلى أهله فجاء بعجْلٍ سمين * فقرّبه إليهم قال : ألا تأكلون ؟* فأوجَسَ منهم خِيفَةً . قالوا : لا تَخَفْ . وبشّروه بغُلامٍ عليم * فأقبلت امرأتُه فى صَرّةٍ فصكّت وجْهَها وقالت : عجوزٌ عقيم * قالوا : كذلكِ قال ربُّكِ . إنه هو الحكيم العليم * قال : فما خَطْبُكم أيها المرسلون ؟* قالوا : إنا أُرسلنا إلى قومٍ مجرمين * لِنُرْسِلَ عليهم حجارةً من طين * مسوَّمةً عند ربك للمسرفين * فأخرجنا مَن كان فيها من المؤمنين * فما وجدنا فيها غير بيتٍ من المسلمين ﴾ [الذاريات ٢٤ ـ ٣٦] .

﴿ ولقد جاءت رسلُنا إبراهيمَ بالبشرى . قالوا : سلاماً . قال : سلام . فما لبث أن جاء بعجْلٍ حنيذ * فلما رأى أيْدِيَهُمْ لاتصلُ إليه نَكِرَهُمْ وأوْجَسَ منهم خِيفَةً . قالوا : لا تَخَفْ ، إنا أُرسِلْنا إلى قَومِ لوط * وامرأتُه قائمةٌ فَضَحِكَتْ ، فبشّرناها بإسحاقَ ومن وراءِ إسحاق يعقوبَ * قالت : يا ويْلَتا! أألِدُ وأنا عجوزٌ ، وهذا بَعْلِى شيخا ؟ إن هذا لَشىء عجيب * قالوا : أتَعْجَبِينَ من أمْرِ اللّهِ ؟ رحمةُ اللّهِ وبركاتُه عليكم أهْلَ البيت !

إنه حميد مَجيد * فلما ذهب عن إبراهيمَ الرَّوْعُ وجاءته البُشْرَى يُجادِلُنا فى قَومِ لُوط ﴾ [هود ٦٩-٧٤].

وربما كان من الخطإ أن نَعْزُوَ إلى موسيقى الكلمات وحدها (٢٧) القيمةَ الأدبية لقَصَصٍ يمكن مقارنته بما سبق . إن قيمة هذه القطع ترجع إلى ما فيها من البساطة الفنية ، وإيراد التفصيلة فى موضعها ، والتقاط الحركة الصادرة عن الشخصية . وهذا الأمر يظهر بخاصة فى سورة «يوسف» ، فإنها إذا قورنت بالقصة المماثلة فى سفر «التكوين» المثقل بالزوائد والاستطرادات تبدو أرقى ، إذ إن أحداثها تتطور تطورا يقظا وتخلو من كلِ ما لا يفيد(٢٨) ، كما أنها تخضع للفكرة المعزّية التى تؤكّد أن صاحب الحق منتصر بإيمانه وإخلاصه . ثم إن المقدرة على القصص ليست هى وحدها المستحقّة للتقدير بل يشاركها أيضا السمات الخطابية والأسلوبية . والقارئ للآيات ٥٧ - ٩١ من سورة « الأعراف » التى تتناول قصص نوحٍ وهود وصالح ولوط وشعيب يشدهه التوازنُ بين هذه القصصِ الخمس ، والتأثيرُ الناجِ من تكرار هذه اللازمة فى اثنتين منها : ﴿ فأخذتْهم الرَّجفةُ فأصبحوا فى ديارِهمْ جاثمين ﴾ . وأخيرا ففى هذه الأوحاء حيث تتولد الرتابة عن هذا التكرار لا نَعْدَمُ أَن نجد مثل النص التالي : ﴿ قُل : مَن يرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأرضِ؟ أَمَّن يَمْلكُ السَّمعَ وَالأبصارَ ؟ وَمَن يُخرِجُ الحيَّ من الميت ويخرج الميّتَ من الحى ؟ ومن يدبِّر الأمر ؟ فسيقولون : الله. فقل : أفلا تتقون ؟* فذلكم اللهُ ربكم الحق ، فماذا بعد الحقِ إلا الضلال؟ فأنى تُصرَفون ؟* كذلك حقّتْ كَلمةُ ربِّك على الذين فَسَقُوا أنهم لايؤمنون * قل : هل من شركائكم من يبدأ الخلْق ثم يُعيده؟ قل : اللهُ يبدأ الخلق ثم يعيده ، فأنّى تؤْفَكون ؟ * قل : هل من شركائكم من يَهْدى إلى الحق ؟ قُلِ: اللهُ يَهْدى للحق . أفمن يَهْدى إلى الحق أحقُّ أن يتّبع أمَّنْ لايَهِدِّى إلا أن يُهْدَى ؟ فما لكم ؟ كيف تحكمون؟* وما يتّبعُ أكثرُهم إلا ظنا . إن الظنَّ لا يُغْنى من الحقِّ شيئا . إن اللهَ عليم بما يفعلون ﴾ [يونس ٣٠ - ٣٦].

وإلى جانب التنوع الأسلوبى ما بين استفهام وتأكيد قاطع مُعْجِب فإننا نلاحظ

توثب الفكرة التى تدفع الخصم أمامها وترهقه غير تاركة له وقتا للرد أو لاستجماع قواه. فهنا بلاغة عفوية تظهر حتى فى الترجمة .

سُوَر المرحلة المدنية: إن الأوحاء التى نزلت أثناء هذه المرحلة الأخيرة للدعوة لَتَعكس بدقة كافةَ الهموم التى كانت تساور محمدا والمصاعب التى كان عليه أن يقهرها. وبفضل كثير من الإلماعات التى لا تقبل المناقشة والتى يسهل تفسيرها يمكننا أن نتتبع الحوادث التى تدل على الانتصار المثابر للإسلام وصاحبه : من مجادلات مع قبائل اليهود ، وفشلٍ فى محاولة ضمهم إلى الحنيفية ، إلى الحرب فى سبيل الله ضد «الإخوة» القدامى بمكة ، وأخيرا انتصار الأمة المحاربة على جميع أعدائها ، ثم الحملات الأولى على حدود الأرض العربية . وفى هذه النصوص أيضا نجد حلا للمشاكل المتعلقة بالأوضاع الشخصية ، والعلاقات الدولية ، والقانون الجنائى ، والروابط الاجتماعية بعامة .

إن الأوحاء التى نزلت على محمد فى المدينة من ٦٢٢م إلى ٦٣٢م تشكّل مادة أربع وعشرين سورة . وهى بعامةٍ شديدة الطول ، ولهذا وُضعَت فى أول مصحف عثمان . ومع ذلك فإن بعض هذه السور ، من جراء قصرها النِّسْبىّ ، قد وُزِّع على أمكنة أخرى . وبسبب محتوى هذه النصوص، وما فيها من مواد تشريعية بخاصةٍ ، كان لابد أن تتم كتابتها بعد قليل من نزولها إن لم يكن فوره ، بيد أنه لايوجد دليل على أن ذلك الفرض [٢٩] يَصْدُق على كل الحالات . لقد كان ضَمُّ الأوحاء المتفرقة زمنيًا يتم بتجميع الأفكار التى تدور حول موضوع مركزى . وهكذا فإن الآيات ٢٢٠ ـ ٢٣٢ من السورة الثانية تتناول على التوالى الزواج والأيمان بعامة [الآيات ٢٢٤ ـ ٢٢٥] والإيلاء . ومع ذلك فهناك حالات خاصة أو غير متوقعة استدعت نزول وحى جديد يمكننا أن نجدها فى كثير من السُّوَر . مثال ذلك الأحكام المتعلقة بالطلاق والموجودة فى ست سُوَر . وهنا أيضا يعطينا القرآن انطباعا بالفوضى . إن الدوار ليصيبنا ونحن نتصفح السورة الثانية إذا رحنا نُحْصِى ما تناولته من موضوعات تنتقل فجأة من توجيهات للمؤمنين إلى حِجاج ضد اليهود ، لنصل إلى أحكام تتعلق بالأطعمة

المحرمة، فالقصاص ، فالشهادة ، فالصيام ، فالزواج ، فالطلاق ... إلخ . والشيء ذاته يسرى على نصوص أخرى تشريعية كانت قريبة الاتصال بالدعوة أو بالأحرى بالدعاية . ونجد مثالا على ذلك فى السورة الثالثة من الآية ٧٧ فصاعدا ، فإن الإشارة الواضحة إلى فشل محمد فى أُحد (٦٢٤م) يقطعها التحريم المعروف للقرض الربوى [الآية ١٢٥]، لتعود فتتخذ صورة التشجيع للمؤمنين . ما السبب فى ذلك ؟ أهو نصٌ وُضِع فى غير مكانه ؟ هناك فروض كثيرة محتمَلة ، لكن يبقى الانطباع بوجود هذا التنافر العجيب (٣٠) . ولقد كان على الأوحاء المدنية أن تتكيف مع ألوان جديدة من الفكر ، فكانت الآيات تزداد باستمرار ميلاً إلى الطول حتى لتبلغ الآية الواحدة أحيانا صفحة بتمامها . أما الجمل القصيرة المقفّاة أو المسجوعة فكانت كمثيلاتها فى المرحلة السابقة أو قريبة من ذلك . ومع هذا فإن الحاجة إلى إتيانها فى نهاية مجموعة من الجمل كانت على أشدها ، وإلاّ ما استطاعت هذه الجمل أن تشكّل وحدة أسلوبية . وإن الإنسان ليميل فى كثير من الأحيان إلى مقابلة السور المدنية بالأوحاء السابقة عليها مباشرة ، وإن كان الانتقال من هذه إلى تلك لا يتم فى الواقع على التوّ . وفضلا عن ذلك فإننا نجد فى سورة «البقرة» التى تتكون فى معظمها من نصوص نزلت فى المدينة أوحاءَ أقْدَمَ وُضِعَتْ هناك بلا سبب واضح . وإذا كان لا بدّ على الإطلاق أن نقابل هذه السُّوَر بالسُّوَر السابقة عليها فإن هذه المقابلة تدور حول نقطة واحدة فحسب . وكثيرة هى العظات الموجَّهة للمؤمنين فى هذه السُّوَر ، وكذلك المجادلات ضد غير المسلمين ، وهى تجرى على منوال السور السابقة . وقد يتغير الخصوم فيصبحون اليهودَ بدلا من مشركى مكة ، ولكن النبرة والحماسة وتوفز الكلام هى هى . أما الجديد فى الأمر فهو ظهور البنود التشريعية بدلاً من « الوصايا » ، وهذه البنود مضغوطة فى نصوص جافة تشبه مواد لائحة قانونية حيث تُذْكَر الحالات المندرجة تحت كل مادة ، والاستثناءات الضرورية ، والعقوبات التى تقع على مخالفى القانون . وهذه الأوحاء التى ليست لها أية قيمة أدبية (٣١) ، بل كل قيمتها فى أنها تشكل القانون الإسلامى ، ربما كانت أقدم الأمثلة على اللغة القانونية عند العرب .

لقد كان محمد مشغولا تماما بتوجيه أمته والكفاح ضد الكافرين حين نزلت

عليه، أثناء إقامته بالمدينة ، أوحاءً تغلب عليها الاهتمامات العملية ، فكان من جراء الاهتمام الزائد بالواقعيّ من الأمور والمباشر منها أن اختفى الطابع الغنائى [٣٢] ، وإن كنا لا نَعْدَم أن نجد هنا أو ههنا شيئا جِدَّ ضئيل من التوهج الجذاب الذى قد ينصهر فى بعض الأحيان فى تسابيح وترانيم . وقد يلوح أيضا فى نصوص حجاجية : ﴿ قل يا أهلَ الكتابِ ، هل تنقمون منّا إلا أنْ آمنّا بالله وما أُنْزِل إلينا وما أُنزِل من قبل وأن أكثركم فاسقون ؟* قل: هل أُنَبِّئكم بِشَرٍّ من ذلك مَثُوبةً عند الله ؟ مَنْ لعنه الله وغَضِب عليه وجعل منهم القِرَدَةَ والخنازِيرَ وعَبَدَ الطاغوتَ . أولئك شرٌّ مكانا وأضلُّ عن سَواء السبيل * وإذا جاؤوكم قالوا : آمنّا . وقد دخلوا بالكُفْر ، وهم قد خرجوا به. والله أعلم بما كانوا يَكْتُمون * وترى كثيرا منهم يسارعون فى الإثمِ والعدوانِ وأكلهِم السُّحْتَ . لَبِئْسَ ما كانوا يعملون !* لولا ينهاهم الرَّبَّانِيّون والأحْبارُ عن قولِهم الإثْمَ وأكلهم السُّحْتَ . لَبِئْسَ ماكانوا يَصْنَعُون ! ﴾ [المائدة ٥٩ ــ ٦٣].

وقد ترتب على هذا الوضع الجديد أن قصص الأنبياء العرب : صالح وشُعَيْب وهُود لم تعد تظهر فى السور المدنية ، وفى مقابل ذلك فإن الحجاج ضد اليهود ثم النصارى بعد ذلك قد استتبع إيرادَ تفصيلات جديدة تتعلق بإبراهيم وموسى وعيسى . وفى هذه السُّوَر لم تعد الوقائع القصصية أشياء مستقلة بنفسها بل أصبحت وكأن المهمّ هو الدرس أو العبرة التى يمكن استخلاصها منها . وهنا تبرز إحدى خصائص العقل العربى ، ألا وهى الميل إلى التجريد [٣٣] : ﴿ إذ قال الحَوارِيّون : يا عيسى بن مريم ، هل يستطيع رَبُّك أن يُنزِّل علينا مائدةً من السماء ؟ قال : اتّقُوا اللهَ إن كنتم مؤمنين * قالوا : نريد أن نأكلَ منها وتطمئنَّ قلوبنا ونعلمَ أنْ قدْ صَدَقْتَنا ونكونَ عليها من الشاهدين* قال عيسى بن مريم : اللهم ربّنا ، أنْزِلْ علينا مائدةً من السماء تكونُ لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآيةً منك ، وارزقنا ، وأنت خيرُ الرازقين * قال اللهُ : إنى مُنَزِّلها عليكم ، فمن يكفُرْ بَعْدُ منكم فإنى أعذّبه عذاباً لا أُعَذِّبه أحداً مِن العالَمين ﴾ [المائدة ١١٢ ــ ١١٥]. وأيا ما يكن مصدر هذه القصة فمن الواضح أن ما يهم محمدا ليس هو المعجزة بقدر ما هو إدانة من يدّعون الإيمان ، ولكنهم ضعيفوه .

ومن الملاحظ أن النصوص الأخروية كانت تقل تدريجيا طوال فترة الدعوة ، وقد ظهر هذا الطابع أجْلَى ما يكون فى السُّوَر المدنية ، إذ ليس هناك موضع آخر يقل فيه على هذا النحوِ التأكيد على عقيدة الجزاء الأخروى . ومع ذلك فهذا التأكيد ، كما هو الحال قبلا أو أكثر ، يقتصر على رواسم تتكرر دون تنويع لدرجة الكِظَة . حقا أننا فى بعض الأحيان نجد رسما تخطيطيا لايخلو من إيحاء [النساء ٥٩ ـ ٦٠]، وأحيانا أخرى لا نَعْدَم داخل الصورة التجريدية بضع تفاصيل طريفة تذكّرنا ببعض صور المرحلة المكية الأولى : ﴿ مَثَلُ الجنة التى وُعِدَ المتَّقون فيها أنهارٌ من ماءٍ غيرِ آسن ، وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغيرْ طعمه ، وأنهارٌ من خمرٍ لذّةٍ للشاربين ، وأنهارٌ من عسلٍ مصفًّى، ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربِّهم . كمن هو خالدٌ فى النار ، وسُقُوا ماءً حميما فقطَّع أمعاءَهم ﴾ [محمد ١٥] .

إلا أن هذه الأشياء ، فوق أنها استثناء من القاعدة ، تؤكد الانطباع بأن الوحى المدنى هنا أيضا كان خاضعا لحاجات المستمعين . لقد كان الرسول يتجه إلى ناس مؤمنين يعرفون جيدا ، من خلال السور المكية ، ما الجنة وما النار ، ومن ثم لم يكن الأمر يتطلب أكثر من إشارة أو تذكير ، وهو ما كان يكفى فيه رَوْسَمٌ أوجزئيةٌ دالّة . ولكن كان من الممكنِ أن يجدّ بعض التطور حتى فى مفهوم الجزاء ، فلم يعد نعيم الجنة وعذاب الجحيم يعْرَضان بوصفهما لذائذ وآلاما جسدية وحسب ، بل أضيف إليها مُتَعٌ وآلام أخرى صادرة عن شعورِ أحدٌ بالذنب أو بالنجاة : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ، قُوا أنفسَكم وأهليكم ناراً وقودُها الناسُ والحجارةُ ، عليها ملائكةٌ غلاظٌ شدادٌ لا يَعْصُون اللهَ ما أمرهم ، ويفعلون ما يُؤْمَرون * يا أيها الذين كفروا ، لا تعتذروا اليومَ ، إنما تُجْزَوْنَ ماكنتم تعملون * يا أيها الذين آمنوا ، توبوا إلى الله توبةً نَصُوحًا عسى ربكم أن يكفِّر عنكم سيئاتكم ، ويدخلكم جناتٍ تجرى من تحتها الأنهارُ يوم لا يُخْزى الله النبىَّ والذين آمنوا معهَ ، نورهم يسعى بين أَيديهم وبأيمانهم ، يقولون : ربَّنا ، أَتمم لنا نورنا ، واغفر لنا . إنّك على كلِّ شىءٍ قدير ﴾ [التحريم ٦ ـ ٨].

إن الإشارات الكثيرة إلى الأحداث المتنوعة التى صاحبت تاريخ المسلمين فى المدينة

تستحق وقفة خاصة . وهذه الإشارات ليس فيها ما يشبه رواية مفصلة أو تسجيلا أو حتى تخطيطا تاريخيا ، فكل شيء غامض وغير محدد، إذ لا ذكر لأسماء أو شخصيات أو تواريخ ، اللهم إلا إشارة خاطفة للمكان في بعض الأحيان . بل ليس هنـاك هذه النية الخفية التي ألهمت محرري سِفْرَي « الأخبار» اليهود الذين رغبوا في تخليد إنجازات الشعب المختار (٣٤) : ﴿ وإذ غَدَوْتَ من أهلك تُبَوِّئُ المؤمنين مقاعدَ للقتال ، والله سميع عليم * إذ همَّت طائفتان منكم أن تَفْشَلاَ ، والله وليُّهما . وعلى الله فليتوكَّلِ المؤمنون * ولقد نصركم اللهُ ببدرٍ وأنتم أذلّة . فاتقوا الله لعلكم تَشْكُرون * إذ تقول للمؤمنين : ألن يَكْفيَكُم أن يُمدَّكم ربكم بثلاثة آلافٍ من الملائكة مُنْزَلين ؟* بلى ، إن تصبروا وتتقـوا ويأتوكم مـِن فَوْرِهـم هذا يُمْدِدْكم ربكم بخمسة آلاف مِن الملائكـة مسوِّمين * وما جعلـه اللهُ إلا بُشْرَى لكم ولِتَطْمئنَّ قلوبكم به . وما النَّصرُ إلاَّ من عند الله العزيز الحكيم * لِيَقْطَعَ طرفا من الذين كفـروا أو يَكْبِتَهم فينقلبوا خائبين ﴾ [آل عمران ١٢١ ـ ١٢٧] .

ولابد أن نعرف أن هذا النص (وهناك الكثير الذي يجري على وتيرته) يتضمن الإشارة إلى واقعة تاريخية مؤكدة هي فشل المسلمين في أُحُد عام ٦١٤م . ومن السهل إدراك الصعوبة التـي تواجـه المؤرخ عند محاولته الاستفادة من مثل هذه الدراسات. إن النص القرآني يجول في ميدان مختلف تماما عن ميدان التاريخ لأنه يهدف إلى غاية أعلى ولا ينزل إلى ما دونها . إنه توجيهٌ وأسلوبٌ للدعوة . وإذا كانت الهزيمة ، كما هو الحال هنا، قد وقعت بالمسلمين فذلك لأنهم لم يتبعوا الأوامر الإلهية التي بلّغهم إياها نبيهم : ﴿ أَوَلَمَّا أصابتْكم مصيبة قد أَصَبْتُم مِثْلَيْها قلتم : أنّى هذا ؟ قل: هو من عند أنفسكم . إن الله على كل شئ قدير * وما أُصابكم يوم الْتَقَى الجمعان فبإذن الله ولِيَعْلَمَ المؤمنين * وليعْلَمَ الذين نافقوا وقيل لهم : تعالَوْا قاتلوا في سبيل اللهِ أو ادْفَعُوا . قالوا : لو نعْلَمُ قِتالاً لاتَّبعناكم . هم للكفر يومَئذٍ أقربُ منهم للإيمان . يقولون بأفْواهِهم ما ليس في قلوبهم ، والله أعلمُ بما يكتمون ﴾ [آل عمران ١٦٥ ـ ١٦٧].

وخلاصة القول أنه ليس فى الأوحاء المدنية ، من الوجهة الأدبية ، أى جديد ، وهذا راجع إلى محتواها نفسه . إن الحجاج ضد اليهود ليس فى حقيقته إلا امتداداً للهجوم على مشركى مكة . والنصوص التشريعية ، وإن كانت ذات أهمية فائقة فى نظر تاريخ اللغة ، ليست بطبيعتها نصوصا أدبية ، وقيمتها فى نظر المسلم تنحصر فى دقتها لخلوها من أية قيمة أسلوبية (٣٥). إن دعوة محمد ، وهى تكيِّف نفسها مع هذا المنعطف الجديد ، قد اتخذت فى هذه المرحلة النهائية شكلا من الممكن جدا من بعض النواحى أن يكون محتويا بالقوة على الجراثيم الأولى للنثر الأدبى .

تعليقات المترجم

١ـ المستشرق هنا يتكلم عن القرآن وكأنه نتاج عربى ، أى أن الرسول هو مؤلفه . ولكل إنسان ، بالطبع ، الحق فى أن يقول ما يشاء سواء أكان يعتقده فعلا أم كان العناد والحقد هما اللذين يمليانه عليه . وقد سبق أن رددت على هذه الشبهة أكثر من مرة فى هذا الكتاب ، بيد أنى أحب هنا أن أضيف أن ما فى القرآن من مبادئ وأفكار وموضوعات لايختلف تماما عما كان يعرفه العرب ويدعون إليه ويؤمنون به ويمارسونه ويهتمون به فحسب ، بل إنه قلب حياتهم رأسا على عقب . ثم لو كان محمد هو مؤلف القرآن وصاحِب ما فيه من مبادئ وأفكار أكان يسكت طيلة الأربعين سنة الأولى من حياته عن الدعوة إليها ثم ينشط فجأة بعد الأربعين ؟ إن هذا لو صحّ لكان شاذا غريبا . والشىء ذاته يقال عن القرآن بوصفه أدبا ، فإنه لا وشيجة تربط بينه وبين الأدب الجاهلى ، اللهم إلا اللغة التى كُتِب بها ، فلا الموضوعات هى الموضوعات ، ولا الرُّوح هى الروح ، ولا الجو الذى يسود سُوَره هو الجو الذى يسود ذلك الأدب ، ولا الصور الفنية فيه فى الغالب هى الصور الفنية هناك . بل إن السجع نفسه ، وهو جد مألوف فى النثر العربى جاهليّه وإسلاميّه ، يختلف فى القرآن عنه فى غيره . ولماذا نذهب بعيدا ، وعندنا أحاديث الرسول ، الذى يتهمه هؤلاء المستشرقون بتأليف القرآن ، وفى ظنى أن كثيرا منهم يكذب ويغالط ضميره ؟ إنها مختلفة عن القرآن أسلوبا ومذاقا وروحا وألفاظا وتراكيب برغم أن الموضوعات والأفكار والمبادئ التى تدور حولها هذه الأحاديث وتدعو إليها هى نفس ما جاء فى القرآن (انظر أيضا التعليق ٣٤ على الفصل الذى نحن بصدده) . وقد ظهر لصاحب هذا الكتاب مؤخرا دراسة فى المقارنة بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث عنوانها «القرآن والحديث ـ مقارنة أسلوبية» أثبتتْ بالدلائل الأسلوبية القاطعة أن الأسلوبين مختلفان تمام الاختلاف .

٢ـ سَلَفَ القول بأن المستشرقين يُولُون هذه المسألة اهتماما شاذا . ثم إن الأمر ليس بهذه الصعوبة التى يحاولون الإيهام بها ، ففى علوم القرآن مايسمى بـ « أسباب النزول » ، وهو ما يؤدى المهمة المطلوبة لمن يريدها . بل إنى أرى فى ترتيب الآيات

بداخل السور على النحو الموجود فى المصحف دليلا إضافيا على أن النبى ليس هو مؤلف القرآن ، فما دامت النصوص كان يتم تسجيلها أولا بأول فقد كان المتوقَّع ، لو أن النبى هو مؤلفها ، أن يأمر بترتيبها حسب نزولها بدلا من الانتظار فترة زمنية قد تطول أو تقصر قبل أن تكمل هذه السورة أو تلك بإضافة مجموعة من الآيات فى هذا الموضع أو ذاك منها ، لأن هذا حينئذ يكون تعقيدا لا مسوغ له وتصرفا شاذا لا يمكن فهمه ، وبخاصة فى ضوء شخصية الرسول البسيطة التى كانت أبعد ما يكون عن التكلف . فإذا علمنا بعد ذلك كله أن فى بعض السور ، رغم أنها لم تؤلَّف دفعة واحدة ولا حتى على دفعات متتالية ، إعجازا رقميا لم يُكْشَف عنها إلا فى أيامنا هذه . أفلا ينبغى أن يكون ذلك ، عند ذوى البصائر المتفتحة والقلوب المخبتة للحقيقة ، دليلا على أن محمدا ليس هو مؤلف هذا القرآن بل رسول من عند الله ؟

٣ ـ موقف القرآن والنبى من محاولة المشركين التصالحَ مع الدينِ الجديد واضح : ﴿ قل : يا أيها الكافرون * لا أعبُدُ ما تعبُدون * ... إلخ ﴾ ، ﴿ودُّوا لو تُدْهِنُ فيُدْهِنون * ولا تُطِعْ كلَّ حلّافٍ مَهِين * ... إلخ ﴾ . ولا ننس قوله عليه الصلاة والسلام : « والله لو جعلوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر أو أَهْلِك فيه ما تركته » ، ورفضه مثلا لدعوة طعام إلا إذا نطق أصحابه بكلمة التوحيد . أما قول المؤلف إن النبى كان « يصرخ فى البرّيّة » فهو مبالغة ، إذ كيف يقال ذلك وقد أسلم فى أوائل الدعوة خديجة وأبو بكر وعلى وعثمان وغيرهم من الذين يساوى الواحد منهم ألوفا ، وبهم نُصِر الإسلام نصرا مؤزَّرا ؟

٤ ـ هل يريد هذا المستشرق أن يقول إن أقوال النبى عليه السلام وأفعاله لم تكن محل اهتمام المسلمين قبل الهجرة مثلا ؟ إن الأحاديث النبوية لتبيّن بأجلى بيان أنه عليه أفضل الصلوات والتسليمات كان دائما محل الحب والاحترام والاهتمام والتبجيل من جانب أصحابه طوال فترة الرسالة قبْلَ وبعد الهجرة لأن هذه المشاعر كانت تنبع من كونه رسولا من عند ربه عز وجل لا من كونه حاكمًا . ولذلك فحياته وكلامه وتصرفاته قبل الهجرة مسجّلة فى كتب السنة والسيرة مثْلُها فى ذلك مَثَلُ ما كان يفعله ويقوله بعد الهجرة .

٥- عبارة « النزول على مقتضيات الواقع » قد تُوحِي بأن الرسول عليه أزكى الصلاة وأفضل السلام قد تخلّى عما كان ينبغى التزامه من مثالية . والحقيقة أننى لا أستطيع أن أعرف وجه العيب فى تكليف بعض الشعراء بالقيام بأعمال الدعاية أو فى استقبال وفود القبائل ... إلخ . ترى أكان المراد أن ينفصل النبى عليه السلام عن تيار الحياة من حوله ويعيش كما يعيش الرهبان ؟ أم كان المطلوب أن يقف مكتوف اليدين أمام أعدائه فيقتلوه ؟

٦- هذا المستشرق هو وزملاؤه لا يستطيعون أن يتخلصوا من إسار الطريقة التى أَلِفَ بها العهد القديم والعهد الجديد مع أن ثمة فارقا هائلا وحاسما بين القرآن وهذين الكتابين : فالقرآن وحى سماوى خالص لم تتدخل يد بشريه فيه إلا بالتسجيل ، أما هما فسيرةٌ لأنبياء بنى إسرائيل عليهم السلام كُتِبَتْ بعد انتقالهم إلى ربّهم بأزمنة طويلة، واختلط فيها الوحى بالأهواء والروايات البشرية مما فتح الباب على مصراعيه لعملية التحريف المتعمَّد وغير المتعمد ، وبخاصة أن هذين الكتابين لم يبْقَيا بلغتيهما الأصليتين . بل إن السيرة النبوية ، على رغم كل ما يمكن أن يقال فيها ، لهى أقرب كثيرا إلى الواقع من هذين الكتابين . كذلك فالقرآن إنما هو توجيه إلهى لكل البشر ، ودعوة لهم للدخول فى طاعة الله والقيام بواجبات الأخوة الإنسانية والعدل والرحمة والعمل الجاد المثمر ، وليس يُعْقَل أن يجعل الله سبحانه من قرآنه وثيقة تاريخية يقيد فيها ما يفعله الرسول وأتباعه يوما بيوم أو سنة بعد سنة . إن ذلك متوفر فى كتب السيرة والأحاديث النبوية ، كما أن ترتيب آيات القرآن تاريخيا لمن يريد ليس بالأمر الصعب . وقد سبق العلماء المسلمون إلى ذلك ، ولولا هم لم يكن المستشرقون ليتنبهوا إلى هذه المسألة التى يجعلون منها بالباطل قضية القضايا .

٧- الروايات الموثّقة المتواترة تقول عكس ذلك ، فلماذا هذا الاجتراء العجيب على حقائق التاريخ ؟ وماذا كان يفعل كَتَبَةُ الوحى إذن ؟ وما تلك النصوص التى اعتمدت عليها اللجنة التى كُلِّفَتْ بجمع القرآن على عهد أبى بكر بين دفّتَىْ كتاب إن لم تكن هى نصوص الوحى جميعه التى كان يسجلها كَتَبَتُه أوّلاً بأوّل حسب أمر الرسول

عليه السلام وتوجيهه والتى كانت محفوظة عنده عليه السلام ؟

٨ ـ مع هؤلاء المستشرقين لابد من أن يتمتع الإنسان بصبر أيوب وألا يملّ من تكرار البدهيات والحقائق التاريخية بغية القضاء على الأثر الذى ربما خلّفه تكرارهم المستمر للشُّبَه الواهية ، فإن الحديد لايفلّه إلا الحديد . ولذلك فلا بد من العودة ثانية إلى الرد على شبهة « نظام الكتابة البدائى » فنقول ، وبالله التوفيق ، إن مسألة الطريقة المتبعة فى الكتابة هى مسألة اصطلاحية . وأيا ما يكن الأمر فهل طريقة الكتابة فى اللغة الإنجليزية فى الوقت الحالى فى بريطانيا وأستراليا وأمريكا أعظم دول الأرض تقدّما وعلما أفضلُ كثيرا من طريقة كتابة اللغة العربية على عهد النبى عليه الصلاة والسلام ؟ فهل هذا مسوّغ للشك فى دقة قراءة ما تكتبه هذه الأمم بها ؟

ثم إن هذه الطريقة البدائية فى الكتابة على زعم هؤلاء المستشرقين هى التى كانت متبعة فى كتابة العهود السياسية والرسائل السفارية إلى أعاظم ملوك الأرض والمعاملات التجارية والديون وعقود الزواج وأسماء الجنود والموظفين وغير ذلك ، ولم يحدث لفترة طويلة أن ثارت بسببها أية مشاكل فيما حفظه لنا التاريخ . وعندما لم تعد هذه الطريقة كافية فى تجنب اللحن فى القرآن بعد دخول الأعاجم أفواجا أفواجا فى حظيرة الإسلام أحدث المسلمون فيها التطورات المطلوبة لمواجهة الظروف الجديدة، فكان النَّقْط والشَّكْل .

ولاشك أن هذه الطريقة المزعوم أنها بدائية كانت أنسب للعرب والمسلمين فى ذلك الوقت من الطريقة المكتوب بها المصحف الآن بالنسبة للمسلمين اليوم . فالمسلمون القدماء لم يكونوا يعرفون إلا تلك الطريقة التى ليست أسوأ من طريقة كتابة اللغة الإنجليزية مثلا كما قلت قبل قليل، ومن ثم لم يكونوا يجدون فى قراءة النصوص المكتوبة بها أية صعوبة ، وبخاصة إذا كانوا قد حفظوا هذه النصوص حفْظَهم للقرآن الكريم الذى كان شغلهم الشاغل ليل نهار ، إذ كان كل حياتهم وكان الهواء الذى يتنفسونه ، أما نحن فإن طريقة كتابتنا الحالية قد ابتعدت أشواطا عن الطريقة التى كُتِب بها المصحف (انظر التعليق ٦ على الفصل الثالث من هذا الباب) .

ومع ذلك فإن حافظ القرآن فى عصرنا ، حتى لوكان قد نَسيَه ، يكفيه أن يقع بصره على السطور ، ولو من غير تدقيق ، ليتذكر النص كما حفظه لأول مرة . وهو ما يحدث لنا نحن الذين حفظنا القرآن الكريم ونحن صغار، فمجرد إمساكنا المصحف وفَتْحُنا إياه على الصفحة المطلوبة ومتابعة السطور من بعيد متابعةً عامة كفيلٌ بعدم الوقوع فى الخطإ إلا إذا سها القارئ أو شتَّ ذهنه ، وذلك برغم الفرق الهائل بين درجة اهتمامنا بالقرآن ودرجة اهتمام المسلمين الأوائل به .

٩ـ انظر التعليق ٩ على الفصل الثانى فى هذا الباب .

١٠ـ هؤلاء المستشرقون يعكسون أخلاقهم وأخلاق زعمائهم السياسيين على المسلمين الأوائل فى مسألة مقدَّسة كمسألة جمع القرآن . الأمر ببساطة أنه ليس من المعقول أن يعتمد الجمع الثانى على مصحف هذا الصحابى أو ذاك، وهى مصاحف قُصِد بها الاستعمال الشخصى ولم تخضع لما خضع له مصحف أبى بكر من تدقيق شديد قام به مجموعة من الصحابة الذين اشتهروا بحفظهم التام للقرآن وإتقانهم الكتابة وغير ذلك من الصفات اللازمة للاضطلاع بهذه المهمة المقدسة . ونحن نعرف أن النسخة الشخصية لأى نص كثيرا ما يصعب بل قد يستحيل قراءتها على غير صاحبها الذى ربما يكون قد أضاف إليها ما يراه مفيدا من تعليقات وهوامش .

١١ـ وأين ذهب مصحف علىٍّ كرم الله وجهه ومصاحف أنصاره ؟ أوقد اغتصبها عثمان ؟ ولْنفترض أن عثمان قد اغتصبها ، فهل يا ترى قد اغتصب أيضا ما كانوا يحفظونه فى صدورهم ؟ إن أهمية هذين السؤالين تتضح إذا ذكّرنا القارئ الكريم بالحقيقة التاريخية التى هى أشهر من أن تُنْسَى ، حقيقة تولِّى علىٍّ الخلافة بعد عثمان . فإذا كان عثمان قد كتب مصحفا يختلف عن مصحف علىّ وأنصاره ، فلماذا لم يُلْغِ علىٌّ مصحف سَلَفه ويَفْرِض مصحفه هو بعد أن أصبح خليفة ؟

١٢ـ كان لهذه اللجنة منهجها النقدى الذى على أساسه رفضت رواياتٍ لبعض الصحابة الكبار ، ولم تأخذ بالمصاحف الشخصية التى كتبها هذا الصحابى أو ذاك لاستعماله الذاتى . ومن ذلك أنها لم تكتف بالمكتوب وحده ولابالمحفوظ وحده بل

كـان يظاهر هذا (عن طريق شـاهدين على الأقل) ذاك . وهى فى كل ذلك إنما كانت تستند إلى النسخة المكتوبة بأمر الرسول عليه الصلاة والسلام .

١٣ـ يقصد بلاشير بـ « اللغوى الحديث » هنا نفسه ونظراءه من المستشرقين الذين لايستطيعون أن ينطقوا حتى اسم الملاك « جبريل » ولا اسم النبى « محمد » نطقا صحيحا ، والذين يؤكِّد بعضهم أن الشعر الشرقى (الشرقى كله من غير استثناء : أقصاه ومتوسطه وأدناه) كثيرا ما يشبِّه العيون الحوراء بالبِيْض . لقد ناقشنا ملاحظات هذا « اللغوى الحديث » على أسلوب القرآن فتبين لنا أنه لا يحسن فهمه ، وإلا لما ترجم مثلا قوله تعالى : ﴿ أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ على الظالمين ! ﴾ بمعنى « أليست لعنة الله على الظالمين ؟ » مما لايسيغه الأسلوب العربى بحال مع أن النحاة قد أفاضوا القول فى «ألا» هذه ووضعوا لها مصطلحا خاصا بها هو « ألا الاستفتاحية » .

١٤ـ أرجو أن يعيد القارئ الكريم قراءة التعليق ٨ على الفصل الحالىّ.

١٥ـ انظر التعليق ٦ على هذا الفصل .

١٦ـ المستشرق ،كمعظم الأوربيين ، يتهم العقلية العربية بهذا مع أنه هو وقرناءه يعتمدون أسلوب التكرار والإلحاح على أفكارهم المتهافتة من أجل غرسها فى نفوس قرائهم من الأوربيين قبل المسلمين مما يدل على أن العقل البشرى هو هو فى أوربا وآسيا وأفريقيا رغم أنف النظريات العرقية الاستعلائية التى لفّقتها أوربة بعد نهضتها كردِّ فعل لما كانت تقاسيه من الإحساس العنيف الحادّ بالقلة والنقص فى مواجهة الحضارة الإسلامية المتفوقة ، تلك الحضارة التى أرعبتهم بتفوقها العلمى والاقتصادى والعسكرى قبل ذلك قرونا طوالا .

١٧ـ كيف يستقيم كلام هذا المستشرق هنا مع قوله سابقا إن الرسول فى مكة كان « يصرخ فى البرِّيَّة » ، أى أنه لم يستجب له إلا القليل جدا فى خلال ١٣ سنة ؟ ثم كيف تنسي لذةٌ حسِّيَّةٌ موعودة فى العالم الآخر العذابَ والأذى الذى كان كفار مكة يوقعونه بالمسلمينَ الأوائل ؟ إنه الإيمان الذى يشكل الاعتقاد فى الجنة جزءاً منه، وليست اللذائذ الحسّية .

١٨ـ يعنى أن القرآن ، وهو ما هو جلالا وروعةً ونُبلَ مبادئ وحلاوة أسلوب ، هو نتيجة هذيان محمد (ارجع إلى التعليق ٤ على الفصل الماضى) .

١٩ـ ألم أقل من قبل إن هؤلاء المستشرقين لايبالون أن يناقضوا أنفسهم مهما يكن هذا التناقض شنيعا فى سبيل إثارة البلبلة والاضطراب وإسدال نقاب الباطل على وجه الحق الأبلج المبين ؟ إن بلاشير هنا يزعم أن الرسول عَجَزَ عن كسب الكفار عن طريق حل وسط ، مع أن القرآن (وبلاشير لاينكر صحته، وإن زعم أن جامعيه ربما تركوا بعض ألفاظٍ لم يضموها إليه) وكذلك الروايات التاريخية الصحيحة تنص بصريح العبارة وواضحها على أن الكفار هم الذين كانوا يَسْعَوْن جاهدين وراء هذا الحل الوسط (اقرأ مثلا سورة « الكافرون » والآيتين ٩ ـ ١٠ من سورة « القلم » على سبيل المثال، وماقيل فى أسباب نزولهما) . وفضلا عن ذلك فإن الرواية المضعَّفة التى نسبها هذا المستشرق إلى البيضاوى برغم نَفْى هذا المفسر العظيم لصحتها نفيا قاطعا تنصّ هى أيضا على أن الكفار هم الذين كانوا يتلهفون على قبول الرسول لهذا الحل الوسط ، ومن ثم فما إنْ ذَكَر محمدٌ أصنامَهم بخير حتى سارعوا من فورهم إلى السجود وراءه مما يدل على أنه عليه السلام قد نجح فى كسب قومه حسب ما تقوله هذه الرواية نفسها . ثم إنه هو الذى رجع من فوره عن هذا إثر تنبيه السماء إياه إلى ما زلّ به لسانه سهوا أو نطق به الشيطان كما جاء فى الرواية ذاتها . فما معنى هذا الكذب المفضوح على الرسول عليه الصلاة والسلام ورسالته ، وإسناد الفشل فى اكتساب الكفار إليه ، وهو ما يصور هؤلاء الكفار فى صورة الواثقين بأنفسهم وعقائدهم ومحمداً عليه أزكى السلام بصورة المهزوز العقيدة ؟ ولكن كيف يا ترى استطاع محمد ، وهو المهزوز العقيدة ، أن يكسب هؤلاء الكفرة أصحاب الإيمان الصلب والعقيدة الراسخة بعد ذلك لا إلى حل وسط بل إلى الإسلام من غير أدنى تفريط فيه ؟

٢٠ـ ياله من تواضع زائف !

٢١ـ علينا أن نستحضر المواقف التى كان ينزل فيها الوحى بهذه القصص ، وهى مواقف العناد والاستهزاء والصمم التام من جانب كفار مكة حينما كانوا يرَوْن الرسول

وأنصاره مستضعَفين ، فكانوا (وهم الماديون القصيرو النظر) لايستطيعون استشفاف المستقبل حتى ولا بمساعدة هذه القصص التى كان يَقْرَع بها الرسول عليه السلام أسماعهم لعلها أن تحرك منهم جامد القلوب ومُغْلَق العقول . إننا حين نفعل ذلك نستطيع بسهولة أن نحسّ بما تنبض به هذه الآيات من حياة عنيفة عاصفة ، وما تنفثه من حرارة ملتهبة . كذلك ينبغى أن نرى فى قصص الأنبياء والأمم السابقة ، إلى جانب دلالتها التاريخية ، دلالة رمزية ، إذ هى بمعنى من المعانى تصوير للصراع الذى كان على أشُدّه بين النبى محمد عليه أطهر الصلاة وأسمى السلام وبين قومه ، وما يخبئه لهم الغيب من وبال ونكال وسوء حال إن هم أصروا على عنادهم وكفرهم وغطرستهم مثلما حاق بعاد وثمود وقوم فرعون وبقية الكافرين الجاحدين .

٢٢- إن طريقة رواية القصة فى سفر « الخروج » هى ، على العكس من ذلك ، طويلة ومملة ومرهقة ، وفيها تكرار ساذج خال من الفن والرواء لأنه لا مقتضى له . كذلك ليست العبرة أن تكون القصة مذكورة فى سفر «الخروج» أوْ لا ، بل فى أن القرآن الكريم ، حين استشهد بها ، إنما ساقها للإنذار والتحذير قبل أن يفوت الأوان وتنزل الطامة الكبرى (راجع التعليق السابق) .

٢٣- انظر إلى مثل هذا الكاتب الأوربى ابن القرن العشرين كيف يعزو المعجزة إلى مجرد تأثير بعض الألفاظ الطنانة ! أرأيت احتقارا للعقل والمنطق أشد من هذا ؟ إن زعماء المسلمين فى عصرنا هذا لم يدّخروا وسعا فى حشد الألفاظ والعبارات والخطب والكتب والمحاضرات والهتافات الطنانة وتطييرها على الأثير وعلى شاشات المرناء وأوراق الصحف والمجلات ... إلخ ، ولم تقع معجزة ولا يحزنون ، وما زالت بلاد المسلمين على تخلفها المعهود ! إن الانقلابات التاريخية الكبرى لاتتم ببعض الألفاظ الطنانة .

٢٤- تناول بعض الدارسين المسلمين هذه القصص التى يبدو أنها فى كل مرة تتكرر فيها يتم عرضها على نحو جديد يتطلبه الموقف الذى نزلت فيه . ولو كان بلاشير صادقا لأشار على الأقل إلى هذه الدراسات ، حتى لو عقب عليها بأنها غير مقنعة .

٢٥- أرجو التنبه إلى هذه اللّسعة الخبيثة ! إن الرسول حين يلح على مبادئ دعوته

إنما هو خطيب « شعبى » ، أما بلاشير ونظراؤه الذين يفعلون الشىء ذاته فى أبحاثهم وكتبهم فهم من صفوة الكتاب والمفكرين . إننا لو خلّصنا الحياة مما فيها من تكرار لانتهى عمر كلّ منا فى ساعات . إن لاعب الكرة يظلّ فى كل تدريب يتدرب مثلا على ضربة الجزاء حتى يتقنها ، والتلميذ فى المدرسة يدرس فى المرحلة الإعدادية ما درسه فى المرحلة الابتدائية مع شىء من التوسع والتفصيل ، ثم يعيد دراسة ذلك فى المرحلة الثانوية ثم يكرره فى الجامعة بمزيد من التفصيل وإدخال عناصرجديدة فى كل مرة ... وهكذا .

٢٦- وهل بين الكتب السماوية كتاب يخاطب العقل ويحاوره بالمنطق المبين كما يفعل القرآن ؟ إن القرآن من الغلاف إلى الغلاف دعوة إلى استخدام العقل والتفكير بحيث إن من تضييع الوقت أن أحاول التدليل على هذا . ولقد ألف عملاق الفكر العربى والإسلامى المرحوم الأستاذ العقاد فى هذا الموضوع كتابا بعنوان « التفكير فريضة إسلامية » .

٢٧- الحمد لله أن اعترف بلاشير لأسلوب القرآن الكريم ، إلى جانب موسيقى كلماته ، بمزايا أخرى (انظر التعليق ٢٣ على هذا الفصل).

٢٨- الحقيقة أن كل قصص العهد القديم تعانى من هذه العيوب ، وقد سلفت الإشارة إلى وجود تلك العيوب فى قصّة « الخروج » (انظر التعليق ٢٢ على هذا الفصل) .

٢٩- إنه يسمى كتابة الوحى « افتراضا » وكأنه هو الذى خمّنه ، وليس حقيقة مدعومة تاريخيا وتصدق على كل الوحى لا المدنى فقط .

٣٠- لقد سبق الرد على هذه الشبهة فى الفصل الثانى من الباب الأول، وقد دعمنا ردنا هناك ببعض الأمثلة التى اعتمدنا فيها على تصفح السور المستشهد بها فى المصحف . ويستطيع من يريد التوسع فى هذا أن يرجع إلى المقدمات التى استهل بها المرحوم سيد قطب تفسيره لسور القرآن . وأحب أن أقول إن الباحثين عن الخيط الفكرى والنفسى العام الذى يربط أجزاء السورة القرآنية بعضها ببعض قد يختلفون فيما

بينهم ، وهو ما يدل على أن السورة القرآنية يمكن النظر إليها ، فى هذه المسألة ، من أكثر من زاوية لثرائها وعمقها . وبالمناسبة فلكاتب هذه السطور فصل عن «ظلال القرآن» لسيد قطب يجده القارئ فى كتاب « من الطبرى إلى سيد قطب - دراسة فى مناهج التفسير ومذاهبه » ، وقد عالجتُ هذه النقطةَ فيه بشيء من الاستفاضة .

٣١- حتى هذه الموضوعات ، وهى فى أى قانونٍ جافةٌ شديدة الجفاف، نجد للتعبير عنها فى القرآن رونقا وجمالا غريبين ، وذلك من جراء ما تحفل به الآيات التى تتناولها من توقيع موسيقى ، وتقديم وتأخير ، وعبارات اعتراضية مُمَوْسَقَة ، وتنويع فى الجمل ، إلى جانب ما تضيفه الصورالجديدة أحيانا من لمسات سريعة حية ... إلخ . اقرأ مثلا الآية ٢٣ من سورة « النساء » ، وهى تتناول محرّمات الزواج ، وأَسْلِمْ فقط أذنك إليها تحملها الموجات الموسيقية وتهدهدها ما بين سكونٍ بعده حرْفٌ صائتٌ يوقَفُ عليه كأنه نصفُ سكونٍ فى « وبنات الأخت » ، وتاء مربوطة متحركة يوقف عليها فتتحول إلى هاء ساكنة هامسة فى « الرضاعة » ، وتشديد فى « بهنّ » ثم سكون مرتين فى «فإنْ لَمْ» ، لينتهى ذلك كله بتنوينٍ تعقبه مدةُ ألف فى « غفورًا رحيما » ، فكأنك تخرج بهذا التنوين والمدّ من نطاق الموجات الصغيرة لتحملك موجة كبيرة بعيدا بعيدا . وهذا كله ليس إلا نغْبة صغيرة على رغم أننا لم نبرح مجال الموسيقى بعد ، فكيف يتسنّى لهذا الرجل الحُكْمُ على مثل هذه الآيات بالجفاف ؟ والسورة من أولها تتناول تشريعات مثل هذه فى الزواج والميراث والزنا وما إلى ذلك ، فليقرأها القارئ مستعملا من أدوات حسه وإدراكه الأذن فقط ، وأنا كفيل بأنه سيجد فيها موسيقى غنية لا توجد فى أحلى قصائد الشعراء .

٣٢- لا أظن أن من بين سُوَر القرآن ما يضارع سورتى « الأنفال » و«التوبة» من حيث اهتمامهما بموضوعات الحرب والجهاد وتوزيع الغنائم وما إلى ذلك من الأمور العملية على حسب تعبير هذا المستشرق ، ومع ذلك فإن طابع الرونق والجمال والشاعرية التصويرية والموسيقية متحقق على أتمه فيهما . وإذا كنا قد رأينا ذلك متحققا فى آيات القرآن التى تتناول موضوعات هى بطبيعتها شديدة الجفاف ، فكيف لا يكون متحققا فى موضوعات الحرب والجهاد وخيانات المنافقين وطريقة توزيع الغنائم ، وهى

أكثر منها مَوَرانا بالحياة والحركة : الحركة المادية وحركة النفس والمشاعر ؟ إن السورتين موجودتان فى المصحف ، ولا أحب أن أقف حائلا بين القارئ وبينهما بتعليق أو توضيح . فليقرأ بنفسه ، وليتذوّق بنفسه .

٣٣ ـ ألم يقل هذا المستشرق من قبل إن القرآن هو انعكاس للفكر العربى ؟ إننا طبعا لانؤمن بهذا ، وقد سبق أن رددنا عليه بالتفصيل فى التعليق رقم ١ على هذا الفصل ، ولكننا نحب أن نحاكم فكر هذا المستشرق بعضه إلى بعض لنرى مافيه من تهافتٍ وتناقضٍ وفسولة . إنه هنا يزعم أن قصص الأنبياء الموجزة تبرز سمة من سمات العقل العربى ، وهى ميله إلى التجريد . إذن فما الذى تبرزه هـذه القصص ذاتها حين يُفَصَّل القول فيها ولا تساق بهذا الإيجاز ؟ أليس ينبغى ، بناء على طريقته فى الاستنباط ، أن نقول إنها تبرز خصيصة من خصائص العقل العربى هى ميله إلى التفصيل والتوسع فى تصوير المواقف الحية لا الفكرة المجردة ؟ وأين العقل العربى إذن بين هذه السمة وتلك ؟ أليس هذا هو التناقض بعينه ؟

٣٤ـ نكرر القول هنا ثانية بأن القرآن لم ينزل ليسجِّل ما فعله الرسول وأتباعه بل ليهدى الناس جميعا إلى دعوة الحق ، فهو ليس نتاجا عربيا ، ومن ثم لا يهمه تخليد إنجازات العرب ولا كان ذلك فى نيّته لأن العرب عنده ليسوا أفضل من أى جنس آخر إلا بالتقوى والعمل الصالح ، وهم يجوز عليهم الضعف والانحراف والخيانة ، مَثَلُهم مثل أية أمة أخرى .

٣٥ـ فليترك بلاشير الحديث عن القيمة الأسلوبية لمن يحسنه ، فإنه من الطُّموح المستحيل أن يحاول إنسانٌ ما الحكم على أثر أدبى بالغ من الروعة مبلغ القرآن وهو لا يحسن فهمه ولا يتقن « نحو » اللغة التى كُتِب بها .

الفهرست

إلى القارئ الكريم ٥

الباب الأول (الدراسات)

الفصل الأول (ترجمة سافارى) ٩

الفصل الثانى (ترجمة مونتيه) ٣٥

الفصل الثالث (ترجمة بلاشير) ٧٧

الفصل الرابع (ترجمة أبو بكر حمزة) ١٢٩

الباب الثانى (المترجمات والتعليقات)

الفصل الأول (القرآن ـ لسان هيلير) ١٤٧

تعليقات المترجم ١٦٧

الفصل الثانى (مصادر القرآن ـ لمونتيه) ١٧٥

تعليقات المترجم ١٩٩

الفصل الثالث (القرآن ـ لهوار) ٢٠٩

تعليقات المترجم ٢١٦

الفصل الرابع (القرآن ـ لبلاشير) ٢٢٥

تعليقات المترجم ٢٦٣